رواية

خدمت ملك إنجلترا

بوهوميل هرابال

ترجمة: خالد البلتاجي

ترجمت إلى 28 لغة

سفصافة
SEFSAFA PUBLISHING HOUSE
WWW.SEFSAFA.NET

بوهوميل هرابال

خَدَمْتُ مَلِكَ إنجِلْتِرا

ترجمة: خالد البلتاجي

رواية

SEFSAFA PUBLISHING HOUSE
WWW.SEFSAFA.NET

خالد البلتاجي/ مترجم مصري وأستاذ اللغويات والترجمة بكلية الألسن جامعة عين شمس بالقاهرة، حاصل على دكتوراه في علوم اللغة التشيكية من جامعة تشالز ببراغ؛ ترجم العديد من الأعمال الأدبية والدراسات المتخصصة في علم المصريات والسياسة والاجتماع من اللغتين التشيكية والسلوفاكية، منها رواية "الخلود" للأديب التشيكي العالمي ميلان كونديرا، والبلتاجي عضو اتحاد الكتاب المصري ونادي القلم الدولي.

....

خَدَمْتُ مَلِكَ إنجِلْتِرا

طبعة 2020

رقم الإيـــــداع: 2020/9095

الترقيم الدولي: 978-977-821-149-8

جميع الحقوق محفوظة ©

عدا حالات المراجعة والتقديم والبحث والاقتباس العادية، فإنه لا يسمح بإنتاج أو نسخ أو تصوير أو ترجمة أي جزء من هذا الكتاب، بأي شكل أو وسيلة مهما كان نوعها إلا بإذن كتابي.

No part of this book may be reproduced or utilized in any from or by means electronic or mechanical including photocopying recording or by any information storage and retrieval system without prior permission in writing of the publishers.

الناشر

محمد البعلي

إخراج فني

علاء النويهي

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبِّر بالضرورة عن رأي دار صفصافة.

This translation was supported by the Ministry of Culture of the Czech Republic

OBSLUHOVAL JSEM ANGLICKEHO KRALE

© 1971 Bohumil Hrabal Estate, Zürich, Switzerland

Knížka vychází s přispěním Ministerstva zahraničních věcí ČR

صدر هذا الكتاب بدعم من وزارة الخارجية التشيكية

Ministry of Foreign Affairs
of the Czech Republic

SEFSAFA PUBLISHING HOUSE
WWW.SEFSAFA.NET
elbaaly@gmail.com

دار صفصافة للنشر والتوزيع والدراسات

5 ش المسجد الأقصى - من ش المنشية - الجيزة - ج م ع.

بطاقة فهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية،
إدارة الشئون الفنية

هرابال، بوهوميل، ١٩١٤ - ١٩٩٧
خَدَمْتُ مَلِكَ إنجلْترا: رواية/ بوهوميل هرابال، ترجمة خالد البلتاجي، الجيزة: دار صفصافة للنشر والتوزيع والدراسات، ٢٠٢٠
٢٦٨ ص، ٢٠ سم
تدمك ٨-١٤٩-٨٢١-٩٧٧-٩٧٨
١- القصص التشيكية
أ- البلتاجي، خالد (مترجم)
ب- العنوان

٨٩١,٨٦٣

رقم الإيداع: ٩٠٩٥/ ٢٠٢٠

كأس عصير الرمان

اسمعوا وعُوا ما سأقصه الآن عليكم:

عندما جئت إلى فندق براج الذهبية جذبني مديره من أذني اليسرى، وجرني خلفه، وهو يقول: «تذكر أنكَ هنا مجرد نادل صغير! لا ترى ولا تسمع! قل ورائي!». فقلت إني لا أرى شيئًا ولا أسمع شيئًا في الفندق. فجذبني من أذني اليمنى، وقال: «وتذكر أيضًا أن عليكَ أن ترى كل شيء، وأن تسمع كل شيء! قل ورائي!». كررت وراءه مصعوقًا بأني سأرى كل شيء وسأسمع كل شيء. وهكذا بدأت العمل. نقف في السادسة صباحًا في صالة الطعام في طابور العرض. يأتي صاحب الفندق بينما يقف رئيس السعاة والسعاة على أحد جانبي السجادة، وأقف أنا -النادل الصغير- في آخر الصف، وعلى الجانب الآخر يقف الطهاة، وخدَمَة الغرف، ومساعدو الطهاة، ومسؤولة البار. يتفقدنا صاحب الفندق ليتأكد من أن مآزرنا، وياقات بزاتنا، وبزاتنا نظيفة لا بقع فيها، وأن كل الأزرار كاملة غير منقوصة، وأن أحذيتنا لامعة، ثم يميل كي يشتم

رائحة أقدامنا ليتأكد من أنها نظيفة، ويقول: «طاب يومكم، أيها السادة، طاب يومكن أيتها السيدات...». لا يجرؤ أحد بعدها على الحديث معه. علمني السعاة طريقة طي المفارش على الشوك والسكاكين. نظفت منافض السجائر. في كل يوم أنظف سلالًا معدنية لنقانق ساخنة أبيعها في محطة القطار. علمني إياها نادل صغير، لم يعد صغيرًا بعد أن بدأ يعمل على أرصفة القطارات، آه! طلب منهم ذلك الساعي أن يواصل بيع النقانق على الأرصفة! تعجبت كثيرًا من طلبه، لكني فهمت الأمر لاحقًا. لم أرغب في ما عدا توزيع النقانق الساخنة على القطارات. عدة مرات في اليوم الواحد أضع قطعة السجق في رغيف الخبز مقابل كرونة وثمانين سنتًا. أحيانًا يأتي من المسافرين من لا يملك أقل من عشرين كرونًا، وأحيانًا خمسين، ودائمًا ما بحثت عن فكة، رغم أنها في جيبي. واصلت بيع النقانق، المسافر يقفز إلى القطار، ثم يهرول ناحية النافذة، ويمد يده، فأضع فيها النقانق الساخنة أولًا، ثم أعبث في جيبي بحثًا عن الفكة، فيصيح المسافر فيّ كي أحتفظ بها، وأن أعيد إليه النقود الورقية الصحيحة... فأبحث عنها في جيبي على مهل، بينما ناظر المحطة يصفر. فأخرج أوراق البنكنوت من جيبي على مهل والقطار يتحرك، أهرول بجواره. أرفع يدي بعد انطلاق القطار حتى يكاد المسافر يلمسها بيده الممدودة. كان بعضهم يتدلى من القطار إلى درجة أن يمسك بساقيه أحد مرافقيه في الكابينة. ارتطم ذات مرة رأس أحدهم بونش، وآخر بعامود. بعدها تتباعد الأصابع، فأقف ألهث

بيد ممدودة، ممسكًا بأوراق البنكنوت بعد أن صارت ملكًا لي. نادرًا ما يعود مسافر ليأخذها. وهكذا بدأت أمتلك نقودًا، صارت بعد شهر عدة مئات، إلى أن بلغت ألف كرون. ظل المدير يأتي لتفقدنا منذ السادسة صباحًا، وكذلك في المساء قبل النوم ليتأكد من أن أقدامنا مغسولة. أُجبرت على الاستلقاء في سريري عند منتصف الليل. وهكذا بدأت لا أسمع شيئًا، رغم أني أسمع كل شيء، ولا أرى أي شيء، رغم أني أرى كل شيء من حولي. رأيت الضبط والربط، وفرح المدير وهو يرانا نتبادل الضغينة. لكن أن تذهب مسؤولة الخزينة إلى السينما برفقة نادل زميلها فهذا ما استدعى تحقيقًا في ذلك الصباح. تعرفت أيضًا على رواد المكان من المطبخ. في كل يوم أنظف الكؤوس على طاولة رواد المكان. لكل منهم رقم وإشارة خاصة به، كأس عليها صورة غزال، وأخرى نبات البنفسج، وكأس غيرها تحمل صورة صغيرة للمدينة. كأس مزوية، وأخرى منتفخة، إبريق فخاري يحمل علامة HB قادم من مدينة ميونخ. وهكذا ظلّت تأتي إلينا تلك الصفوة كل مساء؛ السيد كاتب العدل، ورئيس المحطة والقضاء، والطبيب البيطري، ومدير مدرسة الموسيقى، وصاحب المصنع المدعو بينا. أساعدهم جميعًا في خلع معاطفهم وارتدائها. كلما أحضرت لأحدهم كأس بيرة أضعها في يده، وأنا مندهش من أن الأثرياء قادرون على الحديث طوال الليل عن جسر صغير خارج المدينة نبتت حوله شجرة حور قبل ثلاثين عامًا، ومن هنا ينطلق الحديث: يقول أحدهم إن الجسر لم يكن موجودًا، ولم تكن هناك سوى

شجرة حور، يقول آخر إنها لم تكن شجرة حور، ولا جسرًا، بل مجرد لوح خشبي بسياج... وهكذا يحتسون البيرة، ويتسامرون حول نفس الموضوع، يصرخون ويسبون. يأخذون الأمر بكل جدية، يصرخ أحدهم في الآخر من على الطاولة بأن الجسر كان موجودًا، لا شجرة الحور، بينما يؤكد غيره من طرف الطاولة الآخر أن شجرة الحور كانت موجودة لا الجسر، بعدها يستقرون على مقاعدهم، وتهدأ العاصفة. يصرخون في بعضهم كي يطيب لهم طعم البيرة. في أوقات أخرى تنشب بينهم سجالات حول أفضل بيرة تشيكية، يؤكد أحدهم بأنها بيرة بروتيفين، بينما يؤكد ثانٍ بأنها فودنيان، وثالث بلزن، ورابع نيمبرج، أو كروشوفيتسا، ثم يندلع الصياح. لكنهم جميعًا سعداء، سبب صراخهم هو افتعال موقف يقضون فيه ساعات المساء... بعدها يميل مدير المحطة وأنا أقدم له كأس البيرة، ويهمس بأن أحدهم رأى السيد الطبيب البيطري عند بنات رايسكا، وأنه ظهر هناك في غرفة ياروشكا، فيجيبه مدير مدرسة المدينة همسًا بأنه بالفعل ظهر هناك، لكن ليس يوم الخميس، بل الأربعاء، وبرفقة فلاستا. فيقضون ليلتهم بطولها لا يتحدثون إلا عن بنات رايسكا، وعمن ظهر عندهن، ومن لم يظهر. أسمع منهم كل هذا، كل هذا اللغو، ولا يعنيني إن كانت هناك شجرة حور أو جسر صغير خارج المدينة، ولا أن أفضل بيرة هي برانيك، أم بروتيفين. لا رغبة لي في رؤية أو سماع أي شيء، وكل ما أردته هو أن أرى أو أسمع عما يدور في رايسكا. أحصيت الأموال، واجتهدت في بيع النقانق الساخنة كي أجمع ما

أقدر عليه من الأموال، لكن لم يتسع لي الوقت بالذهاب إلى بيت رايسكا. تعلمت البكاء فوق رصيف القطار. كنت نادلًا صغيرًا مسكينًا، تلوح أيادي الناس من فوقي بالنقود لظنهم أني يتيم. فنَمت في نفسي فكرة أن أهرب من النافذة ذات يوم بعد الساعة الحادية عشرة، وبعد أن أغسل قدمي، وأذهب لرؤية ما يحدث في بيت رايسكا. كانت بداية ذلك اليوم في فندق براج الذهبية غريبة. جاءت حفنة من الغجر بملابس مهندمة، كانوا من صانعي المدافئ الأثرياء، جلسوا عند طاولة، وطلبوا أطيب المأكولات والمشروبات. في كل مرة يطلبون فيها شيئًا يؤكدون أن لديهم أموالًا. جلس مدير المدرسة بجوار النافذة، بينما الغجر يزعقون، فانتقل إلى وسط المطعم، وواصل القراءة من كتاب في يده، من المؤكد أنه كتاب شيق للغاية لأن السيد المدير ظل يقرأ فيه وهو يتجاوز ثلاث طاولات. ظل يقرأ حتى وهو يجلس، تحسس المقعد بيديه وهو يواصل القراءة. نظرت وأنا أنظف الكؤوس للزبائن ناحية ضوء النهار لأرى أن الوقت لم يبلغ الظهيرة بعد، فقط بعض الزبائن يتناول الحساء مع كباب الحلة. كان على كل السعاة أن يفعلوا شيئًا باستمرار، حتى لو لم يجدوا ما يفعلونه. لذلك كنت أنظف الكؤوس بعناية فائقة، بينما مدير المطعم يسوي أدوات الطعام في الخزانة بقامة منتصبة، والنادل يعيد تسوية أدوات المائدة. فجأة رأيت وأنا أنظر من وراء كأس عليها صورة فندق براج الذهبية مجموعة من الغجر الثائرة خلف النافذة تهرول في عجلة إلى داخل فندقنا، فندق براج الذهبية، استلّوا

سكاكينهم في بهو الفندق، ثم حدث أمر رهيب. توجهوا ناحية الغجر، عمال المدافئ الذين على ما يبدو كانوا في انتظارهم، فانتفض العمال يجرون الطاولات، ويضعونها أمامهم كي يحولوا دون اقتراب سكاكين الغجر منهم، رغم ذلك سقط اثنان منهم فوق الأرض بسكين في ظهر كل منهما، بينما يطعن حاملو السكاكين الآخرين حتى في أيديهم. تناثر الدم على الطاولات بينما واصل مدير مدرسة الموسيقى القراءة دون انقطاع وهو يضحك، وعاصفة الغجر ثائرة من فوقه لا بجواره، تناثر الدم فوق رأسه، وعلى الكتاب في يده. طعنوا طاولته بالسكاكين عدة مرات، لكنه واصل القراءة. اختبأت أنا أسفل إحدى الطاولات، ثم حبوت ناحية المطبخ والغجر يصرخون، والسكاكين تلمع وتتطاير ومضاتها في أرجاء فندق براج الذهبية وكأنها ذباب ذهبي. تراجع الغجر إلى خارج المطعم دون يسددوا الحساب بينما تبعثر الدم على كل الطاولات. سقطت طاولتان منها على الأرض، وبقي على إحدى الطاولات إصبعان مبتورتان، وأذن مبتورة بضربة واحدة، ثم قطعة لحم. عندما جاء الطبيب ونظر إلى الرجلين المطعونين وإلى تلك الأجزاء المبتورة وجد في قطعة اللحم المبتورة جزءًا من عضلات اليد بجوار كتف الرجل، فخبأ مدير المدرسة رأسه في كفيه، واتكأ بمرفقيه على الطاولة، وواصل القراءة، بينما جمعوا باقي الطاولات عند المدخل كمتراس يحول دون هروب عمال المدافئ. لم يجد المدير أمامه سوى أن يأخذ مئزرًا أبيضَ مطرزًا بنحلات، ووقف أمام المطعم رافعًا كفيه، يخبر الزبائن القادمة أن

الفندق تعرض لحادثة مؤسفة، وأننا سنعاود العمل يوم غد. وقع على عاتقي تنظيف المفارش الملوثة بالدم. كثير من بصمات الأكف والأصابع. كان عليّ حملها جميعًا إلى الفناء، وإشعال النار في مرجل المغسلة. اجتهدت عاملة البوفيه ومساعدة المطبخ في تنظيف المفارش، وغليها. كان عليّ تعليق تلك المفارش، لكني لم أطل حبل الغسيل، ففعلتها مساعدة الطباخ نيابة عني، ووقفت أنا أناولها المفارش النديّة بعد عصرها. انتهت قامتي عند ثدييها، فضحكت، واستغلت الموقف كي تتهكم عليّ وتدس ثدييها في وجهي، وكأنها تفعلها عن دون قصد. تارة تضع أمام عيني أحد ثدييها، ثم الآخر بالتبادل فتحجب عني ضوء الشمس. تفوح من ثدييها رائحة عطرة، أرى رأسي من جديد بين ثدييها المتأرجحين كلما مالت لتأخذ مفرشًا من السلة. بعدها تعتدل فيتراجع ثدياها ويختبئان. كانت المرأتان تضحكان، وتقولان لي: يا بُني! كم عمركَ، هل بلغت الرابعة عشرة؟ ومتى بلغتها؟ ثم يحل المساء، وتهب الرياح، وتشكل المفارش ستائر مثل تلك التي نضعها في المطعم وقت حفلات الزفاف، أو أثناء الأمسيات الخاصة. وقتها أكون على أهبة الاستعداد، كل شيء يلمع من النظافة، وزهور القرنفل في كل مكان. كانوا يُحضرون -حسب الموسم- سلة كبيرة من الزهور. بعدها أذهب النوم. يسود الهدوء، وأرى المفارش تتراقص في الفناء، وكأنها تتسامر، فيعج الفناء بأحاديث الستائر. عندها أفتح النافذة، وأنسل منها وسط الستائر، أواصل التسلل بمحاذاة النوافذ، إلى أن أصل إلى بوابة الخروج،

فأثب من عندها إلى حارة ضيقة، أتنقل من مصباح إلى آخر. دائمًا ما كنت أنتظر في الظلام إلى أن يتجاوزني مشاة الليل، وأرى لافتة خضراء من بعيد عليها كلمة «رايسكا»، فأتوقف قليلًا، أنتظر حتى يعلو صوت الموسيقى من داخل البيت، عندها أستدعي شجاعتي، وأدخل. أجد في الدهليز نافذة صغيرة، فأتوقف. كانت تلك النافذة مرتفعة فأتشبث بها لأمد جسدي. فأرى السيدة رايسكا جالسة خلفها، وتقول: ماذا تريد أيها الفتى؟ فأجيبها بأني أريد أن ألهو. فتفتح لي لأدخل. هناك أرى فتاة شابة تدخن ذات شعر أسود مصفف إلى الخلف. تسألني: ماذا تريد؟ فأجيبها بأني أريد أن أتعشى، فتجيبني إن كان عليها أن تحضر لي العشاء إلى هنا، أم في الداخل، فيتورد وجهي، وأقول: كلا، أريد أن أتناول العشاء في غرفة منفصلة، فترمقني، وتصفر بفمها طويلًا، ثم تسألني وهي تعرف الإجابة: مع من؟ فأشير إليها، وأقول: معكِ، فتهز رأسها، وتمد لي يدها، وتأخذني من يدي عبر دهليز ضيق تضيئه مصابيح حمراء خافتة، وتفتح الباب. فأرى أريكة صغيرة، وطاولة، ومقعدين موبرين، وضوءًا يتسرب من خلف ستائر قصيرة، وتتدلى من السقف أفرع شجرة صفصاف حزينة. أجلس، وأشعر بالقوة بعدما أتحسس النقود في جيبي، وأقول: هل ستشاركينني العشاء؟ ماذا تشربين؟ فتجيب: شمبانيا، فأومئ برأسي، بعدها تصفق بيدها، فيأتي الساقي يحمل زجاجة، ثم يفتحها، ويضعها عند الخزانة. يحضر كأسين، ويصب فيهما الشراب. أشرب كأس الشمبانيا، فتدخل

فقاعاته في أنفي فأعطس، بينما الفتاة تشرب كأسًا وراء كأس. تقدم لي نفسها، ثم تخبرني بعدها بأنها جوعانة، فأقول: حسنًا، اطلبي ما طاب لكِ، فتقول إنها تحب المحار الطازج الذي يقدمونه هنا. فنأكل معًا المحار مع زجاجة شمبانيا أخرى. بعدها تبدأ في مداعبة شعري، وتسألني عن مدينتي، فأخبرنها بأني قادم من قرية صغيرة، وأني رأيت الفحم لأول مرة في حياتي العام الماضي. فتضحك، وتطلب مني الاسترخاء. شعرت ساعتها بدفء زائد فخلعت معطفي. قالت إنها تشعر بالحرارة، وسألتني إن كان في مقدورها أن تتخفف من ملابسها، فساعدتها. سويت ملابسها على المقعد، بينما تحرر أزرار سروالي. عندها تأكدت أن الحياة هنا في رايسكي[1] ليست فقط جميلة وفاتنة، بل هي الجنة. أمسكت برأسي، ودسَّتْه بين ثدييها، فشممت رائحة زكية. أغمضت عيني، وشعرت برغبة في النوم. رائحة عبقة من ثديين بضين، وبشرة ناعمة طرية؛ فدفعت برأسي إلى أسفل. تشممت رائحة بطنها، فتنهدت. شعور رائع لا مثيل له، صار غاية أمنياتي. فبقيت أدخر كل أسبوع من بيع النقانق الساخنة ثمانمئة أو أكثر. وصار لدي هدف رائع ونبيل. كان أبي يطلب مني أن يكون لي دائمًا هدف، عندها سانجح لأن لديّ ما أعيش من أجله. لكني ما زلت في منتصف الطريق. بعد ذلك خلعت ياروشكا بنطالي في صمت، ثم سحبت سروالي الداخلي، وراحت تقبّل عضوي. فجأة سرت قشعريرة في جسدي، واعترتني رعشة شديدة مما يحدث

1- رايسكا (rajská) بالتشيكية صفة من كلمة (Ráj) ومعناها الجنة. (المترجم)

في «رايسكا» جعلتني أطوي جسدي، وأقول: ما هذا الذي تفعلينه، يا ياروشكا؟ استفاقت، ونظرت ناحيتي، لكنها لم تتوقف. دست عضوي في فمها، بينما أنا أدفعها، لكنها كمن أصابه الجنون؛ قبضت على عضوي بين شفتيها، وراحت تحرك رأسها، وتزيد من حركاتها. بعدها توقفت عن دفعها وإبعادها. مددت جسدي، وأمسكت بأذنها. شعرت بماء سائل يتدفق من عضوي، على نحو مختلف عما اعتدته كلما فعلتها بنفسي. راحت الآنسة ذات الشعر الجميل تمتص بعينين مغمضتين ما كنت أدفقه من قبل بكل نفور، وأسكبه وسط الفحم في المخزن، أو في منديل فوق السرير... قالت بصوت مرهق بعدما همت واقفة: الآن يأتي دور الحب.... لكني كنت في شدة التأثر والإرهاق. حاولت المقاومة، فقلت: لكني جوعان، ألستِ أيضًا جوعانة؟ شعرت بالعطش، فأخذت كأس ياروشكا. همت تأخذه مني، لكنها لم تقدر على منعي من أن أشرب ما فيه. وضعت الكأس وأنا أشعر بخيبة أمل، فما وجدته في الكأس لم يكن شمبانيا، بل عصير أصفر. منذ البداية وهي تشرب عصيرًا دفعت ثمنه على أنه شمبانيا. وها أنا قد اكتشفت الأمر. ضحِكْت، وطلبت زجاجة أخرى، أحضرها النادل. فتحتها وصببت لنفسي منها، ثم عاودنا تناول الطعام. علا في داخل المحل صوت الأرغن. شعرت بأني أترنح من الثمالة بعدما أفرغنا ما في الزجاجة. حبوت على ركبتي، ووضعت رأسي في حجر الفتاة أقبله. ألوك شعرها وشارب فرجها بلساني. كنت خفيف الوزن، أمسكَتِ الفتاة بذارعي، وسحبتني ناحيتها، أفرجت

ساقيها، وهكذا أولجت عضوي لأول مرة في فرج امرأة. رأيت أمامي ما تمنيته طويلًا. جذبتني ناحيتها بقوة، وهمست تطلب مني أن أتمالك نفسي أطول وقت ممكن. لكنهما حركتان، وفي الثالثة أطلقت مائي في لحمها الدافئ. مالت، وصنعت بجسدها جسرًا بحيث لامست بشعرها وساقيها الأريكة. بقيت عالقًا بين ساقيها المنفرجتين حتى آخر لحظة، إلى أن ارتخى جسدي، وسحبت نفسي، واستلقيت جوارها. تنهدت، واستلقت، وظلت تتحسس جسدي، وتدلك بطني وكل جسمي... ثم حان وقت ارتداء الملابس، حان وقت الوداع ودفع الحساب. أخذ النادل يحصي ويحسب، ثم أعطاني فاتورة الحساب بمبلغ سبعمئة وعشرين كرونًا. انصرفت، أعطيت ياروشكا مئتي كرون أخرى. اتكأت على أول حائط قابلني بعدما غادرت «رايسكا»، وقفت وسط الظلام شاردًا، لأول مرة أعرف بما يحدث في هذه البيوت الرائعة، وفتياتها. قلت لنفسي: ها أنتَ قد تعلمت. غدًا ستعاود المجيء إلى هنا، وستتعامل مثل كبار القوم. فقد أدهشتهم جميعًا. جئت كنادل صغير يبيع النقانق الساخنة على رصيف القطار، وانصرفت على حال أفضل من أي سيد آخر يتردد على فندق براغ الذهبية لمجالسة رواد الفندق الذي لا يقدر عليه سوى النبلاء، وجهاء المدينة...

على الفور في اليوم التالي بدأت أرى العالم على نحو مختلف. فتحت الأموال أمامي أبواب «رايسكا»، وألبستني الاحترام. تذكرت جيدًا السيدة رايسكا وهي تراني في مكتب الاستقبال ألقي مئتي

كرون في الهواء، فاندفعت نحو يدي لتقبلها. ظننت أنها تريد أن تنظر إلى ساعة يدي التي لا وجود لها بعد لتعرف كم الساعة. لم تكن تلك القبلة من أجلي، أنا النادل الصغير في فندق براج الذهبية، بل قبلة للمئتي كرون، وللأموال التي معي. معي أنا الذي يحتفظ بألف كرون أخرى مخبئة في سريري، أنا الذي في مقدوره أن يجني المزيد منها، لا أجنيها اعتباطًا، بل بالعمل اليومي فوق رصيف القطار من بيع النقانق الساخنة. أرسلوني قبيل الظهيرة بسلة لشراء ورود، رأيت بعد عودتي رجلًا عجوزًا يحبو على الأرض بحثًا قطعة معدنية مستديرة. انتهبت وأنا في طريقي أن من بين الزبائن عندنا جنائني، وجزار، وصاحب محل ألبان. يلتقي عندنا موردو الخبز واللحم. كان مديري كلما نظر في الثلاجة يقول: اذهب فورًا إلى الجزار، وأخبره أن يأخذ هذا العجل النحيل فورًا، الآن وفورًا! وفي المساء يختفي العجل، بينما الجزار يجلس وكأن شيئًا لم يكن. يبدو أن هذا العجوز المتقاعد كان ضعيف البصر، فظل يعبث بكفيه في التراب. فقلت له: ما الذي تبحث عنه، يا والدي؟ فأجاب بأنه أضاع عشرين سنتًا. انتظرت إلى أن ظهر المارة بالقرب منا، وأخذت حفنة فكة، وألقيتها في الهواء، ثم أمسكت بأذن السلة، وخبأت رأسي في زهور القرنفل، وواصلت طريقي. التفت من عند ناصية الشارع لأرى بعض المارة يزحفون فوق الأرض، يظن كل منهم أن هذه الأموال قد سقطت من أجله. يوبخ أحدهم الآخر ويطلب منه أن يعيد إليه أمواله، فتندلع بينهم مشاحنات، ومشاجرات، ينهش

بعضهم الآخر مثل قط ينهش في حذاء، بينما أنا أضحك. عرفت على الفور ما يستثير الناس، وما هي أولوياتهم، وما هم على استعداد للقيام به مقابل بضعة نقود معدنية. عندما أحضرت الزهور، ورأيت أناسًا متجمعين أمام المطعم، هرولت إلى غرفة الضيوف، ثم ملت فوقهم، وألقيت حفنة من الفكة بحيث لا تسقط بجوارهم مباشرة، لكن على بعد بضعة أمتار منهم. ثم هرولت إلى أسفل، أهذب عيدان القرنفل. أضع عودين من الاسبراجس، ومعهما عودان من القرنفل في مزهرية صغيرة. أنظر من النافذة إلى الناس وهي تحبو فوق أربع لتجمع النقود، نقودي أنا، وتتشاجر في ما بينها بأن أحدهم قد رأى ذلك السنت قبل الذي أخذه... حلمت في تلك الليلة وفي الليالي التالية. تناوبت على الأحلام، حتى أثناء النهار عندما لا أجد ما أفعله ولزمًا عليّ أن أفعل شيئًا، أنظف الأكواب على أنني أقوم بعمل ما، وأنظر من خلالها إلى الجانب الآخر، على الميدان المتهدم، والعمود التذكاري، وعلى السماء، وسُحبها، أحلم أني أحلق فوق المدن الكبيرة والصغيرة، وفوق القرى والنجوع بجيب واسع، آخذ منه حفنات من النقود، وألقي بها فوق الأرصفة. ألقي بها كمن ينثر الحبوب، ودائمًا من وراء ظهور المارة، حفنة كبيرة من الفكة، فيتساقط معظمهم يجمعون تلك النقود، يتدافعون بالرؤوس كالخراف، ويتشاجرون، بينما أبتعد عنهم وأنا أشعر بالسعادة. أزدرد ريقي سعادة حتى وأنا في الحلم. أرى نفسي أغترف حفنات النقود من جيبي، ألقي بها من وراء ظهور الناس،

فتصلصل وتجلجل، وأنا أتطاير في عربات القطار مثل نحلة، أدخل القطارات وعربات الترام، أرمي القروش على أرضيتها فيعلو صليلها، فيميلون كلهم على الفور، ويتدافعون من أجل جمع قروش يظن كل واحد منهم بل ويتظاهر أنها قد سقطت من أجله هو دون غيره... كان ذلك الحلم يمنحني مزيدًا من الحماس. ولأني قصير القامة، ارتديت ياقة من المطاط. كانت رقبتي قصيرة وصغيرة، فانغرست تلك الياقة في رقبتي، وأسفل ذقني. أرفع دائمًا رأسي عاليًا كي لا أشعر بالألم. وهكذا اعتدت النظر إلى الناس، ولأنني شعرت بالألم كلما خفضت رأسي، اعتدت أن أميل بنصف جسدي، فأُبقي رأسي مائلًا إلى الخلف، أنظر بعينين مواربتين إلى العالم نظرة احتقار، وسخرية، وتجاهل حتى ظن زبائني أني مغرور. على هذا النحو كنت أقف وأمشي. قدماي دائمًا محمومتان مثل مكواة، أتعجب من أنهما لا تشتعلان فتحرقان حذائي. بقيتا تؤلماني، أحيانًا يبلغ بي اليأس درجة أن أصب مياهًا غازية في فردتي حذائي، خاصة وأنا في محطة القطار، فيختفي الألم لبعض الوقت ثم يعود، فتتملكني رغبة في خلع حذائي، والجري مباشرة صوب جدول ماء أغمر فيه ساقي. رحت أصب المياه الغازية في الحذاء، وأحيانًا أضع قطعة حلوى مثلجة. بدأت أفهم السبب الذي يجعل كبار السعاة وصغارهم يرتدون أقدم الأحذية، وأشدها تهالكًا، أحذية لا ترونها إلا في المزابل. بأحذية كهذه، دون غيرها، يتحملون الوقوف والحركة. حتى عاملات الغرف، ومسؤولو الخزينة، كلهم يعانون من ألم في

القدمين. كذلك كلما خلعت حذائي في المساء أجد ساقيّ ملوثتين بالتراب حتى ركبتي وكأنني لا أزحف طوال اليوم على أرض الفندق وسجاجيدها بل على تراب الفحم. ذلك كان الوجه الآخر لمعطفي، الوجه الخلفي لعمل كل نادل مبتدئ أو كبير في أنحاء العالم: قميص أبيض مُنشى، وياقة مطاطية بيضاء ناصعة، وقدمان يكسوهما السواد وكأنما بهما مرض عضال يصيب البشر قبيل الوفاة... لكني كنت أدخر الأموال كل أسبوع من أجل فتاة جديدة في كل مرة. الفتاة الثانية في حياتي كانت هي الأخرى شقراء. عندما ظهرت في رايسكا سألوني عما أريد، قلت إني أريد تناول العشاء، وأردفت على الفور أني أريده في غرفة منفصلة. وعندما سألوني عن الرفيق أشرت إلى تلك الشقراء، ومن جديد وقعت في غرام الشعر الأشقر. كانت أجمل من سابقتها، رغم أن الأولى لا تُنسى. وهكذا بقيت أختبر سطوة الأموال، أطلب الشمبانيا، أتذوقها في البداية، ثم تشاركني إياها الفتاة. لم أتحمل أن يصبّوا لي نبيذًا، وللآنسة عصيرًا. كلما استلقيت عاريًا، أتطلع إلى السقف، ترقد الفتاة بجواري وتتطلع هي الأخرى نحو السقف. فجأة أجد نفسي أقف، وآخذ من المزهرية زهرة فاوانيا، أنزع بتلاتها وأنثرها على بطن الفتاة. مشهد جميل بث في نفسي الدهشة. اعتدلت الفتاة لتنظر إلى بطنها فتساقطت أوراق الفاوانيا، وأنا أدفعها برقة إلى الخلف كي تظل مستلقية. نزعت مرآة من مكانها، ووضعتها بحيث ترى الفتاة بطنها جميلة وهي مغطاة ببتلات الفاوانيا. قلت: سيكون رائعًا أن أغطي بطنكِ في

كل مرة آتي فيها إلى هنا، وأجد الزهور. قالت إنها لم ترَ كل هذا التقدير لجمالها من قبل، وقالت أيضًا إنها وقعت في غرامي بسبب تلك البتلات. أجبتها: كم جميلًا أن أقطع أغصان الصنوبر النابتة وقت أعياد الميلاد، وأطوق بها بطنكِ، قالت: سيكون أجمل لو طوقت بطني بنبات الدبق، والأجمل أن تطلب منهم أن يضعوا في السقف فوق الأريكة مرآة كي نرى بعضنا ونحن نائمان. الأهم أنها جميلة فاتنة الجمال وهي عارية، وإكليل الورود يلف جسدها. إكليل الورود الذي يتغير حسب فصول السنة، وحسب الورود التي تميز كل شهر عن غيره. سيكون جميلًا وأنا أغطيها بزهور اللؤلؤ ودموع العذراء، وزهور الذهب، وبالأوراق الملونة... ثم وقفت أعانق نفسي، شعرت أني كبير وأنا أغادر المكان. أعطيتها مئتي كرون، فأعادتها لي. وضعتها على الطاولة، وانصرفت يغمرني شعور بأن قامتي قد طالت وبلغت مترًا وثمانين سنتيمترًا. أعطيت السيدة رايسكا مئة كرون من وراء النافذة، فمالت ونظرت إليّ من خلف نظارتها... خرجت وسط الظلام وقد ترصعت السماء بالنجوم. لكني لم أرَ سوى شقّار الكبد، وبصلة بيضاء، وورود اللبن، وزهرات الربيع تغطي بطن الفتاة الشقراء. كلما خطوت ملأتني الدهشة؛ كيف جاءتني فكرة أن أغطي بطن فتاة وكأنه طبق من اللحم المدخن المتدثّر بالخضروات، أن أغطي بطنها وخصلات شعرها في منتصفها. واصلت طريقي وأنا أفكر في الزهور، أغطي الشقراء العارية بورود عرق انجبار، وبتلات التوليب والسوسن. قررت أن أمعن التفكير في الأمر بكل تفاصيله

كي أؤمّن لنفسي متعة تلازمني طوال العام. لن أشتري بالأموال فتاة جميلة وحسب، بل الشعر أيضًا. في صباح اليوم التالي، عندما وقفت على السجادة الحمراء، والمدير يمر ليتأكد من أن أقمصتنا بيضاء ناصعة، وأزرارها لامعة. عندما قال لنا: طاب يومكم، سيداتي سادتي! نظرتُ إلى العاملة، وخادمة الغرف. تفحصت مآزرهما البيضاء. جذبتني العاملة من أذني، فحدقت فيها لأتيقن من أن أيًّا منهما لن تسمح بأن أطوق بطنها وزغبها بزهور الفاونيا أو اللؤلؤ، فما بالك بطوق من غصينات الصنوبر أو الدبق.... رحت أنظف الكؤوس، أرى من ورائها النوافذ الكبيرة، ومن خلفها مارة يروحون ويجيئون، أرى جذوعهم مبتورة بلا أقدام. واصلت توزيع زهور الصيف، أرفعها من السلال واحدة تلو الأخرى. أرصّ البتلات والزهور على بطن شقراء جميلة في رايسكا، بينما هي مستلقية على ظهرها بساقين منفرجتين، وأنا أغطي جسدها، وحول فخديها. كلما تساقطت تلك الزهور أثبتها بصمغ عربي، أو بمسمار صغير خفيف، أو بدبوس دقيق. على هذا النحو رحت أنظف الكؤوس بكل دقة. لم يطلب مني أحد تنظيفها على هذا النحو. أرش الزجاج بالماء، وأضع الكأس أمام عيني، وأنظر إن كان نظيفًا. أفكر من خلال الكأس في ما سأفعله في رايسكا. وهكذا بلغت آخر زهرة في الحدائق والمروج، وفي الغابة. حزنت، وقلت لنفسي: ماذا سأصنع في الشتاء؟ بعدها انفرجت أساريري لأن زهور الشتاء أجمل. سأشتري بخور مريم، ونبات المنغولية. سأذهب إلى مدينة براج لأشتري زهور السحلب،

أو أنتقل للإقامة في براج. هناك سأجد وظيفة في مطاعمها، هناك سأتمكن من جمع الزهور طوال الشتاء. اقتربت ساعة الظهيرة. وزعت الأطباق والمفارش، والبيرة وعصير الرمان والليمون. حلت ساعة الظهيرة والهرولة. فُتحت الأبواب، وكانت تلك الشقراء من رايسكا أول القادمين. استدارت لتغلق الباب... جلست، ثم فتحت حقيبتها، وأخرجت منها مظروفًا، ثم التفتت من حولها. عصبت رباط حذائي على الفور بينما دقات قلبي تحتد لتبلغ ركبتي. جاء مدير الصالة يقول: أسرِع! انصرف إلى عملكَ. حنيت رأسي وأنا أشعر أن ركبتي قد بادلت مع قلبي الأماكن. اهتزت بعنف، لكني استجمعت شجاعتي، ورفعت رأسي عاليًا قدر استطاعتي، ثم وضعت المفرش على ساعدي، وسألت الفتاة عما تريد. أجابت أنها تريد أن تراني، وترغب عصير توت. رأيتها ترتدي فستانًا صيفيًّا، فستانًا مطرزًا بزهور الفاوانيا. بتلات الفاونيا تلف جسدها. شعرت بسخونة تسري في جسدي، واحمر وجهي كذلك مثل زهور الفاوانيا، وهذا ما لم أتوقعه. هناك أنفق أموالي، الآلاف من أموالي. لكن ما رأيته الآن مشهد مجاني. انصرفت لأحضر أكواب عصير التوت، رأيت المرأة الشقراء وأنا عائد أحمل الكؤوس تضع المظروف على مفرش الطاولة، وتتدلى منه المئة كرون التي أعطيتها، تنظر ناحيتي على نحو جعل الكؤوس تهتز في يدي، فسقط أولها، ومال وانسكب في حجرها. فجاء مدير صالة الطعام على الفور، ومن ورائه كبير السعاة يهرول. اعتذرا لها. جذبني المدير من أذني، ودار بها. كان تصرفًا

غير موفق، صرخت الشقراء، وعلا صوتها في أرجاء المطعم: ما هذا الذي تفعل؟ أجابها المدير: سكب الشراب، وبلل فستانكِ، وعليّ أن أدفع ثمنه... فقالت: وما دخلك أنتَ بما حدث. أنا لا أنتظر منكَ أي شيء. كيف تسمح لنفسكَ أن تهين هذا الرجل؟ أجابها المدير بصوت رقيق: لقد بلل فستانكِ... توقف كل من المطعم عن الأكل، أضافت: هذا ليس من شأنك، وأنا آمركَ أن تكف عن هذا الحديث. انظر! ثم أخذت كأس عصير، وصبته فوق رأسها فبللت شعرها، وأتبعته بكأس آخر، فتبللت تمامًا بعصير التوت، وفقاعات الصودا، ثم صبت كأسًا آخر في فتحة صدرها... وقالت: سأدفع الحساب... وانصرفت ترافقها رائحة التوت، بفستانها الحريري المطرز بزهور الفوانيا، وبعض النحلات. أخذ المدير المظروف من على الطاولة، وقال: الحق بها، فقد نسيت هذا المظروف... فهرولت وراءها لأجدها تقف في الميدان. وكأنها متجر في السوق يبيع العسل التركي؛ تجمعت النحلات والدبابير فوق فستانها ترتشف العصير الحلو الذي غرقت فيه وهي لا تقاومها. وكأن لها جلدًا آخر غير جلدها، جلدًا خفيفًا، وكأنه ورنيش طلوا به خشبًا أو سطحًا ظاهرًا. وقفت أنظر إلى ذلك الفستان، ثم مددت يدي بالمظروف والمئتي كرون. أعادته لي، وقالت إني نسيته بالأمس عندها... وطلبت أن أحضر في المساء إلى رايسكا، فقد اشترت باقة أزهار الخشخاش البري... رأيت عصير التوت وقد جففته الشمس فوق شعرها، فصار صلبًا، جامدًا مثل فرشاة دهان نسيتم وضعها في الزيت فجف فوقها

الطلاء. صار مثل صمغ عربي منثور، مثل شيلاك. رأيت فستانها وقد التصق على جسدها بذلك العصير الحلو، وعليها أن تزيله وكأنها تزيل من على الحائط ملصق دعاية قديمًا، أو ورق حائط عتيق، لكن هذا ليس بيت القصيد. ما أهالني هو أنها تحدثت معي، ولم تخشَنِي. عرفت عني أكثر مما يعرفون في صالة الطعام التي أعمل فيها. قال لي المدير في تلك الليلة إنهم سيحتاجون غرفتي في القبو لتحويلها إلى مغسلة، وأن عليّ نقل أغراضي إلى الطابق الأول. قلت له: هذا سيحدث غدًا. أليس كذلك؟ لكن المدير نظر إليّ وأنا على يقين من أنه يريدني أن أنتقل الآن على الفور. قال لي مؤكدًا إن عليَّ أن أذهب للنوم في الساعة الحادية عشرة، وإنه مسؤول عني أمام والدي والمجتمع، وإن نادلًا مبتدئًا مثلي عليه أن يعمل طوال اليوم، وأن ينام الليل بطوله...

كان التجار المتجولون أقرب رواد المطعم إلى قلبي. ليسوا جميعًا، فقد كان من بينهم رواد يتاجرون بسلع عديمة القيمة، لا يُقبل أحد عليها، إنهم تجار الماء الساخن. من أقربهم إلى قلبي كان ذلك التاجر السمين. عندما جاء إلينا أول مرة هرولت ناحية السيد المدير على نحو أفزعه، فسألني: ماذا حدث؟ فقلت له على الفور: يا سيدي المدير، لدينا زيارة هامة. فانصرف ليرى، وبالفعل أثنى عليّ المدير، فأنا لم أرَ رجلًا سمينًا إلى هذه الدرجة من قبل. تخير له غرفة اعتاد هذا التاجر المتجول النزول فيها في كل مرة. سرير أعد له خصيصًا، وضع الخدام في أسفله أربعة قوالب حجرية، ودعموه بألواح خشبية ثقيلة. أعطانا الرجل

انطباعًا حسنًا عنه. فقد رافقه عامل يحمل على ظهره شيئًا ثقيلًا. بدا ذلك العامل مثل شيالين المحطة؛ يحمل على أحد السيور ما يشبه آلة للكتابة. في المساء تناول ذلك الزبون عشاءه. كان دائمًا أثناء العشاء يمسك بقائمة الطعام في يده، وينظر فيها وكأنه عاجز عن اختيار نوع الطعام الذي يريده، ثم يقول: باستثناء هذه الرئة الحامضية أحضروا لي كل أنواع الوجبات الرئيسة، وجبة وراء الأخرى، وكلما انتهيت من وجبة أحضروا الثانية، إلى أن أخبركم أني قد اكتفيت. بعد أن يفرغ من طعامه، ودائمًا ما تناول عشر وجبات على الغذاء، يغفو قليلًا، ثم يقول إنه يريد شيئًا ليأكله. في البداية يطلب مئة جرام من النقانق. وعندما يحضرها له المدير يأخذ ذلك الزبون حفنة نقود في كفه، ثم يفتح الباب ويلقيها في الشارع. بعدها، وبعد أن يأكل بعض شرائح اللحم، يأخذ حفنة أخرى من النقود الفكة، ويلقيها بغضب في الشارع، ثم يعود إلى مقعده والحنق بادٍ عليه، فيتبادل رواد المكان النظرات، ثم يلتفتون إلى المدير الذي أسقط في يده، فلا يقدر إلا على الوقوف والانحناء أمامه يسأله: يا سيدي، لماذا ترمي هذه النقود الفكة، لا أقصد أي إهانة؟ يجيبه الزبون: ولمَ لا ألقي الفكة في الشارع وأنت، صاحب هذا الفندق تبددها في كل يوم... بعدها يعود المدير إلى طاولته، ويُبلغ الزبائن بما قاله الرجل فتزداد دهشتهم. يعود المدير إلى طاولة الرجل السمين، ويقول له: عذرًا، لكن هذا المكان ملكي أنا، بدد أموالك كما تشاء، لكن ما علاقة نقودي بالأمر... يقف الرجل السمين، ويقول: اسمح لي أن أشرح

لكَ الأمر، هل لي أن أدخل إلى مطبخك؟ ينحني المدير، ويدفع بيده باب المطبخ ويدعوه إلى الدخول. يدخل الرجل، وبعدها أسمعه يقدم نفسه: أنا وكيل شركة فان بيركل، من فضلك، اقطع لي مئة جرام من النقانق! فتقوم زوجة المدير بتقطيع النقانق، ثم وزنها، ووضعها في طبق صغير. خشينا جميعًا من أن يكون هذا تفتيشًا علينا. لكن الزبون يصفق، فيقف عامل جالس في ركن المطعم، ويرفع الغطاء عن شيء ما، بدا وكأنه دولاب صغير. يدخل العامل إلى المطبخ، ويضع هذا الشيء على الطاولة. يسحب الرجل الغطاء من عليه، فتظهر من تحته ماكينة حمراء رائعة. ماكينة تقطيع مستديرة لامعة، تتحرك فوق عمود في نهايته مقبض ومسند، وزر صغير يدور... يبتسم ذلك الرجل السمين بسعادة وهو ينظر إلى الماكينة ويقول: اسمحوا لي، إن أكبر شركة في العالم هي الكنيسة الكاثوليكية التي تصنع ما لم يره إنسان من قبل، أو يلمسه. تصنع شيئًا لا مثيل له في العالم، شيئًا يطلقون عليه اسم الله، الشركة الثانية على مستوى العالم هي شركة إنترناشيونال. إنها، يا سادتي، ماكينة متاحة للعالم بأسره، ماكينة اسمها خزانة، تضغط في كل يوم على أزرار، فتطبع أرقامًا، وفي المساء تجدها تحصي ميزانية اليوم نيابة عنكم، بدلًا أن تحصوها بأنفسكم. الشركة الثالثة على مستوى العالم، وهي الشركة التي أمثلها، هي شركة فان بيركل التي تصنع الموازين الدقيقة لكل بلاد العالم، بدءًا من خط الاستواء وحتى القطب الشمالي. كذلك تنتج شركتنا كل أنواع الماكينات المخصصة

لتقطيع اللحم واللانشون. سحر هذه الماكينات يكمن في أنها... ثم قطع جزلة لانشون بعد أن استأذن، وضع الجلد على الميزان، ثم أدار بيد واحدة ذلك المقبض، وضغط قطعة اللانشون بيده الثانية على سكين متحرك، فتراكمت شطائر اللانشون خارج الماكينة، وارتفعت. قطع كل جزلة اللانشون فلم يبقَ منها سوى القليل... توقف الرجل عن تحريك المقبض، وسأل: كم تظنون مقدار اللانشون الذي قطعته؟ قال المدير: مئة وخمسون جرامًا، وقال رئيس الطهاة: مئة وعشرة. سألني: وما رأيكَ، أيها القصير؟ قلت: ثمانون جرامًا. جذبني المدير من أذني، وطواها، وقال للرجل متعذرًا: إن أمه أوقفت نموه عندما بلغ رأسه ثديها. لكن ممثل الشركة خبطني برفق، وقال وهو يبتسم لي بعذوبة: هذا الفتي أقرب إلى الإجابة الصواب. ثم وضع شرائح اللحم فوق الميزان، فجاء الوزن سبعين جرامًا. تبادل الجميع النظرات، والتفوا حول تلك الماكينة الصغيرة المعجزة، تأكدوا جميعًا أن هذه الماكينة ستدر عليهم أرباحًا. تفرقوا من حول الماكينة، وأخذ ذلك الرجل حفنة من النقود، وألقى بها في برميل الفحم، وصفق بيديه، فأحضر خادمه طردًا آخر. بدا من تحت الغطاء مثل ناقوس كانت العجائز تخبئ فيه تمثال العذراء مريم. رفع الغطاء فظهر من تحته ميزان يشبه موازين الصيدليات. مؤشره الصغير دقيق للغاية، يزن حتى كيلوجرام واحد فقط. قال ممثل الشركة: أيها السادة، هذا الميزان دقيق إلى درجة أني لو نفخت فيه لأظهر وزن الهواء الذي أنفثه. وبالفعل نفخ الرجل فتحرك الميزان، وأخذ

شرائح اللحم من على ميزاننا، ووضعها على ميزانه، فتحرك المؤشر إلى درجة سبعة وستين جرامًا ونصف الجرام. اتضح أن ميزان المدير يسرق جرامين ونصف الجرام. أخذ الرجل يحسب فوق الطاولة، وقال: ها هي! ثم وضع خطًّا تحت نتيجة حساباته، وقال: لو بعت خلال الأسبوع عشرة كيلوجرامات من شرائح اللحم، فسوف يوفر لك هذا الميزان جرامين ونصف الجرام مضروبين في مئة، أي ما يعادل نحو نصف لفة لحم... ثم وضع ساعده على الطاولة، وقبض راحته، ولامس الأرض بأطراف قدميه رافعًا كعبيه إلى أعلى، وابتسم ابتسامة المنتصر. قال المدير: انصرفوا جميعًا، سوف نجري مباحثات هنا. أريد أن تتركوا كل شيء هنا كما هو، سأشتريه! قال ممثل الشركة وهو يشير إلى خادمه: إنها عينات تخصني، رجاءً! تجولنا لمدة أسبوع في مطاعم جبال كِركنوش بهذه العينات، بعنا في كل في مطعم تقريبًا ماكينة تقطيع اللحم، وميزانًا. هذه الماكينات التي أمامك أعتبرها موفرة للضرائب. هذا خلاصة القول! يبدو أني أثرت إعجاب ممثل الشركة، ربما ذكرته بشبابه، فلما رآني ربت على كتفي، وابتسم لي بعذوبة حتى كاد يبكي. أحيانًا كان يطلب مياهًا معدنية في غرفته. كلما ذهبت إلى غرفته وجدته مرتديًا بيجامة، ممددًا فوق السجادة، وبطنه بجواره مثل برميل ضخم. أعجبني أنه لم يخجل من بطنه، على العكس، يحملها أمامه وكأنها لافتة دعائية يجوب بها العالم الذي انفتح أمامه. دائمًا ما قال لي: اجلس، يا بني، ثم يرسم ابتسامته المعهودة. دائمًا ما شعرت

وكأن أمي هي من يداعبني، لا أبي. قال لي ذات مرة: أتعرف، بدأت حياتي مثلك، في سن مبكرة تمامًا، في شركة كوريف لتجارة الخردوات، يا لها من أيام، يا بني، ما زلت حتى اليوم أذكر رئيسي في هذه الشركة. دائمًا ما قال لي: التاجر الناجح دائمًا لديه ثلاث صفات: عقارات، وتجارة، ومخزن. عندما يخسر مخزنه، تبقى له تجارته، وعندما يخسر تجارته ومخزنه، يبقى له عقاره، وهذا العقار لا يأخذه منه أحد. أرسلوني ذات مرة كي أحضر أمشاطًا عظمية رائعة، وكان ثمنها ثمانمئة كرون. وضعتها على حمالة دراجتي في حقيبتين كبيرتين -خذ هذه الحلوى! خذ هذه! إنها حبات كرز مغلفة الشكولاتة- وبينما أدفع الدراجة فوق التل.. كم عمركَ؟ أجيبه بأن عمري خمسة عشر عامًا، فيومئ لي، ويأخذ حبة حلوى يلوكها في فمه، ثم يواصل حديثه: وبينما أدفع الدراجة فوق التل ومن فوقها الأمشاط، أرى فتاة ريفية تتجاوزني فوق دراجتها. توقفت فوق التل وسط الغابة، تنظر إليّ من قريب وأنا أدفع دراجتي، ما جعلني أنكس بصري، فربتت عليّ بلطف، وقالت: لنذهب معًا لجمع التوت؟ فوضعت دراجتي في أحد الخنادق ومعها الأمشاط، ووضعت دراجتها فوق دراجتي. أخذتني من يدي، ثم دفعتني خلف أول حرش، وحررت ملابسي، وقبل أن أستفيق من دهشتني وجدتها فوقي. صرت أسير تلك الفلاحة، وأول تجاربها. تذكرت دراجتي، وأمشاطي، فهرولت ناحيتها، فوجدت دراجتها فوق دراجتي. في تلك الأيام كانت دراجات النساء بها شبكة فوق العجلة الخلفية، شبكة ملونة مثل

الشباك المحبوكة التي توضع على رأس الخيول وحول رقابها. تحسست الأمشاط، فوجدتها في مكانها، فتنفست الصعداء. عندما رأيت الفتاة الفلاحة تهرول ناحيتي، بعد أن رأتني عاجزًا عن فصل بدال عجلتي من شباك دراجتها. فقالت لي إنها علامة بألا نفترق، لكني خشيت -خذ حبة حلوى! إنها نوجا- ثم واصلنا طريقنا فوق الدراجتين نحو الغابة الصغيرة. مدت الفلاحة يدها إلى داخل سروالي من جديد. كنت أكثر شبابًا من اليوم، فاستلقيت فوقها أنا هذه المرة. خبأنا الدراجتين في الحرش، دراجتها فوق الأرض ودراجتي من فوقها، وواصلنا ممارسة الحب مثل هاتين الدراجتين. كانت تجربة جميلة. تذكر يا بني، الحياة إن طابت لكَ، فهي جميلة، جميلة جدًّا... يا إلهي... الآن اذهب لتنام، فسوف تنهض، يا بني، في الصباح الباكر. ثم أخذ الزجاجة، وصبها كلها في جوفه. سمعت صوت الماء وهو يسقط في معدته مثلما يتساقط ماء المطر من قناة جمع الماء إلى الخزان. وعندما مال على جانبه بعد أن شرب تأرجح الماء في بطنه بصوت مسموع ليستوي سطحه... لم أحب التجار المتجولين الذين يحملون معهم الطعام والسمن الصناعي وأدوات المطبخ. هؤلاء كانوا يحملون الطعام، ويأكلونه في غرفهم، حتى إن بعضهم كان يحمل معه سبرتاية، ويطهون رقائق البطاطس في غرفهم، يخبئون قشور البطاطس أسفل السرير، ويطلبون أيضًا أن ننظف لهم أحذيتهم مجانًا. وحين يرحلون يعطونني شارة دعائية على أنها بقشيش، وفي المقابل أحمل لهم صندوق الخمائر إلى

السيارة. كانوا يحملون معهم من وكلائهم تجار الجملة تلك الخمائر التي يبيعونها من وقت لآخر أثناء ترحالهم. كان بعضهم يحمل حقائب كثيرة وكأنهم يحملون كل بضائعهم التي سيبيعونها خلال أسبوع، بينما البعض الآخر لا يحمل شيئًا تقريبًا. أعجبني هؤلاء، لكن ما هي تجارة تاجر متجول يأتي بلا حقائب؟ دائمًا ما أدهشني هذا الأمر. ذات مرة عقد أحدهم صفقة أوراق تغليف، وأكياس ورقية. كان يحمل ذلك التاجر عينات منها، يدسها خلف منديل صغير في جيب معطفه. وآخر يحمل لعبة الـ»يويو وديابلو» في حقيبة يد صغيرة يحملها معه باستمرار، ويحتفظ في جيبه بقائمة الطلبيات. يجوب المدينة وهو يلعب باليويو والديابلو. دخل ذات مرة إلى متجر ألعاب، وهناك واصل اللعب، فترك تاجر الألعاب مندوب تجارة الخردوات والزبائن ينتظرون، وتوجه بيدين ممدودتين ناحية اليويو والديابلو وكأنه في حلم. كان موسم العرائس، فسأل التجار قبل أن يعرضوا تلك العرائس على زبائنهم: كم دستة من هذه البضاعة ستعطيني؟ فيعطيهم الوكيل عشر دستات، وفوقها دستة إضافية أثناء الاتفاق على السعر. في أوقات أخرى يعرضون كرات مطاطية موبرة، يلقيها المندوب في القطار، وفي الشارع، ثم في المتجر، فيهرول ناحيته بها التاجر متأثرًا، ينظر إلى تلك الكرة وهي تقفز ناحية السقف، ثم تعود إلى يده، وتعاود القفز إلى أعلى وإلى أسفل دون تتوقف، ثم يسأل: كم دستة منها تبيعني؟ لم أحب تجار المواسم أمثالهم. أيضًا لم يحبهم كبير السعاة. كانوا غلاظًا، إنهم تجار المياه

الساخنة. نعرفهم بمجرد أن يظهروا في الفندق. يحبون الطعام كثيرًا، ولا يدفعون ثمنه، ويهربون من النوافذ. حدث ذلك أكثر من مرة... من ألطف المندوبين الذي نزلوا عندنا كان «ملك المطاط» الذي يورد بضائع مطاطية هشة لمحلات الخردوات، مندوب شركة بريماروز. في كل مرة يأتينا يحمل أخبارًا جديدة. فكان زبائن الفندق يدعونه إلى طاولاتهم، ودائمًا إذا ما حدث مكروه لأحدهم، يكون هو مصدر سعادة لغيره. كان ذلك المندوب يوزع الواقيات الذكرية بمختلف الألوان والأشكال. أتعجب رغم أني كنت مجرد نادل صغير. لذلك كنت أشعر بالنفور من زبائننا الذين يظهرون في الشارع بكل وقار، بينما يهزرون حول الطاولة مثل هررة صغيرة، وأحيانًا كقردة؛ فاسقون سخيفون. في كل مرة يظهر فيها ملك المطاط هذا يدس لأحدهم هذا الواقي الذكري بريماروس أسفل شريحة الخبز، وعندما يديرها الرجل ينفجرون في الضحك. نفس الأمر يحدث معهم أيضًا بعد أقل من شهر. تعمدوا فعل هذه الأشياء. فمثلًا اعتاد السيد شيفنوستك، صاحب مصنع الأسنان الصناعية أن يضع بضعة أسنان لأحدهم في كأس البيرة، أو جزءًا من طاقم أسنان يضعه لرفيقه في فنجان القهوة. لكن رفيقه هذا يبدل الفناجين، فتسقط الأسنان في حلق السيد شيفنوستك فيحتنق. يضربه الطبيب البيطري ضربة شديدة على ظهره، فتتطاير الأسنان، وتسقط أسفل الطاولة. هنا يسحقها السيد شيفنوستك بقدميه ظنًّا منه أنها أسنان من مصنعه، بعدها يعرف أنها أسنانه التي صنعها على مقاسه، فيضحك أخصائي

الأسنان السيد شلوستر الذي يقوم بإصلاح الأسنان في الحال، وكان يجني كثيرًا من الأموال من وراء هذه التصرفات. كان ذلك موسمه هو الآخر حيث يبدأ صيد الأرانب وطيور التدرج. في المساء وبعد انتهاء الصيد يثمل الصيادون، وتتساقط أسنان كثير منهم، وتتكسر، فينشغل السيد شلوستر لأيام وليالٍ كي يصلحها قبل أن تعرف زوجاتهم بالأمر، أو يفتضح أمره أمام الأسرة، لكن ملك المطاط هذا كان يحمل معه أشياء أخرى. أحضر معه ذات مرة ما يُسمى سلوى الأرامل. لم أعرف يومًا حقيقة هذا الشيء لأنه خبأه في صندوق يشبه آلة النفخ. كان الجميع يفتحونه، وتتناقله الأيادي من حول الطاولة، فيصرخ من يفتحه، ثم سرعان ما يغلقه، ويعطيه لمن بعده، فلا أعرف ما هذه السلوى وأنا أحمل لهم كؤوس البيرة. ذات مرة أحضر ملك المطاط دمية مصنوعة من المطاط، فجلس الجميع في المطبخ في فصل الشتاء، وفي الصيف يجتمعون في الرواق، أو عند نافذة تحدها ستارة. كان ملك المطاط يوجه عبارات إلى تلك الدمية، فينفجرون جميعًا في الضحك، لكني لم أجد في ما يفعلونه ما يدعو للضحك على الإطلاق. يمسك كل من حول الطاولة تلك الدمية، وبمجرد أن تقع في يده يتظاهر بالجدية، ويحمر وجهه، ثم يناولها لمن يجلس بجواره، فيخطب فيهم ملك المطاط وكأنه في مدرسة: أيها السادة، هذه هي آخر صرعة، دمية جنسية تعاشرها في السرير، دمية من المطاط اسمها بريمافيرا. يمكن لأي منكم أي يفعل بها ما يشاء. تشبه المرأة الحقيقة، وفي حجم فتاة بالغة. مثيرة،

وضيقة، وساخنة، وجميلة، ومفعمة بالحماس. مئات الرجال يتطلعون إلى بريمافيرا المطاطية، تنفخونها بأفواهكم. تخلقونها بأنفاسكم، فتعيد إلى الرجال ثقتهم بأنفسهم، تمنحهم فحولة متجددة، وانتصابًا، ليس هذا فحسب، بل تشبعهم على نحو رائع. بريمافيرا، يا سادة، مصنوعة من مطاط مخصوص، وبين ساقيها مطاط من الدرجة الأولى، مطاط مخملي، مزودة بفتحة بكل المرتفعات والمنخفضات كما ينبغي أن تكون لامرأة. هزاز دقيق يعمل بالبطارية، يتحرك برقة مثيرة، فيموج فرج المرأة وكأنه بشري. كل رجل يبلغ نشوته كما يحلو له، ويصبح سيد الموقف. وكي لا تضطروا إلى تنظيف فرج هذه المرأة، يمكنكم استخدام العازل الطبي بريماروس. افعلوها رجاءً كي لا تصابوا بجروح. هنا ترون أنبوبًا من مرهم الجلسرين... في كل مرة ينفخ فيها أحد الحاضرين بكل عزمه، ثم يناولها لمن بعده، يسحب ملك المطاط السدادة، فتتقلص الدمية، فيعاود من يليه نفخها بهواء من رئتيه، ويصفق الآخرون، ويضحكون، يترقبون أن يأتي دورهم. كان المرح ينتشر في أرجاء المطبخ، ومسؤولة الخزينة تهتز في قلق، وتضع ساقًا على ساق. ينتابها القلق وكأنهم في كل مرة ينفخون فيها، وهكذا يدور السمر حتى منتصف الليل. بالطبع ظهر بين التجار الرُّحَّل من تاجر بسلعة مماثلة. لكنها كانت أجمل، وأكثر فائدة. إنه مندوب شركة صناعة ملابس في مدينة بَردوبيتسا. تعرف عليه مدير الفندق المشغول دائمًا عن طريق عقيد في الجيش كان يتردد على الفندق. أوصاه العقيد بهذا المندوب الذي

ينزل عندنا مرتين كل عام. رأيت هذا بنفسي، لكني لم أربط بين هذا وذاك. هذا المندوب في البداية أخذ مقاس سروال السيد المدير، وتركه يقف مرتديًا صدرية وقميصًا أبيض فقط، ووضع شرائط ورقية فوق صدره وحول خصره وجبينه، سجل فوقها المقاسات، وراح يقصها فوق المدير وكأنه سيصنع له بدلة من هذه الشرائط. وقتها لم يكن معه قماش، فأخذ يرقم قصاصات الورق، ثم وضعها ذلك المندوب في كيس بكل عناية، وأغلقه، وكتب فوقه تاريخ ميلاد مديرنا، واسمه بالطبع، ولقبه، وأخذ مقدم الثمن، ثم قال له ألا يشغل باله بالأمر، وكل ما عليه أن ينتظر وصول البدلة بالبريد، فلا حاجة لعمل أي اختبار مقاسات. لهذا السبب طلب من هذه الشركة بعينها أن تصنع له بدلة، فالمدير بالفعل لا وقت لديه. سمعت بعدها إجابة عن سؤال أردت أن أسأله، ولم أملك الشجاعة الكافية على توجيهه. ما هي بقية التفاصيل؟ تحدث عنها المندوب من نفسه. وضع مقدم الثمن في حقيبة صدر منتفخة، وراح يقول في هدوء: لعلمكم! إنها الثورة التي خطط لها مديري لتحدث في الجمهورية، وربما في كل أوربا، والعالم. الضباط والممثلون وكل من ليس لديه وقت كافٍ مثلك، يا سيدي المدير، أنا آخذ المقاسات، وأرسلها إلى الورشة، وهناك يصنعون من هذه الشرائط ما يشبه دمية حياكة، ومن وراء الدمية جوال مطاطي يتم نفخه على مهل إلى أن تمتلئ ثنايا كل هذه الشرائط. ويتم تقويتها على الفور بغراء سريع الجفاف. بعدها تعلق هذه الشرائط في سقف الغرفة، وتصير عالقة في

الهواء، منفوخة إلى الأبد، عليها لافتة مثل التي يعطونها للأطفال في عيادات الولادة كي لا تختلط ببعضها، أو مثل اللافتة التي يضعونها فوق إصبع الجثة في مشرحة مستشفى براج الكبير كي لا تختلط الجثث. وعندما يحين وقتها، يوضع اللباس فوق هذه الدمية الهوائية، البدلة حسبما طلب الزبون، ويعاد ضبطها، وتجربتها من جديد، لثلاث مرات، ثم تكوى بالبخار، ويضبط المقاس مرة أخرى، ويظل هكذا دون تجربة حية مع الزبون، بل مع نائبه المنفوخ. يستمر الأمر على هذا النحو إلى أن يعتدل مقاس الجاكت بكل دقة، بعدها يمكن إرسال البدلة إلى الزبون بالبريد بكل اطمئنان. لا يتغير مقاسها طالما بقي دون زيادة في وزنه أو نقصان. كل ما في هذه الأماكن بالدمية يكبر أو يصغر، حسب الحاجة، يعدل أو تُحاك بدلة جديدة أو زي عسكري... لدينا مستودع مليء بدمى معلقة في السقف، بضع مئات من الدمى الملونة، يمكن للزبون حتى وفاته أن يأتي كلما أراد، ويعثر علي دميته. فكل ما فيه مرتب إلى أقسام؛ قسم الجنرالات، والعقداء، والمقدمين، والرواد، والنقباء، والمديرين، وأمثالهم ممن يرتدون البدلات. يكفي أن يأتي أحدهم، نشد الحبل، فتسقط الدمية مثل بالونة أطفال، في إمكانه رؤية شكله في آخر مرة طلب فيها حياكة أو إصلاح بدلة أو معطف... أحزنني كل ما سمعته، إلى درجة أني قررت لو أني دخلت امتحان السعاة فسوف أطلب منهم أن يصنعوا حلة جديدة في هذه الشركة كي يطير هيكل جسدي عالقًا في سقف شركة لا مثيل لها في العالم بأسره. فلا أحد يقدر

على أن يفعل ما يفعله هذا الرجل... كثيرًا ما حلمت بأن ما يعلق في السقف هو أنا وليس هيكلي، في سقف شركة باردوبيتسا لحياكة الملابس. أحيانًا تخيلت نفسي أطير عند سقف الفندق الذي أعمل به، فندق براج الذهبية. حملت ذات يوم زجاجات المياه لمندوب شركة بيركل عند منتصف الليل. هذا الرجل الذي باع لنا ميزانًا كموازين الصيادلة، وتلك الماكينة التي تقطع اللحم إلى رقائق صغيرة. دخلت عليه دون أن أطرق الباب، فرأيته جالسًا فوق السجادة، كما هي عادته. وما إن فرغ من طعامه توجه مباشرة إلى غرفته. هناك خلع ملابسه وارتدى بيجامة، ثم استلقى على جانبه. في البداية ظننت أنه يستطلع حظه من الأوراق، لكنه كان يبتسم بسعادة، غمرته سعادة طفل صغير. وراح يرص أوراقًا بقيمة مئة كرون، ورقة بجوار الأخرى حتى غطى بها نصف السجادة، لم يكتفِ بهذا، بل ظل يسحب من حقيبة يده مزيدًا من حزم الأوراق النقدية، ويرصّها في صفوف متجاورة. بدت وكأنها خطوط متقاطعة ملونة فوق السجادة. كل ورقة نقدية وكأنها مستطيل ملون. وبعدما فرغ من رص النقود، وقد كونت صفوفًا منتظمة بعناية كأقراص العسل، حملق بسعادة غامرة في تلك النقود، وصفق بيديه المنتفختين، ثم مسح بهما وجهه الذي غمرته سعادة الأطفال. وظل يضع وجهه في راحتيه، وهو يتأمل الأوراق المالية. لم يتوقف، بل راح يقبل النقود فوق الأرض. وكلما وجد مئة كرون مقلوبة على رأسها أو ظهرها أدارها كي تكون كلها على نفس الوجه والاتجاه. وقفت خائفًا من أن

أسعل أو أنصرف. كانت الأموال ثروة، ألواحًا من الرخام متشابهة. الأهم هي تلك السعادة الدفينة التي فتحت أمامي آفاقًا جديدة. فلطالما أحببت الأموال، لكني لم أكتشف هذا الأمر من قبل. رأيت أمامي صورتي وأنا أرص كل الأموال التي أجنيها، ليست من فئة المئة كرون بل عشرين حتى الآن فقط. سأقوم أنا أيضًا برص هذه العشرينات مثله. شعرت بنشوة غامرة وأنا أنظر إلى هذا الرجل السمين الذي يشبه الأطفال وهو يرتدي بيجامة مخططة. وقتها عرفت ورأيت أن هذا هو ما سأفعله أيضًا في المستقبل. ذات يوم سأغلق عليّ الحجرة مثله، أو أنسى أن أوصدها، وسأقوم برص صورة لسلطتي فوق أرض الغرفة، دليل قدرتي، صور ستجعلني أشعر بسعادة حقيقية... أنا أيضًا ذات مرة فاجأت الشاعر توندا ابن السيد يولدو. نزل هذا الشاعر عندنا. كان أيضًا يجيد الرسم، ودائمًا ما أخذ منه المدير لوحة مقابل فاتورة الحساب. أصدر ذلك الشاعر في مدينتنا الصغيرة مجموعته الشعرية بعنوان «سيرة المسيح». كان هذا عنوانها. طبعها على نفقته الخاصة، وحمل كل النسخ إلى غرفته. هناك وضع فوق أرضيتها نسخة بجوار الأخرى، ولم ينفك يخلع معطفه ويلبسه. أثار المسيح أعصابه. رص نسخ الكتيب الأبيض في كل أرجاء الغرفة، لم يكتفِ بهذا، بل واصل رصها في الدهليز حتى بلغ السلم. ومن جديد راح يخلع معطفه، ثم يلبسه أو يطرحه فوق كتفه كلما سال عرقه. وكلما شعر بالبرد يحرر أكمامه، وما إن يشعر بالدفء يخلعه سريعًا. دائمًا ما تدلت من أذنيه سدادة

قطنية. اعتاد خلعها هي الأخرى أو دسها في أذنه كلما أراد أن يستمع إلى العالم من حوله، أو يصم بها أذنيه. دائمًا ما دعا إلى العودة إلى حياة البيوت الريفية، لم يرسم شيئًا آخر غير بيوت ريفية فوق سفوح جبال كِركونوش. لم ينفك يتحدث عن أن دور الشاعر مثل دور الفنان، البحث عن إنسان جديد. لكن نزلاء فندقنا لم يحبوه، بل أحبوه، لكن دائمًا ما أزعجوه. لذلك كان ذلك الشاعر يخلع ملابسه في المطعم ويرتديها، وكذلك حذاءه، حسب مزاجه الذي يتبدل كل خمس دقائق وهو يبحث عن الإنسان الجديد. كذلك كان يفعل مع حذائه المطاطي. كلما خلعه صب فيه رواد المطعم بيرة أو قهوة، وراحوا ينظرون بعد أن أبعدوا شوكة الطعام عن أفواههم، وجحظت أعينهم أثناء الطعام وهم يتابعون الشاعر وهو يرتدي حذاءه المطاطي، والقهوة أو البيرة تسيل منه، وهو يهدر، ويصرخ في أرجاء المطعم: «أحفاد الشيطان، أغبياء، مجرمون... لعنة الله عليكم!»، ثم تدمع عيناه، ليس غضبًا، بل سعادة. فقد اعتبر صب البيرة في حذائه إشارة إلى أن المدينة تهتم لأمره، صحيح أنها لا تحمل له احترامًا، لكنها تعتبره شابًّا مثل أي شاب فيها... الأسوأ عندما ثبتوا حذاءه بمسمار، فلما وضع الشاعر فيه قدميه ليعود إلى طاولته لم يقدر، وكاد يسقط فوق الأرض. سقط عدة مرات مستندًا إلى يديه. كان الحذاء مثبتًا بالأرض بقوة. عاود سبهم: أحفاد الشيطان، أغبياء، مجرمون. لكن سرعان ما يصفح عنهم، ويريهم لوحة صغيرة أو مجموعة شعرية يبيعها على الفور ليجد ما يسد به حاجته.... لم يكن في

الأصل رجلًا شريرًا، بل على العكس. حلق فوق المدينة، كثيرًا ما رأيته في الحلم مثل ملاك فوق متجر خردوات اسمه «الملاك الأبيض». حلق الشاعر فوق المدينة مثل هذا الملاك، وهز جناحيه. كان له جناحان، رأيتهما بأمِّ عيني، وخفت أن أسأل عنهما السيد القس. رأيتهما وهو يخلع ملابسه ويرتديها، ووجهه الجميل منكب فوق حزمة أوراق. أحب كتابة القصائد فوق طاولات مطعمنا. رأيت سحنته الملائكية. رأيت هالة فوق رأسه كلما استدار، دائرة عادية تمامًا، لهب صغير بنفسجي اللون يطوق رأسه مثل لهب غلاية بريموس المضيئة، وكأن في رأسه كيروسين، ومن فوقها دائرة تفح، وتضيء مصابيح متجر الخردوات. أيضًا كلما ظهر يمشي في الميدان. لم يحمل أحد مظلة المطر كما حملها هذا الرجل، لم يحمل أحد ملاءته فوق كتفه بكل تلك اللامبالاة كما حملها هو. لم يعتمر أحد قبعة رقيقة بنفس طريقة ذلك الفنان. رغم تدلي الصمامات القطنية البيضاء من أذنيه، رغم أنه يخلعها ثم يعاود دسها في أذنيه قبل أن يعبر الميدان، عشر مرات يخلع قبعته، ويلبسها، وكأنه يلقي التحية على أحدهم... رغم أنه لم يُحَيِّ أحدًا، بل يومئ للسيدات البائعات في السوق. إنها طريقته وهو يبحث عن الإنسان الجديد. دائمًا كلما ساء الطقس، أو أمطرت السماء يطلب حساء كرشة في وعاء، ومعه قطعة خبز ويحملها إلى تلك السيدات اللواتي خدرهن البرد. يحملها ويعبر بها الميدان. لم يكن مجرد حمل حساء في وعاء. رأيته بأم عيني، وكأنه يحمل قلبه ويعطيه لهنّ، قلب بشري في

حساء الكرشة، أو قلبه هو يحمله إليهن مقطعًا ومطهوًّا في الفلفل والبصل، وكأنه كاهن يحمل وعاء القربان المقدس ليلة العشاء الأخير. هكذا حمل ذلك الشاعر أواني الحساء وهو يذرف الدمع حزنًا على نفسه. كان طيب القلب، يأكل ويشرب عندنا بالدين، ورغم ذلك يشتري للعجائز حساءً لا ليستدفئن به، بل ليعرفن أنه هو، توندا يودل، يفكر فيهن، يعيش من أجلهن، يعتبرهن جزءًا لا يتجزأ من نفسه، جزءًا من رؤيته لهذا لعالم. تصرفه هذا بمثابة حب آني وفوري للآخر في حياته، وليس بعد مماته... يومها، وبعد أن رص كتابه الجديد فوق أرضية الغرفة، وفي الدهليز، وجاءت عاملة النظافة من المرحاض تحمل دلوًا، فداست كتابه الأبيض عن المسيح. لم يصرخ فيها توندا ليقول: أحفاد الشيطان، أغبياء، مجرمون، بل ترك آثار قدميها التي تشبه قدمي رجل كما هي، وذيلها بتوقيعه، ثم باعها مقابل كرون وعشرين سنتًا بدلًا من عشرة كرونات. لم يطبع من الكتيب أكثر من مئتي نسخة على نفقته الخاصة. بلغه أن المطبعة الكاثوليكية في براج ستطبع عشرة آلاف نسخة من المجموعة الشعرية، فظل لأيام يحصي الأرقام، يخلع معطفه ويلبسه، ثلاث مرات يسقط فوق الأرض من جراء حذائه المثبت بالأرض، ويقول: لقد نسيت! كان أيضًا كل خمس دقائق يدس حبات دواء في جوفه مثلما الطحان، فيمتلئ بها جوفه ويفيض وكأنه جوال دقيق تفسخ. ابيضّ صدره وتلونت ركبتاه تحت ملابسه السوداء باللون الأبيض. كان يحتسي دواءً اسمه نيوراسينين مباشرة من الزجاجة، فظهرت دائرة صفراء

حول شفتيه وكأنه يمضغ تبغًا... وهكذا ظل يشرب الدواء، ويسكبه في جوفه، فيشعر كل خمس دقائق بسخونة في جسده جعلته يتعرق، ثم سرعان ما يشعر بالبرد حتى يرتعد جسده، وتهتز منه طاولته. قاس الرجل عدد الأمتار التي غطاها كتيب حياة السيد المسيح في الغرفة والدهليز، فاعتبر توندا أن عشرة آلاف نسخة لو صدرت ستكون رقمًا لو فرشها فوق الأرض لغطت الطريق من مدينة تشاسلاف إلى مدينة هرشمان منيستاتس، وهي مسافة تغطي كل الميادين، وشوارع مدينتنا التاريخية. لو وضعت كتب المجموعة الشعرية واحد أمام الآخر لصنعت خطًّا متقطعًا في وسط الطريق من تشاسلاف إلى مدينة بِهلافا. خبلني بتلك الكتب حتى شعرت أني أمشي فوق أرصفة مدينتنا الصغيرة تغطيها تلك الكتب. عرفت أنه بالتأكيد شعور طيب أن ترى اسمكَ مكتوبًا فوق كل الأرصفة، وعلى عشرة آلاف نسخة من كتيب حياة المسيح التي يدين له توندا بالفضل. ثم جاءت السيدة كادافا، صاحبة المطبعة، وأخذت من توندا نسخ كتاب حياة المسيح، حملها خادمان في سلة الملابس المتسخة، وقالت السيدة كادافا، بل صرخت: المسيح عندي في المطبعة! سأعطيكَ ثمانية كرونات مقابل كل مسيح... فخلع توندا معطفه، وشرب من زجاجة الـ نيوراسينين، ثم هاج وماج: أحفاد الشيطان، أغبياء، مجرمون... سعلت، لكن السيد فالدين ظل مستلقيًا فوق أرضية الغرفة بجوار السجادة التي صارت وكأنها معرض عينات للمئة كرون، ممتلئة بأوراق بنكنوت خضراء... نظر إلى السيد فالدين من وراء هذا

الحقل وهو ممدد، ويده السمينة تحت رأسه وكأنها وسادة... انصرفت، وأغلقت الباب من خلفي، ثم طرقت عليه. أجاب السيد فالدين متسائلًا: من الطارق؟ أجبته: أنا، الساعي الصغير، أحمل لكَ زجاجات الماء... ادخل! قالها فدخلت. ظل السيد فالدين ممددًا على جانبه، يضع رأسه في راحته، شعره مجعد مدهون بمرطب جعله لامعًا براقًا مثل يده الأخرى. قال وقد ارتسمت الابتسامة على وجهه: أعطِني واحدة، وصب لي كأسًا! فأخرجت من جيبي فتاحة النبيذ، فأز السائل في هدوء. شرب السيد فالدن ثم أشار إلى الأوراق النقدية كلما التقط أنفاسه، وقال بصوت وديع هادئ مثل صوت المياه: أعرف أنكَ كنت هنا، وتركتكَ تمتع ناظريكَ... تذكر أن الأموال تفتح لكَ أبواب العالم بأسره. هكذا ما علمني أستاذي العجوز كوريف. ما تراه هنا فوق هذه السجادة جنيته خلال أسبوع. بعت عشرة موازين... وهذه عمولتي. هل رأيت أجمل من هذا؟ عندما أعود إلى البيت سأفرش كل هذه الأموال في أرجاء الشقة، أنا وزوجتي، سأرصها علي كل الطاولات وفوق الأرض. سأشتري لحمًا مدخنًا، وأقطعه إلى شرائح صغيرة، وأظل آكله طوال الليل. لن أترك منه شيئًا لليوم التالي، ولو حدث سأستيقظ في أثناء الليل وألتهمه. أنا أعشق اللانشون، في مقدوري أن آكل لفافة بأكملها. يومًا ما سأحكي لكَ عن هذا الأمر، في المرة القادمة. ثم قام، ولاطفني بيده، وضع يده أسفل ذقني، ونظر في عيني، وقال: أحوالكَ ستتغير، تذكر هذا، أراه في عينيك. تحتاج فقط إلى معرفة الحيلة. أجيبه: لكن ما هي؟ قال: رأيتكَ في

محطة القطارات تبيع النقانق. أنا واحد ممن أعطاكَ ورقة بقيمة عشرين كرونًا، وتلكأت طويلًا في إعادة الباقي إليّ حتى تحرك القطار، وانطلق. بعدها فتح السيد فالدين النافذة، وأخذ حفنة نقود من جيب سرواله، ألقاها في الميدان الذي خلا من المارة. ثم رفع إصبعه كي يستمع إلى صوت العملات المعدنية وهي تتدحرج وتجلجل فوق الأرض... ثم أضاف قائلًا: هكذا عليكَ أن تتعلم أن ترمي فكة النقود من النافذة ليأتيكَ المجمد منها من الباب. أتفهمني؟ اشتدت الرياح، وجاءت هبة منها أطاحت بأوراق البنكنوت كلها. تراقصت، ودبت فيها الحياة، وتحركت من أماكنها مثل أوراق الخريف إلى ركن الغرفة. نظرت إلى السيد فالدين مثلما أنظر إلى كل تاجر طواف، ودائمًا ما أفكر في ملابسه. أي قميص يرتدي؟ دائمًا ما تخيلت أنهم جميعًا يرتدون ملابس داخلية متسخة، صفراء بين فخديه، وأن ياقات قمصانهم قذرة، وجواربهم مهترئة. فلو أنهم نزلوا في نُزُل غير نُزُلنا لألقوا بتلك الجوارب والملابس الداخلية والأقمصة من النافذة، كما كانوا يفعلون في مصحات كالوفي فاري حيث أقمت عند جدتي لثلاثة أعوام أثناء تربيتها لي. كان لجدتي غرفة صغيرة في الطواحين القديمة، لا تدخلها الشمس، ولا سبيل لأن تدخلها لأنها بَحَريّة، وبجوار رحى الطاحونة مباشرة. كانت تلك الرّحى ضخمة، تطال الماء من ارتفاع الطابق الأول، وتصل الطابق الثالث. أخذتني جدتي لتقوم على تربيتي. كانت أمي قد ولدتني من دون زواج، فصارت جدتي بمثابة أمي. أقامت جدتي بجوار مصحات كارلوفي

فاري مباشرة. كل ما حققته في حياتها هي تلك الغرفة الصغيرة بالإيجار في الطاحونة. دائمًا ما كانت تصلي وتحمد الله على أن استجاب لدعواتها، ومنحها تلك الغرفة الصغيرة بجوار المصحات. كلما جاء يوم الخميس والجمعة تتحفز جدتي منذ العاشرة صباحًا مع قدوم التجار الرحل وكل من لا يملك محل إقامة دائم للاستحمام. ترقبت أنا الآخر حلول يومي الخميس والجمعة بسعادة، وكذلك بقية الأيام رغم أن الملابس المتسخة لم تكن تتطاير فيها كثيرًا من نوافذ الحمامات. في كل لحظة أنظر من نافذة الحجرة، فأرى أحد هؤلاء الجائلين يلقي بملابسه الداخلية المتسخة التي تتوقف للحظات في الهواء لتكشف عن نفسها، ثم تسقط. كان بعضها يسقط في الماء، فتميل عليها جدتي، وتسحبها بخطاف. أمسك بجدتي من قدميها كي لا تسقط من ذلك الارتفاع. تنفرج أذرع الأقمصة فجأة وكأنها لرجل مرور عند أحد التقاطعات، أو كأنهما يدا المسيح. قمصان مصلوبة في الهواء للحظات، بعدها تسقط فوق رأسها لترتطم برحى الطاحونة وهي تدور. مخاطرة مستمرة، إما أن تترك جدتي الملابس فوق الرحى فتحمل لها قميصًا أو قطعة ملابس داخلية حتى نافذة جدتي فتمد يدها لتأخذ القميص، أو تسحب ذلك القميص بخطاف من فوق عمود الرحى حيث انزلق ويعلق به أثناء الدوران. حتى في هذه الحالة كانت جدتي قادرة على الوصول إليه وسحبه من هناك فوق الخطاف عبر نافذة المطبخ، ثم سرعان ما تلقي به في حوض الغسيل. في المساء تفرك القذارة من على السروال

الداخلي، وكذلك الأقمصة والجوارب، ثم تلقي بماء الغسيل إلى المياه التي تسيل أسفل رحى الطاحونة... في المساء تحين لحظة الروعة، عندما تتطاير السراويل الداخلية البيضاء فجأة من نافذة حمام مصحات كارلوفي فاري. تتطاير الأقمصة البيضاء على خلفية ظلام منتشر في تجويف الطاحونة. للحظات أرى من نافذتنا قميصًا أبيض يبرق، أو سروالًا داخليًّا، وجدتي قادرة على الإمساك بها أثناء الطيران بذلك الخطاف قبل أن تسقط فوق عجلات الطاحونة المبللة اللامعة. أحيانًا ما حدث أثناء النهار أو الليل أن تهب رياح من عند المياه في البئر، وتتطاير زخات المياه في الهواء فيلمع منه وجه جدتي، أحيانًا تجففه بذلك القميص. رغم ذلك كانت جدتي تترقب بسعادة اليوم التالي، وخاصة أيام الخميس والجمعة، حينما يبدل العابرون أقمصتهم وسراويلهم الداخلية. يشترون بدلًا منها جوارب وأقمصة جديدة من أموال جنوها، ويلقون بالقديمة من نافذة مصحة كارلوفي فاري، حيث تترقبها جدتي بخطاف في يدها، ثم تغسلها، وتصلحها، وتضعها في خزانة، بعدها تدور على الأبنية لتبيعها لعمال البناء ومساعديهم. عاشت حياة بسيطة، رغم ذلك استطاعت أن تشتري لي خبزًا، وحليبًا تبيض به قهوتها. كانت تلك أجمل مراحل حياتي. ما زلت حتى اليوم أرى جدتي وهي تقف ليلًا بجوار نافذة مفتوحة. لم يكن الأمر سهلًا أثناء الخريف والشتاء. أرى الأقمصة وهي تتوقف فجأة في النافذة تحملها هبات الرياح من أسفل، بأكمام منفرجة، فتتلقفها جدتي بحركة سريعة وتجذبها ناحيتها

قبل أن تسقط مثل طائر أبيض جريح وسط مياه عكرة منبعثة، لتظهر بعدها قتيلة فوق رحى الطاحونة القاتلة من دون جسد بشري، لتدور في طوق مبلل. وعندما تختفي في نوافذ الطابق الثالث حيث غرفة الطحين، ليس بها بشر مثلنا نتصارع معهم على تلك الأقمصة والسروايل الداخلية، ثم ننتظر أن تعود فوق العجلات وتسقط، ولو انزلقت تسقط في الماء العكر المتدفق، عندها ستُسحب الملابس عبر قنوات الى أسفل جسور سوداء، وتخرج من الطاحونة...

هل اكتفيتم؟ هذا كل ما لديَّ اليوم.

فندق تيخوتا

اسمعوا وعُوا ما سأقصه الآن عليكم.

اشتريت حقيبة سفر ضخمة هائلة، وطويت حُلتي الجديدة في تلك الحقيبة. بذلتي التي حاكها لي ذلك الحائك من مدينة باردوبيتسا على مقاس دميتي. ذهبت بنفسي لاستلام البذلة، فوجدت أن مندوب الشركة لم يكن يكذب. أخذ مقاس صدري، ورص فوقي نفس الأشرطة الورقية، وكتب لي كل شيء وهو يأخذ المقاسات، ثم وضعها في مظروف، وأخذ مقدم الثمن. ذهبت بعدها لاستلام البدلة. جاءت على مقاسي بكل دقة، لكني أحرص عليها كحرصي على رؤية دميتي المنفوخة، على جذعي. كان المدير صغير البنية مثلي. وكأنه فهم أني أريد أن أبدو أطول مما أنا الآن، وأظل أطول، وأن أكثر ما يهمني هو أن أبقى عند سقف مخزن الشركة، فأخذني إلى هناك. أمر مذهل. علت بجوار السقف جذوع الجنرالات وقادة الجيوش، وجذوع كبار الممثلين، حتى هانز أبيرز حاك بدلته هنا، وعلق جذعه بمحاذاة السقف.

هبت نسمة هواء من نافذة مفتوحة، فتحركت الجذوع مثل السحب، مثل سحب بيضاء تتحرك في السماء كلما هبت رياح الخريف. يتدلى من كل جذع خيط رفيع، وفي طرفه ورقة تحمل اسم صاحبها وعنوانه. تراقصت الأوراق بسعادة وسط الهواء وكأنها سمكات في شبكة صيد، ثم أشار المدير فوجدت عنواني. سحبت جذعي، فوجدتني بالفعل صغيرًا. كدت أنفجر من البكاء وأنا أرى جذع أحد اللواءات بجواري، وجذع صاحب الفندق السيد بيرانِك، فضحكت سعيدًا من المجتمع الذي أدخلت نفسي فيه. سحب المدير خيط أحد الجذوع، وقال إنه يحيك عليه بدلات وزير التعليم، وكذلك وزير الدفاع القومي، كل هذا منحني قوة جعلتني أدفع مقابل البذلة وأزيد عليه مئتي كرون كبقشيش متواضع من نادل متواضع، يترك فندق براج الذهبية، ويتوجه إلى فندق تيخوتا في بلدة سترانتشيتسا. دبر لي عملًا هناك المندوب التجاري لثالث أكبر شركة في العالم، شركة فان بيركل. فودعت أصدقائي، وذهبت إلى مدينة براج، ثم نزلت في سترانتشيتسا ومعي تلك الحقيبة. كنا قبل الظهيرة، والأمطار تهطل. من المؤكد أنها كانت تمطر طوال الليل، أو منذ عدة أيام. كثير من الرمل والطين على الطريق، وفاض جدول الماء على نبات القراص، والسحلب والأرقطيون. جدول فاض ماؤه بنيًّا مثل قهوة بالحليب. صعدت الطريق عبر ذلك الوحل أتبع سهمًا عليه كلمة «فندق تيخوتا». مررت بعدة فيلات تكسرت أشجارها. وجدت نفسي أضحك؛ رأيتهم في إحدى الحدائق يجرون شجرة متكسرة عامرة بحبات

مشمش ناضجة. صاحب الحديقة الأصلع يجرها بحبل من قمتها المتكسرة، وامرأتان تساعدانه على الجانبين. هبت فجأة رياح قوية فانقطع الحبل، ولم تقوَ السيدتان على الإمساك بقمة الشجرة التي تفسخت مرة أخرى، وتداعت على الرجل، فوقع في شرك من الأغصان، وتساقط الدم من رأسه بعد أن طعنته أشواكها، وحاصرته أغصانها فجعلته يسقط على الأرض عاجزًا عن الحركة، مصلوبًا بأغصان قوية، بينما أقف عند السور. عندما رأت السيدتان ذلك الرجل انفجرتا في الضحك، وعلت ضحكاتهما، بينما عينا الرجل زائغتان، ويصرخ: صبرًا أيتها الساقطتان، الخنزيرتان! سأخلص نفسي، وسأدقكما في الأرض مثل مسمار. ربما بِنتاه أو زوجته وابنته. خلعت قبعتي، وقلت: مرحبًا أيها المواطن! أين الطريق إلى فندق تيخوتا؟ طردني الرجل، وراح يخلص نفسه، لكنه عجز عن النهوض. كان مشهدًا جميلًا. الرجل عالق، مطمور وسط حبات المشمش الناضجة، والمرأتان تضحكان. رفعتا الأغصان كي ينهض الرجل، فقدر على أن يجثو ثم نهض واقفًا. أول ما فعله هو أن وضع القبعة على رأسه الأصلع، ففضلت مواصلة السير، وصعود المدق. لاحظت أن المدق مكسوٌّ بالإسفلت، وعلى جانبيه حاجز من حجر أصفر. نفضت الطمي والطين الأصفر عن حذائي، ثم واصلت صعود التل وأنا أنزلق، سقطت مرة على ركبتي وأنا أخترق السحب. فجأة ازرقت السماء مثل هندباء تساقط بطول الطريق، ثم رأيت الفندق فوق التل. فندق جميل أسطوري، يشبه بناءً صينيًّا، فيلا لأحد الأثرياء

شديدي الثراء في مدينة تيرول، أو الريفيرا. فندق أبيض في أحمر، وكأنه أمواج تعلوها أسطح من القرميد. نوافذه في طوابقه الثلاثة خضراء، مغطاة بستائر معدنية. كل طابق يصغر عن الطابق الذي تحته، وبدا الأخير وكأنه عريش رائع فوق قمة هذا المبنى، وفوق العريش برج صغير من نوافذ خضراء وكأنه مرصد، أو محطة أرصاد في داخلها معدات، وفي خارجها دوارات رياح، يعلوها ديك أحمر يدور. في كل طابق شرفة تجاور كل نافذة، وباب مفتوح على الشرفة بستائر معدنية مثل النوافذ. مشيت لا أرى أثرًا لأحد على الطريق، ولا في النوافذ، ولا الشرفات. صمت يقطعه صوت رياح فواحة تستحق الأكل مثل حلوى مثلجة، مثل ثلج خفي مخفوق يمكن تناوله بملعقة. شعرت بأني لو تناولت رغيف خبز، أو شطيرة لأكلت بها الهواء وكأنه حليب. مررت ببوابة الفندق، معابر ضيقة تكسوها رمال بللها ماء المطر، وأكوام حشائش كثيفة متراكمة. مشيت وسط أشجار الصنوبر، أرى من عندها إطلالة على مروج فسيحة. حشائش هذبت مؤخرًا، وتراكمت بكثافة. مدخل الفندق مقوس على شكل قنطرة منتفخة تؤدي مباشرة إلى باب زجاجي مكسو بستائر معدنية صفراء على خلفية بيضاء هدفها الزينة. يحد مدخله سور أبيض، من تحته حديقة صخرية. ترددت خوفًا من أنني أخطأت العنوان، ومن أنهم لن يستقبلوني لو كنت في الفندق الصحيح، ومن أن السيد فالدين لم يتدبر الأمر. تشككت في أنني -النادل الصغير- الشخص المناسب الذي يبحث عنه مدير الفندق السيد تيخوت.

فجأة تملكني الخوف. لا أحد في المكان. لم أسمع صوتًا صادرًا من أي مكان. استدرت، وأسرعت عائدًا عبر الحديقة. لكني سمعت صوت صفير حاد، صفير لحوح جعلني أتوقف. تقطع صوت الصفارة ثلاث مرات وكأنها تنادي: أنت! أنت! أنتَ! ثم اتصل الصفير بلا انقطاع، ما جعلني ألتفت. قصر صوت الصفارة وكأنها حبل التف حول جسدي، يجرني إلى الخلف ناحية الباب الزجاجي الذي دخلت منه. فجأة باغتني رجل سمين كاد يخترق جسدي، يجلس فوق مقعد متحرك، يدير عجلاته بكفيه، ويضع حول رقبته الغليظة صفارة. قبض الرجل بقوة على عجلتي المقعد فتوقف بحدة انكفأ معها جسد الرجل السمين إلى الأمام وكاد يسقط. سقطت باروكة سوداء من على رأسه الأصلع. جزلة شعر أعادها الرجل السمين إلى رأسه. قدمت نفسي للسيد تيخوتا، فبادلني التعارف. أخبرته بتوصية السيد فالدين، ذلك المندوب، الرجل الشهير في شركة فان بيركل، فقال السيد تيخوت إنه ينتظر وصولي منذ الصباح، لكن لم يتمنَّ لي أن أحضر في هذا الجو الماطر، وطلب مني أن أذهب لأستريح، ثم أعود بعدها لمقابلته بالبذلة، وسيخبرني بما سأفعله. لم أنظر، ولم أنتوِ أن أنظر، بل توجهت عيني من تلقاء نفسها إلى جسده الضخم على كرسيه المتحرك. كل ما في جسده سمين مثل دمية الدعاية لإطارات سيارات ميشلان، لكن السيد تيخوتا الذي امتلك هذا الجسد، دبت فيه سعادة بالغة. تحرك هنا وهناك في ردهة الفندق المزينة بقرون الوعل، وكأنه يهرول في أحد المروج. راح يطفر

مرحًا بعربته التي أجاد التحكم فيها على نحو أفضل مما قد يفعله بقدميه. صفر السيد تيخوتا بصفارته، لكن على نحو مختلف، وكأنه بصفارته مخزون من النغمات، فنزلت مسؤولة الغرف فوق الدرج تهرول، ترتدي مئزرًا أبيض على ملابس سوداء. فقال لها السيد تيخوتا: يا واندا! هذا هو النادل الثاني عندنا، أرشديه إلى حجرته! استدارت واندا فبانت ضفتا مؤخرتها الرائعة، تموج كل واحدة منهما مع كل حركة من ساقيها. شعرها مصفف على شكل جديلة سوداء. رأيت نفسي أشد ضآلة وأنا أنظر إلى تسريحة شعرها، رغم ذلك عزمت على أن تصير هذه العاملة يومًا ملكًا لي. سأغطي ثديها بالورود، وكذلك مؤخرتها. منحني تذكر الأموال قوة دائمًا ما أفتقدها كلما رأيت شيئًا جميلًا، أو امرأة جميلة على وجه الخصوص. لكن تلك النادلة لم ترافقني إلى الطابق العلوي. صعدنا إلى مستوى مرتفع، وبعدها نزلنا فوق سلم يقود إلى فناء. رأيت مطبخًا وطاهيَيْن بقبعتين بيضاوين. سمعت أصوات السكاكين، وضحكاتهما السعيدة. اقترب من النافذة وجهان يلمعان من الدهن، وعينان كبيرتان. ثم علت ضحكات تتباعد بينما أنا أهرول بحقيبة أرفعها إلى أعلى قدر استطاعتي كي أعوض ضآلة جسدي بعد أن خانني كعبا حذائي العاليان. كل ما تبقى لي هو أن أمد رأسي عاليًا كي يطول رقبتي. تجاوزنا الفناء إلى أن بلغنا مبنى صغيرًا، فأصبت بالإحباط. أقمت في فندق براج الذهبية مثل أي نزيل، بينما نزلت في هذا المكان بغرفة صغيرة تليق بخادم. أشارت واندا إلى خزانة الملابس، فتحتها، وكذلك

فعلت مع صنبور المياه، فسالت المياه في حوض الاغتسال. أزاحت غطاء السرير، وقالت إن غطاءه نظيف طازج، ثم نظرت إليّ من أعلى، انصرفت عبر الفناء. رأيتها من النافذة. كانت كل خطواتها مراقبة، مرصودة. لم تقدر مسؤولة الغرف هذه حتى على أن تهرش كما يهرش الناس، أن تمشي كما تشاء، أن تنظف أنفها... مشت وكأنها في مسرحية لا تنتهي، في متجر من زجاج. هناك عندنا، كنت كلما ذهبت لشراء الزهور أرى أثناء عودتي فتيات يصلحن نوافذ العرض في متجر كاتس، يثبتن الأقمشة بدبابيس صغيرة، رأيتهن وهن يحبين فوق أربع وراء بعضهن، تحمل واحدة منهن مطرقة صغيرة، وتدق بها نسيجًا من صوف الأغنام والأقطان المزركشة. مدت يدها وأخذت مسمارًا من فم فتاة خلفها عندما فرغت منها المسامير، ثم ثبتته، وهكذا تفعل كل واحدة، تأخذ من فم الفتاة التي تليها مسمارًا لتدقه. امتلأت أفواه الفتيات يومها بالمسامير. يبدو أن العمل في واجهة العرض على هذا النحو أعجبهن، بينما أقف أنا أحمل في يدي سلة مليئة بزهور الجلاديوس، وعلى الأرض سلة أخرى بها أقحوان المروج. نظرت إلى فتيات واجهة العرض وهن يثبتن الأقمشة حبوًا فوق أرجلهن وأيديهن. حدث هذا قبيل الظهيرة، وقت تزاحم الناس، وعلى ما يبدو أن تلك الفتيات نسين أنهن في واجهات العرض، في كل لحظة يفركن مؤخراتهن، وأماكن أخرى، ثم يواصلن الحبو نحو زجاج الواجهة، متسلحات بالمطارق، تنتعل كل منهن خفًّا، يدمعن من الضحك، فتطير المسامير من فم إحداهن. تهزق

الفتيات وتنبح واحدة في الأخرى بمزاج رائق معتدل مثل الكلاب. تتقلص بلوزاتهن القصيرة على أجسادهن، وتظهر صدورهن من خلفها، تتأرجح هنا وهناك وهن على تلك الحالة، يتحركن على وقع ضحكات سعيدة، ومن حولهن كثير من الناس يحدقون في تلك النهود الأربعة المتأرجحة كأجراس في برج كنيسة. وفجأة تنظر إحداهن ناحية الناس، فتتجهم، وتثني ذراعها خجلًا، بينما الأخرى غارقة في دموع ضحكاتها، فتنبهها الأولى إلى الحشد أمام شركة كاتس، فتفزع، وتلملم سترتها بيدها، تفقد توازنها وتسقط على ظهرها، فتنفرج ساقاها ليظهر كل ما بينهما رغم اختبائه خلف سروال داخلي مزركش حديث. تتجهم وجوه الناس بعد استغراق في الضحك وهم يرون ذلك المشهد. ينصرف البعض، ويبقى البعض محدقين في الواجهة حتى بعد الظهرة رغم انصراف الفتيات لتناول الغداء عندنا، في مطعم فندق براج الذهبية. وقف الناس مشدوهين بجمال أولئك الحسناوات، حتى بعد أن أسدلوا غطاء واجهة العرض. هذا ما يفعله جمال الحسناوات في الناس... جلست، وخلعت حذائي الملوث بالطين، ومن بعده سروالي. فتحت حقيبتي كي أعلق البزة. شعرت بحنين إلى فندقي، فندق براج الذهبية، حنين إلى فتيات رايسكا. كل ما رأيته هناك ليس سوى مدينة من أحجار، وكثير من الناس، وميادين ممتلئة بهم. لم أرَ من الطبيعة خلال ثلاثة أعوام سوى تلك الزهور التي أحضرتها يوميًّا، وحديقة صغيرة، وأوراق الزهور التي كنت أفرش بها بطون فتيات رايسكا العارية. تساءلت وأنا

أحمل البزة في يدي: من هو رئيسي؟ رأيته خلال السنوات الثلاث التي قضيتها هناك بشكل هلامي، رأيته وسط مرق يسيل منه ومن زوجته. كان أصغر مني قامة. آمن مثلي بقيمة الأموال. عاشر أجمل فتيات رايسكا مقابل النقود، ليس هذا فحسب، بل سافر من أجلهن، وطاردهن حتى مدينة براتسلافا، وبرنو. قالوا عنه إنه دائمًا ما بدّد آلاف الأموال قبل أن تعثر عليه زوجته. كان قبل كل مغامرة له يعلق في جراب صغير بجوار سترة بزته مبلغًا من المال لتذكرة العودة، وبقشيشًا للمحصل كي يوصله إلى البيت. كان قصيرًا إلى درجة أن مفتش القطار يحمله في أحضانه وهو نائم مثل طفل صغير. تقلص حجمه أكثر من تلك الفضائح. يبقى بعدها لمدة أسبوع كامل منكبًّا على نفسه مثل فرس البحر... وبعد أسبوع يعاود نشاطه. تذكرت الآن أنه أحب شرب النبيذ الثقيل، النبيذ البرتغالي والجزائري، والإسباني. شرب كل هذه الأنواع بجدية شديدة، وببطء أشد. بدا وكأنه لا يشرب. صار مديري ذلك بعد كل رشفة أجمل من ذي قبل، يحتفظ بالسائل في فمه، ثم يبتلعه وكأنه يبتلع حبة تفاح في حلقه. يهمس بعد كل رشفة بأنه يشعر بشمس الصحراء في النبيذ. أحيانًا كان يثمل مع زبائن الفندق، ثم يسقط، فيستدعي أصدقاؤه زوجته كي تأتي وتأخذ زوجها. وكانت تحضر، تهبط في المصعد من الطابق الثالث حيث أقام مديري معها في جناح فندقي. تأتي دون أي شعور بالخجل، بل على العكس، كان الجميع ينحني لها بينما مديري مُستلقٍ أسفل الطاولة أو نائم فوق أحد المقاعد بجوار

الطاولة. تحمله زوجته من ياقة معطفه، أو ترفعه من فوق الأرض بكل خفة وكأنه مجرد معطف. بعدما يجلس تجره نحو الأرض، لكنه لا يسقط بعد أن تتلقفه وهو في الهواء. تحمله بين يديها بكل هدوء وسهولة، ثم ترفعه وكأنه بالفعل مجرد معطف لا أكثر. يستفيق مديري تدريجيًّا، ويحرك يده الصغيرة، حسبما يسمح له معطفه المشدود، تفتح زوجته باب المصعد بكل نشاط، وتدفعه إلى الداخل، فتهدر ساقيه، لكنها تدخل المصعد خلفه، وتضغط على الزر. كنا نراهما خلف باب المصعد الزجاجي. نرى مديري وهو ملقى على أرض المصعد، وتقف زوجته من فوقه. يصعدان إلى الطابق الثالث. حكى عنه زبائن الفندق أنه اشترى قبل سنوات هذا الفندق، فندق براج الذهبية، وأن زوجته كانت تدور وسط الزبائن، وأن صالونًا أدبيًّا كان يعقد في الطابق الأرضي، ولم يبقَ منه سوى الشاعر والرسام توندا يودل، وأن نقاشات كانت تعقد في ذلك الصالون، يقرؤون الكتب، ويقومون بعروض مسرحية، ودائمًا ما نشبت مشاجرات عنيفة بين المدير وزوجته. مشاحنات تنشب كل أسبوعين تقريبًا حول مذهب الواقعية أو الرومانسية، أو حول سميتانا، ويناتشك. وصلت إلى درجة رش النبيذ على بعضهما، ثم يليها شجار. كان لزوجته كلب كوكر سبانيل، بينما كلب مديري من فصيلة فوكس تيرير. وكلما تخاصم الزوجان بسبب الأدب لا يتحمل الكلبان مشاجرتهما، فينبح كلب في الآخر بكل عنف. بعدها يتصالح مديري مع زوجته، ويذهبان معًا في نزهة عند جدول ماء خارج المدينة برأسين معصوبين، أو يدين

معلقتين في الأكتاف، ومن خلفهما كلباهما يجران أقدامهما، بضمادات أيضًا فوق أذنيهما المرضوضتين، أو آثار جروح التأمت بعد شجار أدبي عنيف... وهكذا يتصالح الجميع إلى أن يشب شجار آخر بعد شهر... لا بدَّ أنها كانت مواقف جميلة، أودّ لو أني رأيتها... وقفت أمام المرآة مرتديًا بزتي الجديدة، وقميصًا أبيض منشّى، وبابيون. سمعت صوت صفارة وأنا أضع في جيبي فتاحة نبيذ جديدة بمقبض من النيكل، وبها سكين صغير. توجهت إلى الفناء فطار فوقي ظل أحدهم. رجل ما يقفز من فوق السور. سقط فوق رأسي ما يشبه صدور امرأتين، أو قماشتين، لا أدري. وأمامي نادل يسقط فوق الأرض يرتدي بذلة، ثم هم واقفًا وجناحا بزته يرفرفان في الهواء، رغم ذلك واصل الهرولة استجابة لنداء الصفارة. ارتطم بالباب، فانفرجت ضفتا الباب المتحرك، وظلتا تموجان من خلفه حتى استقرتا. انعكست على مرآتهما صورة مصغرة للفناء ولي وأنا أقترب من الباب، ولجسد أحدهم يدخل من الباب الزجاجي. عرفت بعد أسبوعين الهدف من بناء هذا الفندق. أسبوعين وأنا في دهشة لا تفارقني مما آلت إليه حالي، وهل من المعقول أن تكون هذه حياتي. جنيت بعد مرور أسبوعين بضعة آلاف من الكرونات من البقشيش، وكان مرتبي مجرد مصدر لمصاريفي الشخصية. بعد أسبوعين فقط. أحصي الأموال في غرفتي الصغيرة وأنا بمفردي. أحصيها في أوقات الراحة. لم أشعر بالوحدة وأنا أختلي بنفسي. دائمًا ما شعرت بأن أحدهم يراقبني، نفس الشعور الذي شعر به رئيس السعاة زدينياك الذي

مر عامان على وجوده هنا، ودائمًا مستعد أن يقفز من فوق السور ليظهر في مطعمنا تلبية لنداء الصفارة في أسرع وقت ممكن. الواقع أننا طوال اليوم لم نجد ما نفعله. لا يستغرق الأمر وقتًا كثيرًا كي نرتب المطعم، أو نعد الكؤوس وكل أدوات المائدة، وكذلك تغيير المفارش ومناديل الطعام. أرافق زدينياك الذي معه مفتاح المخزن لنعد المشروبات، ونتأكد من أن لدينا ما يكفي من زجاجات الشمبانيا الباردة، وزجاجات بيرة بلزن المخصصة للتصدير. نحمل زجاجات الكونياك إلى غرفة التحضير لتكون جاهزة دافئة، ثم نذهب بعدها إلى حديقة الفندق، أو بالأحرى إلى المنتزه. هناك نرتدي المآزر، ونمهد الطرقات، ولا نكف عن صنع أكوام القش، كل أسبوعين، نُزيل القديمة منها، ونأتي بأكوام جديدة غيرها. أو نضع أكوام القش شبه الجاهزة مكان القديمة، حسب خطة محددة. بعدها نمهد الطرقات، وعادة ما كنت أفعلها وحدي. أما زدينياك فكان دائمًا يختفي في البيوت المجاورة عند بناته بالتبني، كما كان يقول. غير أنها لم تكن بناته، بل على ما أظن عشيقاته. ربما كانت زوجات غيره جئن إلى هناك لقضاء عطلة نهاية الأسبوع في شاليهات صيفية بمفردهن، أو ربما بنات أحد غيره، يستعدون لامتحانات الثانوية. وأنا أحفر في الرمل وأنظر إلى فندقنا من خلف الأشجار أو من عند المرج الفسيح. فندقنا الذي يبدو أثناء النهار كأي نُزل آخر. يراودني شعور بأني سأرى فتيات يتدافعن من باب الفندق، أو شبيبة يحملن حقائب في أيديهم، أو سيخرج منه رجال شباب بمعاطف محبوكة، ومن

خلفهم خدم تحمل عصي الجولف، أو سيظهر هناك أحد التجار، وخادم يحمل كرسيًّا من الخيزران إلى الخارج وطاولة صغيرة، وخادمات يبسطن المفارش، أطفال تهرول وتداعب أبيها، ثم يأتي رجل يحمل مظلة شمس، ويخلع قفازه في هوادة، ويشرع في صب القهوة بعد أن يستقر الجميع في أماكنهم... لكن طوال اليوم لم يخرج أي إنسان من الفندق، ولم يدخله أحد. رغم ذلك فعاملات الغرف تنظفها، تبدل مفارش عشر غرف في كل يوم وتنظفها من التراب. رغم ذلك الاستعدادات في المطبخ على قدم وساق من أجل وليمة كبرى لم أرَ أو أسمع بمثلها. سمعت ذات مرة من دوائر النبلاء أو من حكايات رئيس السعاة في فندق براج الذهبية، وكان من المفترض أن يذهب بصفة نادل من الدرجة الأولى على متن باخرة فيلهلماين التي غرقت. عندما تخلف رئيس السعاة عن اللحاق بالباخرة، وسافر بالقطار عبر إسبانيا كلها إلى أن وصل جيبرالتو برفقه امرأة سويسرية جميلة، وبسببها تخلف عن الباخرة التي غرقت. حكاية الولائم الفاخرة من الدرجة الأولى على متن باخرة فيلهلماين الفاخرة تشبه -إلى حد ما- ما قمت به في هذا الفندق النائي المسمى تيخوتا.

لم يكن لديّ سبب يجعلني غير راضٍ عن عملي في الفندق، إلا أني كثيرًا ما شعرت بالخوف. كنت على سبيل المثال أمهد أحد الممرات. وضعت «شازلونج» خلف الأشجار، واستلقيت فوقه، ورحت أتطلع إلى السحب المتجمعة، دائمًا ما تمر السحب من هناك، ثم نعست، وفجأة أسمع صوت صفارة وكأن مديري يقف

من خلفي. اضطررت إلى الهرولة عبر أقصر طريق، وأنا أفك المئزر. ثم قفزت من فوق السياج كما فعلها زدينياك من قبل، وتوجهت مباشرة إلى المطعم ليراني مدير الفندق الذي لا يغادر مقعده المتحرك، ودائمًا ما يشكو من شيء يكدر جلسته، وسادة تنزلق من مكانها وكنت دائمًا أسوّيها له. أربط حول بطنه حزامًا يشبه أحزمة رجال المطافئ، حزام بخطاف، مثل حزام طفلي السيد راديمسكي الطحان. كان هذان الطفلان يلهوان بجوار موتور المطحنة، بينما الكلب برنارد قابع فوق التل، وعندما حبا هاري أو فينتيرش، هكذا كان اسم الطفلين، عندما حبوَا ناحية موتور المطحنة، وقبل أن يتوقع أحد أنهما قد يسقطان في الماء جاء الكلب برنارد، وحمل الطفلين، هاري وفينتيرش، وأخذهما بعيدًا عن ذلك المكان الخطير.

بمثل هذه الطريقة هرولنا نحو المدير، وسحبناه بحبل فوق عجلة إلى أعلى بحيث نقدر على تحريك العربة من دونه، وأشرنا إلى المدير عن السبب، ثم سوينا الوسادة من تحته، أو استبدلناها بأخرى جديدة، أو زودناها بواحدة أخرى، ثم نعيد المدير إلى العربة. كان مشهدًا سخيفًا وهو عالق في الهواء بجسد مائل إلى درجة أن الصفارة التي تدلت عموديًّا من رقبته أشارت إلى أي حد هو عالق في الهواء... عاد يتحرك في الصالة، وفي الغرف الصغيرة والكبيرة، يسوي الورود. كان لذلك المدير انجذاب عجيب لممارسة أعمال النساء ولأماكن الطبخ. في الواقع بدت غرف مثل غرف بيوت أهل الحضر، أو غرف قصر صغير. ستائر

في كل مكان، وورود اسبراجس. في كل يوم تستبدل زهور التوليب بأخرى طازجة، وكذلك كل زهور الموسم. دائمًا ما كانت لدينا وفرة في زهور الاسبراجس، يصنع منها المدير باقات رائعة في المزهريات، ويظل ينسقها طويلًا. في كل مرة يبتعد عنها قليلًا، ينسقها، ثم يبتعد، وينظر إليها من بعيد، ليس فقط مزهرية بعينها، بل إلى كل المزهريات ليتأكد من أنها متناغمة مع ما حولها. في كل مرة يضع أسفل تلك المزهريات مفرشًا مختلفًا. يقضي أوقات ما قبل الظهيرة في تجميل الغرف، ثم ينتقل إلى تسوية طاولات الطعام... وكانتا في الواقع طاولتين تتسعان على الأكثر لاثني عشر شخصًا. من جديد وبينما أضع أنا وزدينياك جميع أنواع الأطباق والشوك والسكاكين في الطاولة في صمت يظهر المدير مفعمًا بحماس صامت، يجمل بالزهور كل مائدة، ويسأل إن كان لدينا في غرفة التحضير ما يكفي منها ومن زهور الاسبراجس المطمورة في الماء بأغصانها وزهراتها التي كنا نزين بها مفارش الطعام في اللحظات الأخيرة قبيل قدوم الضيوف... كما أكد دائمًا فقد تخلص المدير بالفعل من أجواء المطاعم، وأضفى على فندقه طابع وسحر طراز بيدماير للمنازل. ينصرف بعربته ناحية الباب الذي سيدخل منه الضيوف، يقف هناك للحظات، يدير ظهره للصالة والغرف، ويجلس في مواجهة الباب. يمعن التفكير قليلًا، ثم يدير عربته بحدة ويتقدم، ينظر وكأنه رجل غريب، وكأنه ضيف يأتي إلى هنا لأول مرة. يجول ببصره في أرجاء الصالة، ثم يدخل غرفة وراء الأخرى، يتفحص

كل التفاصيل بنظرة خبير، حتى شكل الستائر. كنا نشعل الإضاءة في كل مكان، كل المصابيح يجب أن تكون مضاءة في ذلك المساء. بعد انتهاء التحضيرات، يظهر المدير جميلًا، وكأنه نسي أن وزنه مئة وستين كيلوجرامًا، وأنه قعيد. يرى الأمور بعيني رجل غريب، ثم يخلعها ويضع مكانها عينيه، يفرك يديه، ويصفر على نحو مختلف. وقتها أعرف أن الطهاة سيأتون بعد لحظات، يقدمون له تقريرًا حول كل التفاصيل، حول سرطان البحر، والمحار، عن الحشو على طريقة سوفاروف، عن أطباق السالبيكوني. بعد مرور ثلاثة أيام على وجودي بالفندق انطلق ذلك المدير بعربته وأصاب رئيس الطهاة لعلمه أنه وضع كثيرًا من الكمون على شرائح لحم العجل بالفطر... بعدها نوقظ ذلك الخادم، العملاق الذي نام طوال اليوم، والذي يلتهم كل ما يتبقى من ولائم المساء، كميات ضحمة، أطباقًا كاملة من السلاطة لم نقدر جميعًا على أكلها، ولا حتى خادمات الغرف. ذلك العملاق التهم كل شيء في جوفه، شرب كل ما تبقى في الزجاجات. كانت قوته خارقة. يضع أثناء الليل مئزرًا أخضر، ثم يكسر الأخشاب على ضوء المصابيح في الفناء. لم يفعل شيئًا غير تكسير الأخشاب، بضربات رتيبة من فأسه يجزئ ما قطعه من أخشاب في اليوم السابق. يظل طوال الليل يعمل. أعرف بالطبع أنه يقطع الأخشاب بلا انقطاع، سمعته بنفسي كلما جاءنا أحدهم، ولم تكن تأتينا إلا سيارات دبلوماسية، حشد من السيارات، دائمًا يأتون في عتمة الليل، أو فحمته، بينما العملاق يكسر أخشابًا فواحة. كان

في مرمى بصر الجميع، يرونه من كل النوافذ. أعطى مشهد الفناء المضاء، والأخشاب المرصوصة في محيطه شعورًا بالثقة. رجل بطول مترين يكسر الأخشاب، رجل يحمل في يده بلطة كاد يومًا أن يقتل بها لصًّا، وضرب ثلاثة منهم. حملهم بنفسه في عربة يد ونزل بهم إلى قسم الشرطة. إنه الخادم الذي لو فُقئت إحدى عجلات سيارة يرفع الزاوية الأمامية أو الخلفية، ويظل ممسكًا بها بيديه حتى يستبدل الإطار بآخر. إنه الخادم الذي كانت مهنته الأساسية تكسير الأخشاب في فناء مضاء من باب الزينة فقط، حتى يراه ضيوف الفندق، وكأنه شلال مياه إلبه[2] الذي يملؤه بالمياه، وينتظرون أن يأتي مرشد السياح، ليرفعوا هويسًا في أعلاه بإشارة منه، كي يستمتع الناظرون بمشهد الشلال. نفس الأمر حدث مع خادم الفندق. أريد أن أكمل رسم صورة مدير الفندق. كنت متكئًا في الحديقة على إحدى الأشجار، أحصي ما جنيته من أوراق بنكنوت وإذا بي أسمع صوت صفارة. كان ذلك المدير بمثابة إله عليم بكل شيء. جلست مع زدينياك بعدما تأكدنا من أنه لن يرانا أحد وسط كومة قش، وإذا بصوت صفارة. كان مجرد تحذير، صفرة واحدة كي نواصل العمل دون توانٍ. لذلك اعتدنا أن نضع بجوارنا مدمة العشب أو المعزق، أو المذراة، ثم نستلقي إلى أن نسمع صوت الصفارة، نهم مسرعين، نحفر وننبش في الأرض، ونحمل القش المنكوش فوق المذراة. وبعدما

2- شلال مياه في منطقة شبندلوف ملين بشرق التشيك قريبة من نهر إلبه. ارتفاعه 35 مترًا. (المترجم)

يعود الهدوء، ونضع المذاري يعاود الصفير ونعاود النبش ونحن متسلقين. هكذا كنا نفعل بالمذاري وكأنها آلات تعمل فوق أحبال خفية. حكى لي زدينياك أن المدير عندما يبرد الطقس ينشط مثل سمكة في ماء. الأسوأ عندما يسخن الهواء، يكاد يذوب، ويعجز عن ممارسة نشاطه المعتاد، ويلزم حجرته في درجة حرارة أقل تكاد تتحول إلى ثلاجة... لكن يظل رغم ذلك عليمًا بكل شيء، يرى كل شيء، يرى ما لا يُرى، وكأن لديه قريبًا فوق كل شجرة، وفي كل ركن، وخلف كل ستارة، وفوق كل غصن... قال زدينياك إنها مسألة وراثية، ثم تقلب في فراشه. كان أبوه صاحب حانة في سهول جبال كركنوش. كان هو الآخر يزن مئة وستين كيلوجرامًا. كلما جاء الصيف انتقل إلى المخزن، حيث أثثه بسرير وجهاز لصب البيرة والخمر الثقيل كي لا ينصهر. دون هذا سيذوب في الحر القائظ مثل قطعة زبد. أتفهمني؟

بعدها ذهبنا في نزهة فوق مدق لم أخطُهُ من قبل، نتحدث عن والد المدير الذي كان ينتقل في الصيف إلى قبو الحانة الريفية كي لا يسيل مثل قطعة الزبد، نحكي عن شربه البيرة هناك، وعن سريره. أخذنا ذلك الممشى إلى ثلاث شجرات صنوبر فضية. وقفت كمن أصابته صاعقة. كان فزع زدينياك أشد، جذبني من كُم قميصي، وقال: انظر! رأيت في الجهة المقابلة بيتًا صغيرًا، منزل عطلات مثل كعكة الزنجبيل، وكأنه بيت صغير فوق خشبة المسرح. تقدمنا منه، فظهرت أريكة صغيرة أمامه، ونافذة أصغر تشبه نافذة غرفة صغيرة في بيت عطلات بإحدى القرى. بابها

يفتح على قبو، ولا بدَّ أن أحني قامتي إن أردت الدخول، لكن الباب موصد. وقفنا ننظر من النافذة الصغيرة، وبقينا ننظر لمدة خمس دقائق، ثم التفت أحدنا نحو الآخر بتوجس، قشعريرة دبت في ذراعي. كل ما في هذه الغرفة الصغيرة نسخة مصغرة من أي غرفة في فندقنا. نفس الطاولة، ونفس المقاعد، وكأنها غرفة أطفال. حتى الستائر نفسها كانت هناك، نفس طاولة المزهرية. تجلس فوق كل مقعد دمية فتاة أو دمية دب، على الحوائط أرفف كما في المتاجر، مرصوصة عليها لعب أطفال مختلفة، حائط بالكامل مغطى بلعب أطفال وطبول، وحبال. كلها مرصوصة بعناية وكأن أحدهم قد رتبها قبل أن نأتي بقليل، ثم اختبأ كي يخيفنا أو يؤثر فينا... بيت عطلات امتلأ بأكمله بمئات لعب الأطفال...! وفجأة علا صوت صفارة. لم تكن صفارة تحذير من أن نتكاسل أو نتقاعس عن العمل، بل صفارة حالة طارئة يستدعينا بها المدير. هرولنا، وجرينا ناحيته عبر المرج، نقفز فوق السور والعرق يتصبب منا...

هكذا كانت كل ليلة في فندق تيخوتا حبلى بالترقب والإثارة. لم يأتِ أحد، ولم تظهر أي سيارة، رغم ذلك كان الفندق كله على أهبة الاستعداد، وكأنه صندوق موسيقي ينتظر أن يلقي أحدهم فيه قطعة عملة كي تنطلق منه الموسيقى فينطلق الفندق كفرقة موسيقية، يرفع قائدها عصاه، وكل العازفين متأهبون، في حالة تركيز كبير. لكن العصا لم تتحرك بعد... لم يسمح لنا أن نجلس أو نتوانى. إما أن أننا نسوي شيئًا، أو نقف مستندين بخفة إلى

طاولة المناولة، حتى الخادم العملاق يقف منحنيًا إلى الأمام وسط الفناء المضيء فوق كومة الخشب، يحمل فأسه في يد، وفي الأخرى لوح خشب ترقبًا لإشارة البدء، ليطلق فأسه على طريقته المعتادة، وتدب الحركة في أرجاء الفندق، وكأننا في ساحة إطلاق نار نتنظر صفارة البداية. لكن أحدًا لم يأتِ. انتظروا أن تأتي الضيوف كي يحشوا بنادقهم، ويصوبوا نحو الهدف. كل مشهد من هذه المشاهد مرسوم بدقة كي تعمل كل تفاصيله في تناغم. الآن وغدًا، وكما بالأمس، وليس مسموحًا أن يخطئ أحد هدفه. ذكرني هذا أيضًا بحكاية الأميرة النائمة، حين وقفوا جميعًا بلا حركة عندما أصابتهم اللعنة، إلى أن تحركوا جميعًا بلمسة من عصا سحرية ليكملوا حركات بدؤوها، أو يشرعوا في حركات أخرى. وفجأة سمعنا صوت سيارة من بعيد، فأعطى المدير الجالس فوق مقعده إشارة بمنديل في يده، فألقى زدينياك قطعة العملة في الصندوق، فراح يجلجل بملايين هارلي كوين. صندوق موسيقى مكسو بأغطية وحوائط مخملية. بدا وكأن موسيقاه قادمة من مكان آخر. أطلق الخادم العملاق فأسه، بدا متعبًا، انحنى ظهره وكأنه يكسر الأخشاب منذ الظهيرة، بينما وضعت المفرش فوق ساعدي، ووقفت أترقب أول القادمين! جاء الجنرال في زي الجنرالات، بمعطف أسود. من المؤكد أنه يحيك حلته هذه في نفس الشركة التي صنعت بزتي. بدا الجنرال حزينًا، يتبعه سائقه، في يده سيف ذهبي وضعه على طاولة صغيرة، ثم انصرف. تجول الجنرال في الغرف، تفحص كل ما فيها، ثم فرك يديه،

وفرد ساقيه، وعقد يديه خلف ظهره، ونظر ناحية الفناء، صَوْب خادم الفندق الضخم الذي ما انفك يكسر الأخشاب، بينما أحضر زدينياك زجاجة فضية بها مياه فوارة، ووضع المحار على طاولة الطعام وأطباق الجمبري وسرطان البحر. وبعدما استقر الجنرال فوق مقعده صب له زدينياك كأس شمبانيا، هينكل تروكن، ملأ الكأس، فقال له الجنرال: أنتم ضيوفي، فانحنى زدينياك، وأحضر كأسين، وصب فيهما الشراب. وقف الجنرال، ودب بقدمه، وصاح: تفضلوا! ثم شرب، رشفة واحدة فقط، بينما شربنا كؤوسنا حتى فرغت. تجهم الجنرال، واهتز، ثم صاح بكل قرف: يا للقرف! لا يمكنني تقبل هذا الشراب! ثم وضع محارة في الطبق، ورفع رأسه، ثم ارتشف بنهم لحم المحارة الهش المرشوش بقطرات بالليمون. بدا أن الطعام طاب له، لكنه اهتز، واختلج بنفور حتى دمعت عيناه. عاد بعدها، وأكمل شرب كأس الشمبانيا، ثم صاح بعدها: لا، هذا لا يمكنني أن أشربه على الإطلاق! ثم دار في الغرف، وبعدما عاد وأخذ قطعة لحم جمبري من الأطباق المتأهبة، ثم وريقة سلاطة، ومعها ملعقة سلبيكوني[3]. في كل مرة يعتريني الخوف، كان الجنرال يصرخ بنفور، ويقول: يا للقرف، هذا طعام بلا طعم! ثم يعود من جديد، ويمسك كأسه، ويطلب أن يصب له زدينياك الشراب، فينحني له، ويتحدث عن فيف كليكو[4]،

3- سلبيكوني أو هودج بودج. طبق إسباني شهير من مكونات مختلفة يقدم مع الأسماك أو اللحوم. (المترجم)

4- فيفو كليو بوساردين. شمابانيا فرنسية فاخرة. (المترجم)

وعن الشمبانيا عمومًا، لكنه يعتبر أن أفضلها ما يقدمه هنا، وهي هينكل تروكان، فيشرب الجنرال متحمسًا، ثم يلفظ ما شربه، ثم يشرب ويعاود الانصراف ليلقي نظرة على الفناء. الظلام قابع في كل مكان عدا الخادم المضيء وما يفعله. الحوائط المضيئة مغطاة تمامًا بستائر بلون أشجار الصنوبر. المدير يتحرك في صمت. فقط يتحرك، يومئ، ثم ينصرف. يعتدل مزاج الجنرال وكأنه قد تخطى نفوره من الطعام والشراب، وعادت إليه ذائقته. ثم ينتقل إلى زجاجة كونياك أرمجناك صغيرة، ويشربها عن آخرها. بعد كل جرعة شراب من الكأس يعقد جبينه، ويسب ويلعن، يخلط الألمانية بالتشيكية: Diesen Schnaps kann man nicht trinken!. مع كل هذه المشروبات الفرنسية الفخمة، ومع كل لقمة يضعها الجنرال في جوفه وكأنه سيتقيأ، يقسم إنه لن يتناول لقمة واحدة بعدها، ولن يشرب رشفة واحدة. يجحظ في رئيس الطهاة، وفيَّ، ويقول: ما هذا الذي تقدمونه لي؟ أتريدون قتلي مسمومًا، أتريدون قتلي، أيها الأنذال؟ ثم يشرب زجاجة أرمجناك كاملة، بينما زدينياك يلقي عليه محاضرة عن سبب تسمية أفضل كونياك باسم أرمجناك، وليس كونياك. فهو براندي لأن الكونياك لا يصنع إلا في منطقة اسمها كونياك. لذلك فأفضل كونياك موجود على بعد كيلومترين من حدود إقليم كونياك، ولا يسمى كونياك، بل براندي. في الساعة الثالثة صباحًا، عندما يرى الجنرال بأنه لم يعد يتحمل، وأننا قد قتلناه الساعة الثانية بإعطائه تفاحة في الثالثة يكون قد أكل وشرب ما يكفي

خمسة أشخاص، رغم ذلك يتذمر ويشكو من أنه لم ينل ما يكفيه، وأنه قد يكون مصابًا بالسرطان، أو على الأقل بقرحة في معدته، وأن كبده قد تليف، أو أصيب بحصوات في كليته. في الساعة الثالثة صباحًا يكون قد نال منه الشراب، فيسحب بندقيته ويطلق النار على كأس في إحدى النوافذ، فيصيب النافذة. لكن المدير يتقدم في هدوء فوق عجلتين من المطاط، يبتسم له، ويحييه، ويطلب من الجنرال أن يدخل عليه السرور ويحاول التصويب على حبة ثريا مصنوعة في فينيسيا. قال إنه رأى آخر تصويب ناجح هنا: ألقى الأمير شفارتسن برج عملة من فئة خمس كرونات، فأصابها بدقة من بندقية صيد قبل أن تسقط على الطاولة... انصرف المدير، وأخذ عصا أشار بها إلى فتحة فوق المدفأة دخلت منها الطلقة التي أصابت الخمس كرونات الفضية. لكن الجنرال تخصص في التصويب على كؤوس الزجاج، أطلق النار، ولم ينزعج أحد منهم رغم أنه أصاب النافذة، واستقرت الطلقة فوق الخادم المنكب على عمله في تقطيع الأخشاب. فرك الخادم أذنه، وواصل العمل... تناول بعدها الجنرال فنجان قهوة تركية، ثم وضع يده فوق صدره، وقال إنه لا يجب أن يشرب هذه القهوة، ثم طلب كوبًا آخر منها، أعلن بعدها أنه رأى أمامه دجاجة مخصية يأكلها قبل أن يموت... انحنى المدير، وصفر، فجاء الطاهي مهرولًا، نشيطًا يرتدي قبعة بيضاء، ويحمل مقلاة. عندما رأى الجنرال ديكًا في المقلاة، خلع القلنسوة، وحرر أزرار قميصه، وقال وهو ينوح إنه لا يقدر على أكل لحم الطيور، ثم أخذ

الديك وشقه، وأكله وهو يشكو من حالته الصحية، وأن عليه ألا يسرف في الطعام، وأنه لم يأكل أسوأ مما أكله اليوم، فيقول له زدينياك إنهم في إسبانيا يقدمون الشمبانيا مع لحم الطيور، وإن الديك مطهو على طريقة أهل قرطبة. فيومئ الجنرال، ثم يرتشف بعض الشمبانيا، ويقضم لحم الديك وهو لا يكف عن السباب. يعقد حاجبيه مع كل قضمة، وكل رشفة شراب، ويقول: diesen Poulard auch diesen Champagner kann man nicht trinken und essen وفي الساعة الرابعة، بعدما يلقى كل ما في جوفة من عويل ونحيب يطلب الحساب. يحضره له رئيس الطهاة، به تفاصيل ما طلبه، ويقدمه له على طبق مفروش، وكان لا بدَّ أن يقرأ للجنرال قيمة الفاتورة، والأهم ما طلبه بالفعل... يخبره زدينياك بقيمة الفاتورة، وبكل تفاصيلها، فيبتسم الجنرال وتتسع ابتسامته حتى تتحول إلى ضحكات هادرة سعيدة. بدا يقظًا معافى، فارقه السعال. اعتدل، ثم دس ذراعيه في عباءته، ثم أرخى وجهه بعينين لامعتين، وأمر بإضافة مبلغ للمدير، فأعطاه ورقة بألف كرون أضافها إلى الحساب. يبدو أن تلك كانت العادة، ثم دفع ألف كرون نظير إطلاق النار وتشويه السقف وتحطيم النافذة، ثم سأل المدير: أهذا يكفي؟ هز المدير رأسه بأنه يكفي. حصلت أنا على مئتي كرون بقشيش. وضع الجنرال عباءته ذات النطاق الأحمر فوق ظهره، وحمل سيفه الذهبي، ثم لبس النظارة، وانصرف ترافقه أصوات نواقيس الفرسان. كان ما زال قادرًا على أن يرفع سيفه بحذائه بكل مهارة وهو ينصرف كي لا يدوسه

ويتعثر به...

جاء ذلك الجنرال في اليوم التالي، ولم يكن وحده هذه المرة، بل بصحبة فتيات جميلات، ومعهم شاعر سمين. في تلك المرة لم يصوّب، بل حدثت شجارات عنيفة حول الأدب، والاتجاهات الشعرية. بصقوا في وجوه بعضهم حتى ظننت أن الجنرال سيطلق النار على ذلك الشاعر. لكنهم سرعان ما هدؤوا، وبدأ السجال حول إحدى الأديبات التي دائمًا ما وصفوها بأنها تخلط بين فرجها والمحبرة. وأن أي إنسان في مقدوره أن يدس قلمه في محبرتها. ثم ظلوا لساعتين يطعنون في سيرة أحد الكتاب الذي قال عنه الجنرال إنه لو اهتم بنصوصه قدر اهتمامه بفروج النساء لكان أفضل له وللأدب التشيكي. وعلى العكس أكد الشاعر أنه أديب بمعنى الكلمة، ويمكن القول إن أفضل من كتب بعد الله هو شكسبير، ثم هذا الأديب الشاعر الذي تحدثوا عنه. الجميل في الأمر أن المدير فور قدومهم أرسل في طلب عازفي الموسيقى الذين عزفوا بلا انقطاع، بينما هم يثملون مع تلك الفتيات بكل ضراوة. راح الجنرال يسب ويلعن كل جرعة شراب وكل طعام، لكنه ظل يدخن بشراهة. كلما اشعل سيجارة سعل طويلًا وهو ينظر إلى السيجارة، ويصيح: ماذا هذه الحثالة التي يضعونها في السجائر؟ ثم يواصل التدخين بشراهة حتى يحمرّ رماد السيجارة... الموسيقيون يعزفون ويشربون. رأى الجميع أن الضيفين يضعان الفتيات على حجريهما طوال الوقت، ويصعدان إلى الغرفة من وقت لآخر، يعودان بعد ربع الساعة وهم يزعقان

بالضحكات. وحده الجنرال، في كل مرة يصعد فيها السلم، يضع يده بين فخدي الفتاة التي ترافقه، وينوح: لقد فاتني الحب، والآن أرافق الفتيات؟ لكنه يواصل الصعود ليعود مجددًا بعد ربع الساعة. رأيت كيف أن تلك الفتاة متيمة، غارقة في الحب، وأنها صارت مثل زجاجات الأرمجاك بالأمس، وزجاجات الشمبانيا هينكل تروكن، وطعام قرطبة. عاودا الحديث عن موت المذهب الشاعري، وعن السريالية الجديدة التي تتنقل إلى مرحلتها الثانية، وعن الفنون المرئية، والفن النظيف، وعادا من جديد إلى تبادل السباب حتى بعد انتصاف الليل، ولم تكتفِ الفتيات بما شربنه من شمبانيا وما أكلنه من طعام، وكأن الطعام يخرج من بطونهن فور دخوله. كُن جوعى بصورة كبيرة... ثم أعلن الموسيقيون عن نهاية الحفل، وأنهم سينصرفون، ولن يعزفوا بعد الآن. فأخذ ذلك الشاعر مقصًّا وقص قلادة ذهبية من فوق عباءة الجنرال، وألقاها على الموسيقيين، فواصلو العزف. كانوا على ما يبدو من الغجر أو المجر. ثم صعد الجنرال من جديد مع واحدة من الفتاتين، ومرة أخرى يقول من فوق الدرج إن قضيبه لم يعد ينتصب، وعاد بعد ربع ساعة. تناوب مكانه الشاعر مع الفتاة الأولى، ثم جمع الموسيقيون آلاتهم على أنهم راحلون. فأمسك الموسيقي بالمقص واجتز نيشانًا آخر، وألقاه في طبق العازفين. فتناول الجنرال هو الآخر المقص، واجتز ما تبقى من النياشين، وألقاها في الطبق بجوار النياشين الأخرى. كل ذلك من أجل تلك الجميلات. اعتبرناها أكبر حفلة مجون رأيناها في حياتنا. همس لي زدينياك بأن هذه

أعلى النياشين الإنجليزية والفرنسية والروسية من الحرب العالمية الأولى... خلع الجنرال عباءته، وشرع في الرقص. قال موبخًا الفتاة بأن عليها أن تبطئ من حركتها لأنه يعاني من أمراض في صدره وفي قلبه. ثم طلب من الموسيقيين الغجر أن يعزفوا مقطوعة تشارداش[5]. شرع الغجر في العزف، انخرط الجنرال هو الآخر بعد لحظات في الرقص بعد أن سعل، ونخم. اضطرت الفتاة إلى الانضمام إليه، حرر الجنرال يديه، ثم رفع واحدة، ودار فوق واحدة على الأرض مثل الديك. أسرع حركته، وبدا أكثر شبابًا حتى إن الفتاة لم تقدر على مجاراته. لكنه لم يتركها. واصل الرقص وهو يقبل تلك الفتاة في صدرها. التف الموسيقيون حول الراقصين وأعينهم ملؤها الدهشة والحماس. بدا من نظراتهم وكأن الجنرال يرقص نيابة عنهم. تواصلوا مع الرجل العسكري من خلال مقطوعات موسيقية عزفوها، تشتد وتيرتها وتهدأ حسب الرقصة وحسب قدرة الجنرال الذي ظل متفوقًا على الفتاة التي تراقصه وهي تلهث. تورد وجهها، ووقف الشاعر السمين فوق الدرابزين برفقة فتاة كانت معه في الحجرة. احتضن الفتاة، واشتعل الحماس، فحملها وتوجه ناحيه راقصي الـ تشادراش. فتح الباب وخرج ليعرض جسد الفتاة الثملة شبه العارية لبشائر شمس الصباح، ببلوزتها الصغيرة المنفلتة... تحركت قطارات الصباح تحمل العاملين إلى أعمالهم. وجاءت سيارة الجنرال، سيارة طويلة مكشوفة، ذات ستة مقاعد من طراز هيسبانو

5- رقصة مجرية. (المترجم)

سويسا. نافذة أمامية مغلقة، وفي الخلف مقاعد جلدية. سددت الشركة نفقات السهرة، ودفع الشاعر نفقاته مقابل عشرة آلاف نسخة من مجموعته الشعرية، تمامًا كما فعلها الشاعر يودل مع مجموعته الشعرية «حياة المسيح». دفعها عن طيب خاطر، وقال إنه أمر بسيط، وإنه سيذهب لإحضار دفعة أولى منها، وبعدها سيتوجه إلى باريس ليؤلف مجموعة جديدة من هذه التي بدد ثمنها في السهرة... ألبس الجنرال قميصه الأبيض ذا الأكمام المثنية، والأزرار المحررة. نام الجنرال بعد أن جلس بين الفتاتين في الخلف. في الأمام جلس الشاعر، دس في جيبه وردة حمراء، وأمامه وقفت الراقصة الجميلة مستندة بساعدها فوق زجاج السيارة الأمامي ممسكة بسيف الجنرال الذهبي في غمده. ترتدي معطف الجنرال مفتوحًا وقد خلا من النياشين. ارتدت قبعة الجنرال فوق شعر سائب. هكذا وقفت منتصبة بثديين ضخمين. قال عنها زدينياك إنها مثل تمثال لا مارسييز. هكذا تحركوا ناحية المحطة حيث يصعد العمال إلى القطارات المتجهة إلى مدينة براج. تحركت سيارة الجنرال بمحاذاة الرصيف باتجاه مدينة براج. صاحت الفتاة ذات الصدرين العامرين وهي تلوح بالسيف: إلى براج! وصلوا إلى المدينة. كان بالتأكيد مشهدًا جميلًا. سمعنا أن ذلك الجنرال والشاعر والفتيات، وخاصة فتاة السترة المفتوحة والصدرين البارزين والسيف المختبئ في غمده قد مروا بشارع برشيكوبي، ومنه إلى نارودني ترشيدا... ترافقهم تحيات رجال الشرطة، بينما الجنرال جالس في مقعد سيارته هيسبانو سويسا

الخلفي. يداه منسدلتان تكادان تلمسان أرضية السيارة، ويغط في النوم... عرفت أيضًا وأنا في فندق تيخوتا أن من قالوا إن العمل عبادة هم نفس الأشخاص الذين يعربدون طوال الليل في فندقنا، ويأكلون في معية حسناوات يجثين عند أقدامهم. إنهم الأثرياء الذين استطاعوا أن يسعدوا أنفسهم مثل الأطفال. كنت أعتقد أن الأثرياء ملعونون، وأن البيوت الريفية الصغيرة، والأكواخ، والكرنب والبطاطس تمنح الناس شعورًا بالسعادة والهناء، وأن الثراء لعنة... لكن اتضح أن المقولات الشائعة عن السعادة في البيوت البسيطة قد روج لها ضيوفنا الأغنياء الذين لا يعنيهم ما ينفقونه في ليلتهم، ينثرون أوراق البنكنوت في كل اتجاه وهم سعداء. لم أرَ في حياتي رجالًا سعداء مثل هؤلاء الأثرياء من التجار وأصحاب المصانع... كما قلت، هؤلاء يجيدون المرح، ويسعدون بالحياة مثل أولاد أشقياء. يشاكسون، ويتشاحنون، لديهم فائض من الوقت لعمل كل هذا... دائمًا ما يسأل أحدهم الآخر وسط كل هذا المرح إن كان في حاجة إلى عربة قطار أو عربتين أو ربما قطار بأكمله من الخنازير المجرية. بينما ينظر آخر إلى الخادم العملاق وهو يقطع الأخشاب، هؤلاء الأثرياء دائمًا ما اعتقدوا أن هذا الخادم هو أسعد رجل في العالم، ينظرون إلى ما يفعله بكل إعجاب، ويثنون على عمل لم يمارسوه يومًا، ولو أنهم فعلوا لما شعروا بأي سعادة، ولصاروا تعساء. قال ذلك الثري فجأة: عندي في هامبورج سفينة من جلود الأبقار قادمة من الكونجو، ألا تعرف ماذا أصنع بها؟ فيجيبه آخر وكأن الأمر لا

يتعلق بسفينة كاملة، بل ببقرة واحدة: ما هو نصيبي من صفقة كهذه؟ فيرد الأول أن نصيبه خمسة في المئة، فجيبه الثاني: بل ثمانية، فهي مخاطرة. فلن تخلو الجلود من الديدان لأن الزنوج لا يجيدون حفظها... فيرفع الأول يده، ويقول: سبعة... يتبادلان النظرات للحظات، ثم يتصافحان... يعودان من بعدها إلى الفتيات، يتحسسان بأيديهما أجساد النساء العاريات، وصدورهن، ثم يكملان حتى يبلغا أكوام زغب ممشوط أسفل صدورهن، يقبلانها بملء فيهما وكأنهما يأكلان محارًا، أو يرتشفان قواقع مطهوة. تشتعل في أنفسهم حمية الشباب منذ أن باعوا أو ابتاعوا قطارات الخنازير أو سفن الجلود. كان بعض ضيوفنا من هؤلاء الأثرياء يبيعون أو يشترون شوارع بأكملها من البيوت. باعوا واشتروا قلعة وحصنين، باعوا واشتروا مصنعًا. تفاوض عندنا ممثلون عن الشركات حول توريد أظرف بريدية لكل أنحاء أوربا، ناقشوا قروضًا بقيمة نصف مليار كرون لدول البلقان، باعوا قطارين من المتفجرات، زودوا بعض الفصائل العربية بالعتاد الحربي... كل شيء يتم بنفس الطريقة، في حضرة الشمبانيا والنساء، والكونياك الفرنسي، بنظرة من النافذة على الخادم الغارق في الضوء، يقطع الأخشاب... وأثناء النزهات تحت ضوء القمر في المنتزه، وأثناء لعب الاستغماية مع فتاة، عادة ما تنتهي بها الحال في أكوام قش وضعها المدير في الحديقة على سبيل الزينة، مثلها مثل العبد الذي يقطع الأخشاب... بعدها يعودون مع الفجر، رؤوسهم وملابسهم مزروعة بعيدان الحشائش الجافة.

سعداء جميعًا وكأنهم عائدون من عرض مسرحي... يوزعون الأوراق النقدية فئة المئتي كرون على عازفي الموسيقى، فيَنالني منها نصيب، حفنات من أوراق بنكنوت يوزعونها بنظرة تآمريه تقول إننا لم نر شيئًا، ولم نسمع شيئًا، رغم أننا رأينا وسمعنا كل شيء، بينما المدير يومئ برأسه من فوق عربته ذات العجلات المطاطية، يمر من فوقها من غرفة إلى أخرى كي يتأكد من أن كل شيء على ما يرام. يدعونا إلى تحقيق كل رغبات الزبائن. فمديرنا لا تفوته فائتة، حتى لو رغب أحدهم في الصباح الباكر في كأس حليب طازج، أو طبق قشدة بارد. كل شيء كان عندنا، حتى التقيؤ كنا نحسب له حسابًا، نضع له أدوات في الحمامات المُغلّفة بالرخام؛ وعاء لكل واحد منهم، بمقابض مطلية بالكروم. هناك أوعية للتقيؤ الجماعي تشبه مزراب خيول طويل، ومن فوقها عارضة. فوقها يقف الضيوف، ممسكين بتلك العارضة يتقيؤون في جماعة كي يتزودوا بالشجاعة. في المقابل أشعر بالخجل كلما تقيأت، رغم أن أحدًا لا يراني، لكن الأغنياء يتقيؤون وكأنه طقس من طقوس الوليمة، من وسائل التربية. يعودون بعيون دامعة بعدما أفرغوا ما في بطونهم. من بعدها يعاودون التهام الطعام والشراب بشهية أشد، مثلما فعل قدماء السلاف... أما كبير الطهاة زدينياك، بالفعل كان كبير الطهاة، تعلم في مدينة براج في مطعم النسر الأحمر. كان به طاهٍ عجوز علمه أصول المهنة. كان ذلك الطاهي النادل الرئيس في كازينو الصفوة الذي

تردد عليه الأرشيدوق إيستي[6]. قام زدينياك على خدمته. كان زدينياك يحسب على الزبائن، فصار هو الآخر زبونًا. يحمل كأسًا وهو يقف بجوار الطاولة، يشرب منه، ودائمًا ما رفعه لتحية أحدهم. يتحرك وهو يحمل الطعام، يؤدي عمله وكأنه في حلم، بحركات ملتوية، ولو حدث أن اعترض أحدهم طريقه يحدث تصادم مريع. حركات جسده مرنة ورشيقة في كل عمل يقوم به. لم أره يومًا جالسًا. دائمًا ما وقف منتصبًا، ودائمًا ما لبىّ رغبات كل الزبائن، فيحضر لهم ما أرادوه. رافقت زدينياك ذات مرة إلى إحدى الحفلات. كان من عاداته كأي نبيل أن يبدد تقريبًا كل ما يجنيه من أموال. يعطي كما يعطي ضيوفنا، ودائمًا ما فاضت معه الأموال. كلما عاد بسيارة أجرة في الصباح الباكر يوقظ صاحب حانة صغيرة نائية في إحدى القرى، ويأمره أن يوقظ الموسيقيين، والمطربين ليعزفوا له. يجوب الغرف، ويدعو النائمين أن ينزلوا جميعًا إلى الحانة ليشربوا في نخبه. فتعزف الموسيقى، وينطلق الرقص حتى الفجر. في الصباح، وبعد أن يشربوا كل ما لدى صاحب الحانة في الزجاجات والبراميل يوقظ صاحب متجر الكحول والبقالة، ويشتري سلالًا من الزجاجات، ويعطيها هدية للعجائز من الرجال والنساء، ويسدد ثمن ما شربه في الحانة، وثمن كل المشروبات التي وزعها على الآخرين. يضحك وهو سعيد كلما أنفق ما لديه. كان من عادته أن يتلوى بحثًا عن عود ثقاب، فيقترض عشرين فلسًا ليشتري بها كبريتًا

6- أسرة إيستي هي سلالة أمراء أوربية.

ليشعل سيجارة، وهو الرجل الذي دائمًا ما أسعده أن يلف ورقة بعشر كرونات، ويمدها في مدفأة الحانة ليشعل بها غليونه... بعدها ننصرف ترافقنا أنغام الموسيقى. أحيانًا كلما سمح له الوقت يشتري زدينياك كل الورود في محل الزهور، وينثر القرنفل، والورد، والأقحوان. ترافقنا الموسيقى حتى خارج القرية، وتحملنا سيارة مزينة بالورود حتى فندق تيخوتا، حيث يبدأ يوم عطلة، أو بالأحرى ليلة عطلة.

أبلغنا ذات يوم بقدوم زيارة يهم المدير أمرها. جاب الفندق فوق كرسيه المتحرك عشر مرات أو عشرين مرة، ودائمًا ما وجد شيئًا غير راضٍ عنه. كانت زيارة محددة سلفًا قوامها ثلاثة أشخاص، لم يأتِ منهم سوى اثنين، رغم ذلك أعددنا العدة لثلاثة ضيوف. طوال الليل ونحن نقدم الطعام والشراب لثالث وكأنه سيأتي في أي لحظة، وكأنه ضيف خفي يجلس بينهم، ويتحرك، ويجوب الحديقة، يتأرجح فوق أرجوحتها، وهكذا... في البداية جاءت سيارة أنيقة فارهة تحمل سيدة تحدّث معها المدير وزدينياك بالفرنسية... ثم وصلت سيارة أخرى فارهة في التاسعة مساءً. خرج منها الرئيس شخصيًّا، عرفته على الفور. خاطبه المدير بعبارة: سعادتك! تناول الرئيس العشاء مع تلك الحسناء الفرنسية التي وصلت إلى مدينة براج بالطائرة. تبدلت أحوال الرئيس من بعدها. صار أكثر شبابًا، وعلت الابتسامة وجهه. تعامل بكل لياقة. شرب الشمبانيا، ومن بعدها الكونياك فانفرجت أساريره، وانتقلا إلى غرفة صغيرة مؤثثة على طراز بيدماير،

وبها زهور. أجلس السيد الرئيس الحسناء بجواره، وقبل يديها، ثم ذراعها العارية. تحدثا في الأدب، وفجأة انفجرا في الضحك. همس لها السيد الرئيس بشيء في أذنها، فهزقت، وكذلك فعل السيد الرئيس حتى سقط على ركبتيه. صب لها ولنفسه كأس شمبانيا، وأمسك كل منهما كأسه من عنقه في مواجهة الآخر، ثم قرعاهما بسعادة وهما يتبادلان النظرات، ثم شربا بكل عذوبة. دفعت تلك السيدة الرئيس بخفة فوق مسند المقعد، وراحت تقبله. استمرت القبلة طويلًا، وأغلق السيد الرئيس عينيه. راحت تدلك فخديه، وكذلك فعل هو الآخر. رأيت خاتمه اللامع يتلألأ فوق فخذي تلك الحسناء، وفجأة مال فوق تلك الحسناء وكأنه قد استيقظ، ونظر في عينيها، ثم قبلها، وطال العناق. بعد أن استردا وعيهما تنهد الرئيس تنهيدة عميقة عذبة، وكذلك فعلت تلك الحسناء فاهتزت خصلة شعر انفصلت عن شعرها واستقرت فوق جبينها. وقفا بيدين متعانقتين مثل طفلين يريدان أن يرقصا معًا، وفجأة انطلقا نحو الباب على هذا النحو، يطفران فوق الممشى ويمرحان. علت ضحكاتهما الصافية، وقهقهة السيد الرئيس السعيدة، وأنا عاجز على التوفيق بين ما أراه وبين صورة السيد الرئيس على طوابع البريد والأماكن العامة. دائمًا ما اعتقدت أن السيد الرئيس لا يفعل مثل هذه الأمور، ولا يليق به أن يفعلها. لكنه كان مثل باقي الأثرياء، ومثلي، ومثل زدينياك. يهرول تحت ضوء القمر الذي انتشر في الحديقة. في عصر ذلك اليوم أحضروا أكوامًا من القش المجفف. رأيت فستان الحسناء الأبيض، وصدرية

بدلة السيد الرئيس المنشاة، وقفازاته البيضاء تظهر وتتطاير هنا وهناك أثناء الليل مثل أطباق البورسلين، من كومة قش إلى أخرى، رأيت السيد الرئيس يطارد الروب الأبيض، ويمسك به، ثم يرفعه إلى أعلى بخفة. رأيت قفازاته البيضاء ترفع ذلك الثوب الأبيض، وتحمله بكل اقتدار. رأيت الجوارب تحمل الثوب الأبيض كمن ينتشل الحسناء من النهر، أو كأم تحمل طفلها بقميصه الأبيض وتضعه في مهده. هكذا حملها السيد الرئيس إلى عمق الحديقة أسفل أشجار عمرها مئات السنين، ثم خرجا بعدها، ووضعها وسط كومة القش. لكن الثوب الأبيض يفلت من بين يديه، ويواصل الجري، ومن خلفه السيد الرئيس، ودائمًا ما يسقطان في كومة قش. ينتصب الثوب الأبيض من جديد، ويواصل الجري إلى أن يسقط فوق كومة أخرى، ومن فوقه السيد الرئيس. رأيت الجوارب، ثم شاهدت الثوب وهو يتضاءل، والجوارب البيضاء تزيل الثوب عن جسد الحسناء، ويقطفه مثلما نقطف الأزهار. ثم هجعت الأصوات في حديقة فندق تيخوتا... وتوقفت أنا أيضًا عن متابعتهما، وكذلك فعل المدير، وأرخى الستائر. طأطأ زدينياك رأسه، وكذلك فعلت عاملة الغرف التي وقفت على السلم مرتدية ثوبًا أسود قصيرًا، ولم يظهر منها سوى مئزر أبيض وعصابة بيضاء في شعرها الثقيل. توقف الجميع عن متابعتهما، لكن صرنا جميعًا في حالة إثارة، وكأننا نحن من يرقد وسط كومة القش التي تناثرت وتبعثرت مع تلك الحسناء التي جاءت خصيصًا بالطائرة من باريس من أجل هذا المشهد وسط أكوام القش،

وكأننا نحن أبطال المشهد... الأهم أننا الوحيدون الذين شاركوا هذا الاحتفال العاطفي، وأن القدر قد اختارنا كي نرى ما رأيناه، ولا يريد منا أكثر مما يطلبه من كاهن يحافظ على سر الاعتراف. بعد منتصف الليل أمر المدير بأن نحمل إلى غرفة الأطفال الصغيرة طبقًا من الكريستال به قشدة باردة، وخبز طازج، وقطعة زبد ملفوفة في أوراق العنب. حملت السلة، ثم نفضت جسدي، ومشيت بمحاذاة أكوام القش التي تبعثرت عن آخرها بعد أن تحولت إلى فراش. حنيت رأسي لأكوام القش، ولم أمنع نفسي من أن أحمل حفنة منها، وأشتم رائحتها، ثم انعطفت ناحية أشجار الصنوبر الفضية الثلاث. رأيت ضوءًا قادمًا من النافذة الصغيرة. توجهت إلى هناك فرأيت طبولًا عالقة، وأحبال نط، ودببًا وعرائس، وفوق مقعد متناهي الصغر يجلس السيد الرئيس مرتديًا قميصًا أبيض، وأمامه فوق مقعد مماثل تجلس الحسناء الفرنسية. هناك جلس الحبيبان ينظر كل منهما في عين الآخر، استقرت يداهما فوق طاولة صغيرة تتوسطهما، عليها مصباح عادي به شمعة أضاءت ذلك المنزل الصغير... ثم وقف السيد الرئيس كي يأتي نحوي أمام البيت الصغير، من المؤكد أنه انحنى، فحجب الرؤية من النافذة الصغيرة. أعطيته السلة. كان رئيسنا هذا ضخمًا، فمال عليّ بينما وقفت منتصبًا، فقامتي ما زالت صغيرة. مددت له يدي بالسلة، فقال: أشكرك أيها الصبي، أشكرك... ومرة أخرى تحرك قميصه الأبيض، وبابيونه الأبيض المنفلت. كدت أتعثر وأسقط وأنا عائد إلى الفندق... ثم انتشر

الضوء بعد شروق الشمس، وخرج السيد الرئيس بصحبة تلك السيدة التي لا ترتدي سوى ملابسها الداخلية، وتجر وراءها ثوبها المترهل، بينما السيد الرئيس يحمل مشكاة تشتعل فيها شمعة، صارت في ضوء الشمس الساطعة مجرد نقطة... ثم مال السيد الرئيس، والتقط معطفه من كمه، وجره خلفه وقد علقت به كسرات القش وعيدانه... هكذا مشيا حالمين متجاورين، بابتسامة على وجهيهما... وأنا أنظر إليهما. انتبهت فجأة إلى أن مهنة النادل ليست بالأمر الهين، فهناك فرق بين نادل ونادل. أنا النادل الذي خدم الرئيس، وعليّ أن أقدر هذا، مثل زدينياك الشهير الذي قضى عمره بطوله ينهل من ميزة أنه النادل الذي خدم الأرشيدوق فرديناند إيست[7] في كازينو الصفوة... ثم غادر السيد الرئيس الفندق في سيارة، والسيدة في سيارة أخرى. وغادر في السيارة الثالثة لا أحد، الضيف الخفي الذي أعدّت من أجله الوليمة، الضيف الذي بسطنا من أجله المفارش، ومن أجله أمر المدير بإعداد طعام وغرفة لم ينزل بها أحد. توقف المدير عن الحركة من غرفة إلى أخرى عندما هلّت حرارة يوليو، وتوقف عن التردد على صالة الطعام. لزم غرفته، تلك الثلاجة التي لم تزد درجة حرارتها على العشرين. ورغم أنه توقف عن الظهور، ورغم أنه لم يظهر في طرقات المنتزه، كان دائمًا يرانا، عليمًا بكل ما يحدث. تابعنا وأصدر التنبيهات والتحذيرات بصفارته. تخيلت أنه يقول

7- فرانس فرديناند إيست (1863 - 1914) وريث عرش الإمبراطورية النمساوية المجرية. (المترجم)

بصفارته أكثر مما ينطقه بلسانه. نزل عندنا في ذلك الوقت أربعة أجانب من بوليفيا، أحضروا معهم حقيبة سرية صغيرة وضعوها نصب أعينهم، لازمتهم حتى أثناء النوم. ارتدوا جميعًا ملابس سوداء، وقبعات سوداء، وأطلقوا لحى سوداء، وارتدوا قفازات سوداء. أولوا الحقيبة اهتمامًا كبيرًا. حقيبة سوداء كتابوت صغير. أقاموا حفلات ليلية صاخبة ماجنة. من المؤكد أنهم دفعوا الكثير كي يستقبلهم المدير عندنا. تلك كانت طبيعته، وطبيعة الفندق؛ عندما ينزل أحدهم عندنا يدفع مقابل حساء ثوم وشطائر بطاطس وكأس حليب رائب وكأنه قد طلب محارًا، وسرطان البحر، وأتبعها بكأس من هينكل تروكان. كذلك فعل مع تكاليف الإقامة. حتى لو نام على أريكة حتى الصباح عليه أن يدفع ثمن جناح بأكمله. تلك كانت سمة بيتنا، فندق تيخوتا. تملكني الفضول بأن أعرف ما يحملونه في تلك الحقيبة، إلى أن عاد يومًا رئيس تلك الصحبة السوداء. كان يهوديًّا، اسمه سليمان. عرفت من زدينياك أن السيد سليمان له علاقات في مدينة براج، يعرف المطران شخصيًّا، وأنه يطلب منه بالطرق الدبلوماسية أن يبارك لهم تمثالًا ذهبيًّا صغيرًا «بامبيونو دي براجا»، الطفل يسوع البراجي ذا الشعبية الكبيرة في أمريكا اللاتينية. حتى إن ملايين الهنود الحمر هناك يحملون تمثال الطفل يسوع في سلاسل حول أعناقهم كتميمة. يرددون هناك أسطورة بأن مدينة براج هي أجمل مدن العالم، وأن المسيح الصغير يذهب فيها إلى المدرسة، لذلك يريدون أن يبارك لهم مطران براج بنفسه تمثال يسوع براج الصغير الذي يزن ستة

كيلوجرامات، ومصنوع من الذهب الخالص. منذ تلك اللحظة ولا هم لنا سوى تلك المباركة وشعائرها. لم يكن الأمر سهلًا. جاءت في اليوم التالي شرطة براج، وقدم رئيس الشرطة بنفسه تقريرًا لهؤلاء البافاريين عن تمثال المسيح الوليد، وأنهم على علم به في عالم براج السفلي، وأن مجموعة بولندية تسعى إلى سرقة «بامبينو». نصحوهم، بل وقرروا أنه من الأفضل إخفاء التمثال الأصلي حتى آخر لحظة، وعمل نسخة منه على نفقة جمهورية بوليفيا من الحديد المطلي بالذهب، وحمل تلك النسخة المقلدة، حتى إن حدثت عملية سطو فستكون على النسخة المقلدة من التمثال، لا الأصلية. في اليوم التالي على الفور أحضروا تلك الحقيبة السوداء، وعندما فتحوها ظهر ما بها من روعة، حتى إن المدير شخصيًّا جاء ليراها، خرج من قوقعته الباردة كي يظهر احترامه للمسيح الصغير. بعدها تباحث السيد سليمان مع المجلس الكنسي، لكن المطران رفض مباركة «بامبينو» لأن الـ«بامبينو» الوحيد موجود في مدينة براج. فما بال هذا الـ«البامبينو» الآخر. عرفت كل هذا من زدينياك. كان يتحدث الإسبانية والألمانية. زدينياك نفسه كان غاضبًا، ولأول مرة أراه يخرج عن طبعه الهادئ. في اليوم الثالث جاء السيد سليمان، ووقف في سيارته. بدا من عند المحطة أنه يحمل أخبارًا طيبة، ابتسم، وهز يديه، ثم جلسوا جميعًا. قال السيد سليمان إنه قد توصل إلى حيلة جيدة. السيد المطران يحب الظهور في الصور، لذلك اقترح أن يتم تصوير الطقس بأكمله ونشره كملحق في

جريدة «جاومونتو»، عندها سينتشر هذا الملحق في كل أرجاء العالم، في كل سنيمات العالم. سيظهر المطران ومعه تمثال المسيح الصغير، ومعبد القديس فيتوس. وكما اقترح السيد سليمان عن حق فإن الكنيسة ستنال بهذا العمل شعبية أوسع. عندما حل يوم المباركة المقدسة ظلوا طوال الليل في جلسة مباحثات ممتدة. كلفتني الشرطة أنا وزدينياك أن نحضر تمثال المسيح الصغير الأصلي. سيجلس البوليفيون الثلاثة مع رئيس الشرطة في ثلاث سيارات مرتدين بزاتهم، ويحملون معهم النسخة المقلدة من تمثال «بامبينو دي براجا»، بينما أنا وزدينياك وثلاثة مخبرين متخفين في زيّ تجار سنتبعهم في هدوء. كانت رحلة ممتعة. حملت تمثال المسيح الأصلي في حجري، كما طلب مني رئيس المجموعة البوليفية الكاثوليكية، وانطلقنا من فندق تيخوتا. كان المخبرون رجالًا يتسمون بروح الدعابة. حكوا لنا أنهم عندما فتحوا غرفة المجوهرات والنفائس الملكية للعامة داروا حول المذبح الجانبي وهم متخفّون في ملابس الشماسين، يتظاهرون بأنهم يصلون وهم يحملون بنادق مثل «آل كابوني[8]» في أجربة على صدورهم. وعندما حان وقت الراحة أخذوا يلتقطون صورًا مع تلك النفائس الملكية متخفّين في أزياء الأساقفة. كانوا دائمًا يضحكون. عندما تذكروا تلك الحادثة جعلوني أريهم تمثال «بامبينو دي براجا». واتفقنا على أن نتوقف

8- ألفونس جابريل كابوني (1899 - 1947) عضو في عصابة أمريكية. ورئيس مافيا شيكاغو. (المترجم)

بالسيارة بعد أن نتجاوز السور، ويلتقط لنا زدينياك صورة جماعية مع التمثال، بملابس المخبرين السريين الذين ارتدوا ملابس تجار. حكوا لنا قبل أن نصل ما يحدث أثناء الجنازات الرسمية، حين يكلفون بمنع أي شخص من الوصول إليها طالما ظهرت فيها الحكومة كي لا يضع قنبلة وسط باقات الورود، وأنهم يحملون رمحًا يدسونه مسبقًا في الأوراق الخضراء وباقات الورود الموقوتة، وكيف أنهم يلتقطون لأنفسهم صورًا. عرضوا علينا صورهم وهم رابضون حول أحد النعوش متكئين على ذلك الرمح الذي يفحصون به باقات الورود حول التابوت ليتأكدوا من أنها خالية من أي قنبلة أو عبوة ناسفة. أما اليوم فهم يلعبون دور التجار، يرتدون سترات رسمية، وسوف يجثون ويتقدمون على ركبهم ليحرسوا تمثال «بامبينو دي براجا» من ثلاث جهات كي لا يحدث له مكروه. وهكذا اخترقنا شوارع براج إلى أن بلغنا القلعة حيث انتظرنا هؤلاء البوليفيون. أخذ السيد سليمان الحقيبة الصغيرة، وحملها وهو يمشي في أروقة المعبد. كل شيء يبرق وكأنه حفل زفاف. الأراغن تهدر، رؤوس الأساقفة منكسة، يحمل كل منهم شارته، والسيد سليمان يحمل تمثال يسوع الوليد، والكاميرات تبرق وتلتقط صورًا لكل ما يحدث، ثم حان موعد الطقس. كان في الواقع قداسًا احتفاليًّا. ربض السيد سليمان بكل خنوع، ونحن من خلفه راكعون، ثم اقتربنا من المذبح على مهل. كل شيء مكسو بالورود، ومطلي بالذهب، والكورال ينشد القداس الطقسي، وفي ذروته أضاؤوا تمثال «بامبينو دي براجا» بإشارة

من المصور. وهكذا تحول الجماد إلى معبود يباركه المطران، وانطلقت منه قوة خارقة تمنح الرحمة. انتهى القداس، وانصرف المطران إلى خزانة الكنيسة، يتبعه السيد سليمان برفقه نائب المطران. وعندما عاد دس محفظة يده في معطفه. من المؤكد أنه أهدى شيكًا سخيًّا باسم حكومة بوليفيا لترميم الكنيسة، أو ربما هي ضريبة نظير المباركة. ثم رأيت السيد سفير جمهورية بوليفيا وهو يحمل «بامبينو دي براجا»، ويمر في المعبد على وقع هدير الأرغن، وغناء الكورال. ثم عادت السيارات، ووضعوا فيها «بامبينو دي براجا». لم نعد نحمل معنا شيئًا. جاء الجميع إلى فندق شتاينر برفقة السيد السفير، وكل الحاشية، بينما عدنا وحدنا إلى البيت كي نعد كل ما يلزم لوليمة الوداع المسائية. عاد البوليفيون بعدها في العاشرة، أخذوا في البداية قسطًا من الراحة، شرعوا من بعدها في شرب الشمبانيا، والكونياك، وتناول المحار وسرطان البحر. في تلك الليلة تحديدًا قمنا بأعمال أكثر من أي مرة سابقة. لم ينزل عندنا كل هذا العدد من البشر. رئيس الشرطة الذي عرف كل الحاضرين ترك التمثال المزيف فوق مدفأة الغرفة، وحمل التمثال الأصلي سرًّا إلى بيت الأطفال الصغير، وضع تمثال «بامبينو دي براجا» المبارك بكل بساطة وسط الدمى والعرائس والأحبال والطبول. ثم شرب بعدها الجميع، ودارت الفتيات العاريات يرقصن حول «بامبينو دي براجا» المزيف حتى الصباح. عندما حان الوقت كي ينصرف السيد السفير إلى مقر إقامته، ويتوجه مندوبو بوليفيا إلى المطار

عائدين إلى بيوتهم، أحضر رئيس الشرطة «بامبينو دي براجا» الأصلي، واستبدله بيسوع الوليد المزيف. من حسن الحظ أن السيد سليمان نظر إلى حقيبته الصغيرة حيث وضع رئيس الشرطة الدمية الجميلة بزيّ سلافيّ وسط فوضى المرح. هرول الجميع ناحية بيت الأطفال، وهناك وجدوا «بامبينو دي براجا» بين طبلة وثلاث دمى أخرى. فأخذوا «بامبينو دي براجا» المبارك، ووضعوا مكانه تلك الدمية ذات الرداء السلافيّ، وانصرفوا إلى مدينة براج. علمنا في اليوم الثالث أن مندوبي جمهورية بوليفيا أخّروا موعد إقلاع الطائرة، تركوا التمثال المزيف أمام مدخل المطار من أجل إرباك اللصوص، فوضعته عاملة النظافة وسط نباتات الشمشاد. اكتشف أعضاء الوفد برئاسة السيد سليمان عندما فتحوا الحقيبة وهم في الطائرة آمنين أن ما يحملونه معهم ليس التمثال الأصلي الذي باركه المطران، بل النسخة المقلدة منه، المصنوعة من معدن مطلي بالذهب وليست من الذهب، المشترك الوحيد هو الزي السلافي... هرولوا عائدين ليبحثوا عن التمثال الحقيقي. في تلك اللحظة، وبينما الحمّال يقف بجوار حقيبة صغيرة ويسأل المارة: لمن هذه الحقيبة؟ ولما لم يجبه أحد ترك حقيبة «بومبينوا دي براجا» فوق الرصيف، في تلك اللحظة اندفع نواب بوليفيا، وأخذوا الحقيبة. بعد أن أبطؤوا، والتقطوا أنفاسهم فتحوا الحقيبة فوجدوا أن ما بها هو التمثال الحقيقي. فانطلقوا ناحية الطائرة التي ستحملهم إلى باريس، ومنها إلى وطنهم حاملين «بامبينو دي براجا» الذي درس في

مدينة براج، حسب أسطورتهم، وصارت براج، حسب تلك الأسطورة، أقدم مدينة في العالم... هل اكتفيتم؟ هذا كل ما لدي اليوم.

خدمت ملك إنجلترا

اسمعوا وعُوا ما سأقصه الآن عليكم:

العثرات التي قابلتني في حياتي كانت دائمًا مصدر سعادتي. تركت فندق تيخوتا وأنا أبكي بعد أن ظن المدير أني قد بدلت عن عمد «بامبينو دي برجا» الأصلي بالنسخة المزيفة، وأني خططت للأمر من أجل الفوز بأربعة كيلوجرامات ذهبًا، رغم أني لم أفعل. فجاء إليّ نادل آخر يحمل حقيبتي، فتوجهت بها إلى براج. التقيت في محطة القطار هناك، من حسن حظي، بالسيد فالدين. كان في رحلة عمل برفقه نفس العامل، ذلك الرجل الحزين الذي حمل على ظهره تحت الغطاء نفس الماكينتين، ونفس الميزان، ونفس طاولة تقطيع اللحم الصغيرة... أعطاني مكتوبًا موجهًا لفندق باريس، فودّعته من جديد. مرة أخرى يتعاطف معي، ويربت على كتفي، وهو لا ينفك يقول: تماسك، أيها المسكين! فأنت ما زلت صغيرًا، وسوف تتجاوز هذه المرحلة أيها الشقي، وسوف آتي لرؤيتكَ! قالها بصوت صادح، وأنا ألوح له طويلًا حتى ابتعد

القطار واختفى، بينما أجدني على أعتاب مغامرة أخرى. في الواقع كنت أشعر بالخوف طيلة عملي بفندق تيخوتا. بدأ الأمر عندما رأيت ذلك الخادم العملاق. كانت له قطة تنتظره كلما عاد من ذلك الضجيج المريب. تقف في الفناء تنتظره، وتراقبه وهو يقطع الأخشاب كي يراه ضيوف الفندق. كانت تلك القطة هي كل ما يملكه ذلك الخادم، ولا يخلد إلى النوم من دونها. وذات يوم جاءها قط، فراحت تتسكع معه، ولم تعد إلى البيت. امتقع لون الخادم، وراح يبحث عنها في كل مكان. يدير وجهه في كل مكان بحثًا عن قطته «ميلا». في الواقع كان ذلك الخادم يفضل الحديث مع نفسه، وكلما مررت به أسمع أشياء عجيبة حدثت... عرفت من أحاديثه تلك أنه كان سجينًا، وأنه أصاب بفأسه شرطيًّا رافق زوجته، وربط زوجته بحبل حتى اضطروا لنقلها إلى المستشفى، فحكم عليه بالسجن خمس سنوات مع مجرم من حي شيشكوف. أرسل ذلك المجرم ابنته الصغيرة لشراء بيرة، فأضاعت وهي عائدة ورقة بخمسين كرونًا، فأوسعها ذلك الرجل ضربًا. وضع يدي ابنته فوق زند من الخشب، وفصلهما عن جسدها. كانت تلك أول عجيبة تحدث. السجين الثاني كان رجلًا ضبط زوجته مع أحد المسافرين، فقتل زوجته ببلطة، وقطع فرجها، وأجبر ذلك المسافر أن يأكله تحت التهديد بالقتل. بعدها مات المسافر من الرعب، وأبلغ المجرم القاتل عن نفسه. كانت تلك ثاني عجيبة تحدث. العجيبة الثالثة هو ما حدث معه شخصيًّا. فقد وثق في زوجته ثقة عمياء، لذلك عندما رآها مع ذلك الشرطي فصل كتفه

عن جسده بفأسه، لكن الشرطي أطلق النار عليه فأصابت قدمه، فحُكم عليه بالسجن خمس سنوات، ليصبح المستحيل واقعًا. ذات يوم جاء ذلك القط لرؤية قطة الخادم، فدفع القط على الجدار بلوح من الطوب، وقطّع عموده الفقري ببلطة، أخذت القطة تنوح على قطها، لكن الخادم ضغط ذلك القط بقوة على نافذة صغيرة ذات شِباك، وظل هناك عالقًا مقتولًا لمدة يومين، وكان مصيره كمصير ذلك الشرطي. ثم طرد القطة من البيت، فأخذت تتسلق الحائط، ولم يسمح لها بالعودة إلى البيت، واختفت بعدها. يبدو أن الخادم قتلها هي الأخرى. فقد أصبح بعدها رقيقًا، شديد الحساسية، دائم الاستنفار، ينقض على كل شيء بفأسه، كما فعلها مع زوجته وقطته. تملكته غيرة رهيبة من ذلك الشرطي، ومن القط أيضًا. أعلن في المحكمة أنه ودّ لو اجتز رأسه بالخوذة بدلًا من كتفه، لأنه ضبط ذلك الشرطي مع زوجته في السرير مرتديًا تلك الخوذة، وحزامًا، وبندقية... الأهم أن ذلك الخادم بالغ في القول عندما قال للمدير: أنا من أراد سرقة تمثال المسيح الرضيع القادم من براج، وإني مفعم بفكرة الثراء السريع من الأعمال الإجرامية. ارتعب المدير لأن ما قاله الخادم كان حاسمًا، ولا يدع مجالًا للشك في ما قاله أو يثنيه عن غرضه، لأن الخادم كان بقوة خمسة رجال... بعدها رأيت الخادم جالسًا في البيت الصغير، وتكرر ذلك يوميًّا تقريبًا، يفعل شيئًا، ربما كان يلعب بتلك الدمى والدببة. لم أعرف يومًا ما كان يفعله تحديدًا، ولم أسعَ كي أعرف. أخبرني ذات يوم بعدما رآني مع زدينياك في تلك

الغرفة الصغيرة أنه لا يفضل أن يراني بعد اليوم أدخلها، وأضاف أن المستحيل قد يصبح حقيقة مع زدينياك أيضًا وللمرة الرابعة... وأشار إلى القط الذي بقي لمدة يومين يعاني بعموده الفقري بجوار غرفتي الصغيرة مباشرة. كان كلما مررت به يقول وهو يشير إلى مومياء ذلك القط إن هذه هي نهاية كل من يرتكب إثمًا أمام عينيه، وأشار بإصبعيه تجاههما... وإن لم أرتكب ما يدعوه إلى هذا يكفي أني لعبت بدماه، وهذا سبب كافٍ لا لأن يرديني قتيلًا في الحال، بل يطعنني فأموت على مهل مثل ذلك القط الذي لم يفعل أكثر من أنه رافق قطته... وحدث ما حدث! أدركت وأنا في محطة القطارات أني قد خُبلت من عملي في فندق تخيوتا. صفّر ناظر المحطة، وصعد الركاب، ثم جلسوا في أماكنهم. أطلق الناظر إشارة من صفارته لمفتش القطار، وهرولت من مفتش إلى آخر أقول له: لبيك يا سيدي! وعندما صفّر ناظر المحطة ليخبره المفتشون بأنهم جاهزون، وأنهم قد أغلقوا الأبواب، وما إلى ذلك، هرولت ناحيته، وقلت له بكل أدب: لبيك يا سيدي! حمل القطار السيد فالدين، بينما مشيت أنا أتجاوز تقاطعات طرق المدينة. حدث مرتين أن صفر عسكري المرور بحدة عند أحد التقاطعات، ما جعلني أهرع نحوه وأضع الحقيبة تحت قدميه، وأقول له: لبيك يا سيدي! وعلى هذا النحو واصلت طريقي في شوارع المدينة إلى أن بلغت فندق باريس.

كان فندقًا جميلًا كدت أسقط أمامه لفخامته. كثير من المرايا، والدرابزينات النحاسية، كثير من المقابض النحاسية،

والشمعدانات النحاسية اللامعة إلى درجة جعلته يشبه قصرًا من الذهب. سجاجيد حمراء في كل مكان، أبواب زجاجية وكأنه قصر. استقبلني السيد براندايس على الفور بحرارة، وارفقني إلى غرفة صغيرة. كانت غرفة إضافية فوق سقف الفندق، بإطلالة جميلة على مدينة براج جعلتني أقرر أن أسعى جاهدًا بسبب هذه الإطلالة وهذه الغرفة أن أبقى في هذا الفندق إلى الأبد. عندما فتحت حقيبة سفري كي أعلق البذلة، وأرص الملابس فتحت الخزانة فرأيتها مليئة بالملابس. فتحت خزانة ثانية فوجدتها مليئة بمظلات المطر، وخزانة ثالثة ممتلئة بالمعاطف، وفي الخلف مئات رابطات العنق معلقة فوق أحبال ومثبتة بمشابك كبيرة... سحبت شماعات وعلقت عليها ملابسي، ثم ألقيت نظرة على مدينة براج، على الأسطح. رأيت القلعة تتلألأ، سالت دموعي ما إن رأيت قلعة ملوك التشيك، ونسيت تمامًا فندق تيخوتا. غمرتني السعادة من ظنهم أني خططت لسرقة تمثال يسوع، فلولا ظن مديري بي لبقيت حتى الآن أحفر الطرقات، وأسوي أكوام القش، وأشتعل خوفًا لا ينقطع من صوت الصفارة. تخيلت أن الخادم لديه هو الآخر صفارة مثلها. من المؤكد أنه كان بمثابة عيني المدير وقدميه. يتابعنا، ومن بعدها يصفر مثل المدير. نزلت في الظهيرة، وقت مناوبة السقاة، ووقت الغداء. رأيتهم يتناولون النيوكي، كرات البطاطس المسلوقة. رأيت المدير هو الآخر يتناولها، ويأكلها في المطبخ، وكذلك فعل مسؤول الخزينة. باستثناء رئيس الطهاة ومساعديه كانوا يأكلون البطاطس مطهوة بقشرها،

وقدموا لي أيضًا كرات البطاطس مع خبز. أجلسني المدير بجواره. أكل ما آكل، لكن بحرص، وكأنه فقط يفعلها على سبيل الدعاية ليقول لنا: طالما آكله، أنا المدير، فيجب أن تأكلوه أنتم أيضًا، أيها الموظفون... ثم سرعان ما مسح فمه بمنديل سُفرة صغيرة، وأخذني إلى مكان عملي. قمت لأول مرة بتقديم كؤوس البيرة للزبائن، آخُذ من عند البار كؤوسًا ممتلئة، وأرصها كلها فوق صينية. وكعادة المكان أعطي مقابل كل كأس بيرة زرًّا أحمر، ثم يشير رئيس السقاة الأشيب مثل عازف موسيقى بذقنه إلى من طلب البيرة، يتبعها بإشارة من عينيه. لم أفشل في فهم مقصده يومًا. دائمًا ما توجهت بدقة إلى حيث تشير عينا ذلك النادل الجميل. أضع البيرة، وبعد ساعة أرى ذلك النادل الكبير العجوز يثني عليّ بعينيه، يعبر عن ذلك صراحة إلى درجة تدفعني إلى تقبيله. كان رئيس السقاة هذا شخصية فريدة، ممثل سينمائي ناجح، أنيق. لم أرَ يومًا رجلًا ببزة تليق به كما تليق بذلك المدير. تليق أيضًا بتلك المرايا الموجودة في المكان. كانت المصابيح مشتعلة حتى في وقت العصاري على هيئة شمعدانات أسفل كل مصباح. دمى زجاجية صغيرة مصقولة في كل مكان. لذلك رأيت نفسي في المرايا وأنا أحمل كؤوس البيرة الفاتحة، ماركة بلزن. رأيت نفسي على نحو مختلف، حتى إني كدت أبدل رأيي عن نفسي بأني قبيح، وضئيل. بدت الحلة لائقة بي. كلما وقفت بجوار مدير المطعم الذي صفف شعرة الأبيض المجعد وكأنه قادم من عند الكوافير، أرى أني لا أتمنى أكثر من أن أبقى

أعمل في هذا المطعم مع هذا المدير الذي تشع منه السكينة. خبير بكل شيء، يهتم بأدق التفاصيل، يتابع الطلبيات، دائم الابتسامة وكأنه في حفل راقص. كان أيضًا يعرف من لم يطلب طعامًا، وفي أي طاولة فيتدخل لتلبية طلبه، عرف كذلك كل من أراد أن يدفع الحساب. لم يضطر أحد على الإطلاق إلى رفع يده، أو الفرقعة بأصابعه، أو التلويح بقائمة الطعام. كان مدير صالة الطعام يتابع الصالة بطريقة لافتة، وكأنه يتفحص حشدًا كبيرًا، أو ينظر إلى المدينة من برج مراقبة، أو يتابع البحر من على متن باخرة، وكأنه في الوقت نفسه لا يتابع شيئًا. فكل حركة يقوم بها الضيف أو الضيوف تخبره على الفور بما يريده أو يفكر فيه. لاحظت منذ البداية أنه لا يحب نادلًا بعينه في الصالة. دائمًا ما يوبخه بعينيه على أنه قد أخطأ الطاولة، فيقدم طبق لحم الخنزير للجالسين عند الطاولة الحادية عشرة بدلًا من الطاولة السادسة. لاحظت بعد أسبوع على عملي في تقديم البيرة في ذلك الفندق الرائع أن ذلك النادل دائمًا ما يتوقف عند باب الصالة وهو يحمل الطعام من المطبخ فوق صينية، وعندما يتأكد من أن أحدًا لا ينتقل من مستوى نظره إلى مستوى صدره، ينظر بشهية إلى الطعام، ودائمًا ما أخذ قطعة من هذا وذاك. لُقيمة صغيرة وكأنه قد لوث فقط إصبعه بالطعام، لعقة واحدة. رأيت أيضًا أن ذلك المدير الجميل قد انتبه هو الآخر للأمر، لكنه لم يُعلّق. اكتفى بالنظر إليه، وهز يده لذلك النادل، فرفع الصينية فوق كتفه، ورفس الباب المتحرك ليفتحه، ثم دخل إلى صالة الطعام. كانت

تلك طريقته، الهرولة وكأن الطبق يجره إلى الأمام، يسرع الخطى، والحقيقة أن أحدًا لم يجرؤ على حمل كل هذا العدد الكبير من الأطباق في يد واحدة مثل ذلك النادل. كان اسمه كارل. يحمل اثنى عشر طبقًا على صينية واحدة، يفرد ذراعه، ويرص ثمانية أطباق فوقه وكأنه طاولة ممتدة ضيقة، ويحمل طبقين آخرين بين أصابعه المفرودة مثل مروحة، وفي اليد الثانية طبقين. كان ذلك بمثابة عرض بهلواني. يبدو أن مدير الفندق أحبه، واعتبر حمل الأطباق على هذا النحو سمة من سمات الفندق. بقينا نأكل كرات الخبز تلك، نحن العاملين، في كل يوم تقريبًا، تارة بتوابل الخشاخش، وتارة أخرى مع الصوص، أو مع خبز محمر. أحيانًا مغلفة بالزبد والسكر، وأحيانًا أخرى بعصير التوت، أو بالبقدونس والدهن. في كل مرة يشاركنا المدير تناول تلك الكرات في المطبخ، ودائمًا ما يأكل قليلًا مدعيًا أنه يتبع حمية غذائية. ثم في الساعة الثانية يحمل له النادل طبقًا كل ما عليه من الفضة، دائمًا ما عرفت حسب الغطاء إن كانت إوزة أو دجاجة، أو بطة، أو طيورًا مختلفة، حسب الموسم وما يقدم فيه. دائمًا ما حمل الطعام إلى مكان منفصل، وكأن من يتناوله أحد أعضاء بورصة المحاصيل أو سماسرتها الذين دائمًا ما جاؤوا إلينا في فندق باريس من صالات البورصة مباشرة. دائمًا ما دخل مديرنا خلسة إلى تلك الغرفة المنفصلة. كلما خرج منها بدا راضيًا منتعشًا، بخلة أسنان في رُكن فمه. يبدو أن ذلك النادل كارل كان بينه وبين المدير أمر ما. فكلما انتهى وقت المداومة في البورصة،

وكان ذلك عادة يوم الخميس، يأتي إلينا موظفو البورصة، يشربون الشمبانيا والكونياك احتفالًا بصفقات عقدوها، وأطباق من الطعام على كل مائدة. دائمًا ما قدمنا طبقًا واحدًا مليئًا بالطعام على طاولة، وكأنها وليمة... حدث ذلك أثناء النهار، ومنذ الحادية عشرة صباحًا، تجمعت في الفندق فتيات حسناوات متبرجات، كتلك اللواتي عرفتهن في رايسكا عندما كنت أعمل في فندق براج الذهبية. يدخنّ ويشربن خمر فيرموت الثقيل وهن في انتظار رجال البورصة. تتفرق الفتيات فور وصولهم، وتتخذ كل واحدة منهن طاولتها في أركان منعزلة محجوزة سلفًا. كلما مررت بالقرب منهم أسمع ضحكات ورنين كؤوس من خلف ستائر منسدلة. يستمر الأمر لبضع ساعات، إلى أن يتفرق رجال البورصة في المساء بوجوه مبتهجة، ثم تخرج الحسناوات ويتوجهن إلى الحمامات للتصفيف وإصلاح زينتهن، ولون شفاههن الذي طمسته القبلات. يوثقن أربطة بلوزاتهن وهن يرمين نظراتهن إلى الخلف إلى حد التعثر والسقوط كي يتأكدن من أن الجوارب المشدودة في مكانها، وأن الخط الممدود الواصل إلى الحذاء ينتهي في منتصف كعوبهن مباشرة. كان ممنوعًا أن أدخل أو يدخل غيري إلى تلك الأجنحة المنعزلة بعد انصراف رجال البورصة. لكن عرف الجميع بما يحدث هناك. رأيت كارل أكثر من مرة من وراء ستارة مفتوحة هو يرفع جميع الأغطية، كان ذلك عمله، أن يجمع العملات الورقية والنقدية المتناثرة هنا وهناك، وأحيانًا الخواتم، وسلاسل سقطت من ساعات اليد. كانت

تلك الأموال تؤول إليه، وكل ما سقط من جيوب معاطف وسروايل الفتيات أو رجال البورصة أثناء خلع ملابسهم أو ارتدائها، أو ما انتزع من سلاسل صدرياتهم، أو سقط بأي حال آخر. حدث ذات يوم في الظهيرة أن رص كارل أطباقه الاثني عشر المتخمة بالطعام فوق صينية، وكعادته وقف وراء الباب يأخذ قطعة صغيرة من لحم بقري، وأطراف مطهوة، مع قطعة صغيرة من الكرنب، وندفة من حشو اللحم بدلًا من الحلوى، ثم رفع الصينية وكأنها امتداد له، وانطلق إلى داخل المطعم بابتسامة على وجهه، فاستوقفه ضيف المطعم الذي يستنشق التبغ لأنه يعاني من التهاب في أنفه. رجل ريفيّ، مد أنفه وجسده وكأن الرائحة تجذبه من شعره إلى أن انتصب بحدة. ثم عطس، واستند إلى حافة الصينية، فسقط كارل على ركبتيه ليلتقط الصينية المحملة بالأطباق وكأنها سجادة طائرة. هكذا أيضًا كان كارل يحمل الطعام في المطعم. اشتدت سرعة الصينية قبل أن يلحقها كارل بقدميه اللتين انزلقتا وابتعد الطبق عن كفه المفتوحة إلى أعلى، وعبثًا حاول بأصابعه أن يلتقط الصينية. رأينا جميعًا ما حدث، كل من يعمل في المكان، وحتى المدير الذي استقبل يومها زيارة من اتحاد أصحاب الفنادق، والسيد شروباك الجالس عند الطاولة يتابع ما يحدث، وكما توقعنا... قفز كارل قفزة قوية، وأمسك بالصينية، إلا أن طبقين انزلقا من فوقها، أول ما سقط منهما لحم طائر الزرزور المشوي، ثم الصوص، ثم الطبق، نفس الأمر حدث مع الطبق الآخر مع فارق قدره ثانية واحدة؛ اللحم، ثم الصوص،

ثم اللحم، ثم الخبز. تساقط الطعام على رأس أحد الضيوف، حيث جلس كعادته يطالع قائمة الطعام، ثم رفع رأسه كي يطلب ما اختاره منها، وظل طويلًا يستفسر عن اللحم الذي اختاره، ويطلب أن يكون جيد الطهي، وألا يكون الحساء ساخنًا كثيرًا، وأن يكون الخبز طازجًا. وهنا انهال الطعام وسقط فوق ظهر الضيف. سقط الخبز في حجره ما إن هم وافقًا ومن فوقه صوص الطعام، ثم على المفرش، وعلقت شريحة خبز فوق رأسه مثل قبعة، مثل الكيباه التي يعتمرها الحاخامات، أو القساوسة... ولما رأى كارل الذي استطاع إنقاذ باقي الأطباق ما حدث، ورأى السيد شروباك، صاحب فندق شروباك، رفع الصينية إلى أعلى، فوق رأسه، واستدار، فسقطت كل الأطباق العشرة على السجادة، وأشار وكأنه في مسرح أو في عرض بانتومايم إلى الطبقين اللذين أزعجاه. فك أربطة مئزره، ورماه، ثم انصرف ثائرًا ليرتدي ملابسه الشخصية، وجلس يحتسي الخمر. لم أفهم ما حدث، لكن كل من يعمل في الفندق علق على ما حدث بأنه لا فرق بين أن يسقط طبقان أو عشرة أطباق. فسُمعة النادل في الفندق لا تتجزأ. تلك كانت واحدة من آداب خدمة الموائد. لم ينتهِ الأمر عند هذا الحد. عاد السيد كارل، وجلس في المطبخ بعينين غاضبتين. عيناه على صالة الطعام، وفجأة انتفض يريد أن يسقط خزانة كبيرة بها كل كؤوس المطعم، فاندفع مسؤول الخزينة والطباخون يعيدون الخزانة إلى مكانها بعد أن سقطت منها الكؤوس وجلجلت، وتهشمت فوق الأرض. لكن فورة السيد كارل كانت

هائلة بسبب الطبقين إلى درجة أنه حاول إسقاط الخزانة على الأرض من جديد، لكن الطباخين أعادوها إلى مكانها لثلاث مرات وقد علت الحمرة وجوههم. اندفع السيد كارل بعد أن التقط الجميع أنفاسهم، وأمسك بمدفأة طويلة، وأطاح بها حتى نزعها من الأنبوب، وسرعان ما امتلأ المطبخ بالدخان والسخام. سعل كل من في المكان، وبصعوبة أعادوا توصيل الأنبوب، وسقط كل الطهاة فوق المقاعد ملوثين يبحثون عن السيد كارل! كان قد انصرف، فتنفسنا جميعًا الصعداء. فجأة علا صوت جلبة. رأينا السيد كارل يدق بقدميه في سقف زجاجي حول مصباح معلق فوق الموقد، ثم تدلى إلى المطبخ. دس إحدى قدميه في حساء كرشة مخصص للوجبات الخفيفة، فبلل سرواله، بينما قدمه الأخرى في وعاء كباب الحلة ومعه صوص المهور بالفطر... وهكذا أخذ يخوض فيهما بينما الطباخون يتعثرون، والكسرات تتعثر في كل مكان. انصرفوا لاستدعاء الحارس، مصارع سابق، من أجل أن يستخدم قوته، ويبعد السيد كارل الذي يحمل على ما يبدو ضغينة ما لفندق باريس. تقدم الحارس، وفرد ساقيه وكأنه يحمل فيهما لفافة خيوط صوفية لغزلها، وقال: أرني نفسكَ أيها الغبي؟ لكن السيد كارل لطمه بقوة، فسقط، وكان لا بدَّ من استدعاء الشرطة. عندها صار السيد كارل هادئًا. لكنه طرح اثنين من رجال الشرطة أرضًا وهما في الدهليز، ورفس خوذتيهما فوق رأسيهما، فجروه إلى جناح منفصل، وهناك أوسعوه ضربًا. اهتزت أكتاف ضيوف المطعم مع كل صرخة يسمعونها. في

نهاية المطاف اقتادوا السيد كارل بجسد مفعم بالكدمات. قال لعاملة الملابس: هذان الطبقان يساويان الكثير... جاءت أخبار بأنه استرد هدوءه، لكنه فجأة هشم حوض وجه من البورسلين، وخلع أنابيب من الحائط. تبلل كل شيء بالماء قبل أن يسدوا فتحات أنابيب المياه.

وهكذا صرت نادلًا في صالة الطعام تحت قيادة السيد سكرشيفانك، كبير السعاة. كنا اثنين في صالة الطعام، لكني الوحيد القادر على أن يقف متكئًا على طاولة في كوة بالمطعم عندما تهدأ الأمور بعد الظهيرة. أخبرني كبير السعاة أني سأكون مديرًا ناجحًا لصالة الطعام. لكن عليّ أن أنمي قدرتي في تذكر الزبون فور دخوله إلى المطعم، وأن أعرف متى سينصرف، ليس وقت الظهيرة حيث الغذاء، لكن بعد الظهيرة عندما تتحول الصالة إلى مقهى، وأن عليّ أن أعرف: من يريد مجرد تناول الطعام ثم ينصرف خلسة دون أن يسدد الحساب، ويجب أن أتعلم التخمين بما يحمله الضيف من أموال، وما سينفقه أو يجب أن ينفقه. تلك هي سمات المدير الناجح. هكذا شرح لي المدير، كلما سمحت الظروف، طبيعة الضيف الذي يأتي، والذي ينصرف. دربني على مدى أسابيع بحيث استطعت تخمين نوع الزبون بنفسي. كنت أتوق إلى أوقات العصاري وكأنني في رحلة استكشافية مفعمة بالإثارة مثل صيادين يترقبون ضحيتهم، بينما مدير الصالة يومئ لي بعينين مواربتين وهو يدخن، أو يهز رأسه، ويصحح لي توقعاتي، فيذهب بنفسه ليثبت لي صحة توقعاته. ودائمًا ما كانت

صحيحة. بالفعل. عرفت منه لأول مرة بعدما سألته: كيف عرفت كل هذا؟ أجابني بقامة منتصبة: لأني خدمت ملك إنجلترا. لطمت يدي وقلت: ملك إنجلترا؟ خدمت الملك؟ ملك إنجلترا؟ فهز رأسه بثقة. وهكذا دخلت إلى مرحلة ثانية ملأتني بالحماس. كان الأمر كلعبة يانصيب تنتظر أن ترى رقم حظكَ وكأنها يانصيب موسم الكرنفالات أو احتفال شعبي. جاءنا بعد الظهيرة ضيف، فانحنى له السيد مدير الصالة، ثم دخلنا إلى جناح معزول، فقلت له: إنه إيطالي. هز المدير رأسه، وقال: بل يوغوسلافي من مدينة سبليت أو دوبروفنيك... تبادلنا النظرات للحظات، ثم أومأ أحدنا للآخر. وضعت عشرين كرونًا في طبق في تلك الكوة، وكذلك فعل المدير. ثم انصرفنا نسأل الضيف عما يريده. أخذت منه الطلب، وعندما عدت وجدت السيد المدير وقد قرأ تعبيرات وجهي، يطوي ورقتي العشرين كرونًا، ويدسها في حقيبته الضخمة التي بفضلها صنع جيبًا في سرواله مطرزًا بنفس نوع الجلد الذي صنعت منه الحقيبة. تعجبت وسألته: كيف عرفت هذا، يا سيدي المدير؟ فأجاب بتواضع: خدمت ملك إنجلترا. واصلنا الرهان ودائمًا ما خسرته. لكنه علمني أنه طالما أردت أن أكون مدير صالة ناجحًا عليّ أن أتعرف ليس فقط على الجنسيات، بل أيضًا على ما سيطلبه الزبون. كلما جاء ضيف إلى المطعم تبادلنا النظرات، ودخلنا إلى الكوة. هناك يضع كل منا عشرين كرونًا على طاولة صغيرة لجمع الأطباق والأكواب. أقول إن الضيف سيطلب حساء اللحم، أو حساء الكرشة المخصوص، فيرد المدير بأن الضيف سيطلب شايًا،

وخبزًا محمصًا دون ثوم. بعدها أنصرف لأخذ الطلب. أحييّه: طاب يومك، ثم أسأله عن طلبه؟ وبالفعل يطلب شايًا وخبزًا محمصًا. فأعود من عنده ليأخذ السيد المدير ورقتي العشرين كرونًا، ويقول لي: عليكَ أن تعرف فورًا مرضى المرارة. انظر إلى الضيف. إن كبده في حالة مزرية... مرة أخرى خمنت أن الضيف سيطلب شايًا وخبزًا بالزبد، فيؤكد السيد المدير أنه سيطلب شرائح لحم مدخن مع الخيار وكأس بيرة بلزن، فأذهب لأخذ الطلب، وأستدير فيراني السيد المدير متوجهًا نحوه. ينظر إليّ، ويرفع غطاء ركن المناولة، وينادي في المطبخ... قطعة خيار إضافية! كنت سعيدًا من طريقة التدريب تلك رغم كل الأموال التي خسرتها. فقد واصلنا الرهان قدر الإمكان، ودائمًا ما خسرت. لكني لم أتوقف عن توجيه السؤال ذاته: كيف تعرف، يا سيدي المدير، كل هذه الأمور؟ فيضع ورقتي العشرين كرونًا في حقيبته، ويقول: لأني خدمت ملك إنجلترا. وهكذا تعرفت على كارل، رئيس الطهاة ومن قبله زدينياك الذي كان يوقظ أهل القرية أثناء الليل، ويبدد كل ما لديه من نقود وكأنه أرستقراطي مُفْلس. تذكرت كذلك رئيس الطهاة في فندق براج الذهبية. تذكرت فجأة أول مدير لي. كان اسمه ماليك، وكان يدخر الأموال بصورة غير طبيعية، ولم يعرف أحد أين يضعها، لكن عرفوا أنه يحتفظ بها، وأنها ليست بالقليلة. من المؤكد أنه يدخرها لشراء فندق صغير. بعد أن يترك وظيفته تلك سيشتري أو يستأجر فندقًا صغيرًا في منطقة تشسكي رَاي. لكن كان الأمر على غير ذلك. أخبرني يومًا بعد أن ثملنا في إحدى

حفلات الزفاف، وكان مزاجه لينًا، وقال إن زوجته أرسلته قبل ثمانية عشر عامًا كي يبلغ صديقتها رسالة، فدق الجرس. فتحت الباب امرأة جميلة، تورد وجهها ووجهه، فبقي كلامهما عند الباب في حالة من الانبهار وهي ممسكة بأدوات التطريز، فدخل في صمت، واحتضنها، فواصلت الحياكة. استلقى على الأريكة وهي تواصل الحياكة. احتضنها كأي رجل. هذا ما قاله، أحبها منذ ذلك اليوم، وراح يدخر النقود حتى أصبح لديه على مدى ثمانية عشر عامًا مئة ألف كرون كي يؤمن لها ما تحتاجه، ويؤسس معها أسرة، زوجة وأطفالًا. في العام القادم سيوفر لهم منزلًا صغيرًا، ثم ينصرف بعد أن شاب شعر رأسه مع الحسناء الشيباء ليحقق مبتغاه... حكى لي كل هذا، ثم فتح مكتبه، وكان به درج عميق رص فيه عملات ورقية فئة المئة كرون، وكل ما سيدفعه مقابل تحقيق حلمه... نظرت إليه وإلى حذائه، ولم أتوقع أن أرى ما رأيته. سرواله مفتوق، ومن تحته لباس تحتاني قديم طويل يصل كاحله، معقود برباط أبيض في طرف سرواله. لباس يشبه لباس أتذكره من طفولتي عندما كنت عند جدتي عند طاحونة المدينة، والتجار الرُّحّل يرمون الملابس من حمامات مصحات كارلوفي فاري... أتذكر واحدًا مثله تمامًا كان مفرودًا وظل عالقًا للحظات في الهواء... كان كل واحد من هؤلاء المديرين مختلفًا عن الآخر، لكني تذكرت مالِك، مدير المطعم في فندق براج الذهبية، تخيلته واقفًا بجوار مدير مطعم فندق باريس. رأيته قديسًا، مثل ذلك الرسام الشاعر يودل الذي كان يبيع مجموعة حياة المسيح،

ويخلع معطفه أو سترته ويلبسها، متربًا، وفمه مغطى بسائل أصفر من شرب النيوراستانين... إلام ستنتهي بي الحال؟

وهكذا توليت خدمة رجال البورصة كل خميس بعدما اختفى كارل. وشأن كل الأغنياء كان رجال البورصة مرحين، سعداء مثل صغار الكلاب. ينفقون ببذخ كلما عقدوا صفقة ناجحة، يوزعون الأوراق النقدية مثل جزارين فازوا في الفيربل[9]. غير أن هؤلاء الجزارين الذي قامروا في الفيربل كانوا يعودون إلى بيوتهم بعد ثلاثة أيام وقد فقدوا عرباتهم وأحصنتهم، ومواشيهم التي اشتروها بعد أن خسروا كل شيء في مراهنات الفيربل، وعادوا لا يحملون إلا سوطًا في أيديهم. رجال البورصة أيضًا كانوا أحيانًا يخسرون كل ما يملكون. يجلسون في الجناح المنفصل، وينظرون إلى العالم مثل إرميا وهو يشاهد القدس تحترق. في آخر مرة بددوا فيها الأموال وسددها عنهم من فاز في البورصة في ضربة حظ. صرت مع الوقت مصدر ثقة الفتيات اللواتي ينتظرن في المطعم حتى تغلق البورصة أبوابها، ثم يهبطن متبرجات إلى الجناح المنفصل. كانت مصابيح فندق باريس مضاءة منذ الصباح، لا فرق إن كانت الساعة الحادية عشرة صباحًا أم مساء، نهارًا أم عتمة. الفندق بأكمله مشتعل مثل نجفة نسوا أن يطفئوها. الجناح المنفصل كان من أكثر الأماكن التي أحببتها، أطلق عليه الفتيات كابينة المراقبة، سرادق الرصد،

9- فيربل (Ferbl) لعبة من ألعاب المقامرة تشبه البوكر. (المترجم)

القسم الداخلي. بينما رجال البورصة يسعون إلى إسكار الفتيات بأقصر الطرق، ثم ينزعون عنهن البلوزات والتنورات شيئًا فشيئًا، إلى أن يسقطوا معهن على الأرائك والمقاعد كما ولدتهم أمهاتهم، وتنتهي الحال برجال البورصة مرهقين يتساقطون من شدة الإعياء وكأن أزمة قلبية ألمت بهم بعد ممارسة الحب. رغم أوضاع المضاجعة غير المعتادة في القسم الداخلي أو في ما يطلقون عليه سرادق الرصد فدائمًا ما ساد المرح. كانت الفتيات اللواتي يصيبهن الدور في إسعاد الضيوف دائمًا ما قدرن هذا الدور حق قدره، لأنهن، كما رأيت، جنين منه أموالًا وفيرة، بينما رجال البورصة يضحكون ويمرحون. اعتبروا تعري الفتيات لعبة جماعية في تبديد الأموال. يجردون الفتيات من ملابسهن فوق الطاولة مباشرة وهم يحتسون الشراب أو يشتمونه في كؤوس من الكريستال. ترقد الفتاة من تلقاء نفسها فوق الطاولة، ويلتف رجال البورصة من حول جسدها وهم يحملون الكؤوس، وأطباق الكافيار، والسلاطة، وشطائر اللحم المدخن، يلبسون النظارات ليتفحصوا كل ثنية من ثنايا جسد الحسناء، ويطلبون منها أن تجلس، أو تقف، وكأنهم في عرض أزياء، أو في مرسم أكاديمي، أو أن تجثو، أو تنزل ساقيها من على الطاولة وتأرجحهما بقدمين حافيتين وكأنها تغتسل في نبع ماء. لم يتشاجر هؤلاء الرجال يومًا حول ما يواجه أحدهم من أعضائها، أو يراه منها دون غيره. تقبل كل واحد منهم الأمر بحماس يشبه حماس رسام مناظر طبيعية، أو فنان ينقل إلى لوحته ما يروق له من الطبيعة. هؤلاء

العجائز كانوا يشاهدونهن من وراء نظاراتهم عن قرب بحماس بالغ، يتفحصون سواعدهن المثنية، وخصلات شعورهن السائبة المتدلية إلى الخلف، أو أسطح أقدامهن، أو ركبهن، وصولًا إلى بطونهن. أحدهم يباعد في حذر بين فلقتي مؤخرة إحداهن، وينظر إليها بانبهار الأطفال، وآخر يصرح حماسًا، وهو يتطلع إلى السقف وكأنه يحمد ربه على ما يراه بين فخدي الفتاة. يلمس بأصابعه، أو يلثم بفمه ما طاب له... تلألأت الأضواء في الشامبر سيباريه ليس فقط من دفقة الضوء الحاد المنبعث من نجفة ورقية في السقف، بل ومن بريق الكؤوس المتحركة، ووميض زجاج أربع نظارات تتحرك مثل سمكات صغيرة في حوض أسماك غائم يغمره الضوء. وبعد أن يشبع رجال البورصة أنظارهم يتوقف العرض، ويصبون للفتاة كأس شمبانيا، وتجلس فوق الطاولة، يقرعون معها الكؤوس، يخاطبونها باسمها، تأخذ ما يطيب لها من طعام فوق الطاولة. ويمزح الرجال بكل أدب، بينما تعلو ضحكات المرح في الكبائن المنفصلة الأخرى. أحيانًا يسود الصمت في الجناح، وكثيرًا ما ظننت أن عليّ أن أتدخل، ظنًّا مني أن هناك جثة ما، أو أن أحد رجال البورصة يحتضر... ثم يُلبس العجائز الفتاة ملابسها، وكأنه فيلم سينمائي يتحرك إلى الوراء. فكما جردوها من ملابسها يلبسونها إياها، دونما إهمال أو تجاهل يحدث عادة بعد المضاجعة. بنفس القدر من الكياسة التي بدؤوا بها اللقاء... بعد دفع الحساب، ودائمًا ما تولى الدفع واحد منهم فقط، يعطون مدير المطعم بقشيشًا، وكان نصيبي

دائمًا مئة كرون، ثم ينصرفون وهم يسحبون ذيل السعادة، مفعمين بسَكينة وبصور جميلة تكفيهم لأسبوع كامل. يوم الإثنين يعاودهم الشوق إلى الخميس التالي، عندما يستعرضون فتاة أخرى. فهؤلاء الضيوف لم يعاودوا يومًا استعراض نفس الفتاة. في كل مرة يختارون واحدة جديدة، ربما لكي تذيع شهرتهم في عالم غانيات براج السري. دائمًا من بقيت تلك الفتاة التي استعرضوها في الجناح المنفصل تنتظر... أعرف أنها تنظر إليّ وأنا أنظف الطاولة، وأحمل آخر أدوات الطعام. انتبهت إلى هذا الأمر منذ البداية، وكانت تلك هي العادة، ترمقني برغبة شديدة وكأنني ممثل سينمائي، هائجة بعد الاستعراض، مخدرة لا تقدر على الرحيل. حدث ذلك لأول مرة، ثم من بعدها كل خميس، أن أكمل ما بدأه العجائز. دائمًا ما انقضّت عليّ تلك الفتيات بشهوة جامحة. خضعن لي بكل إذعان وكأنها أول مرة يضاجعن فيها رجلًا... شعرت لبضع دقائق أني وسيم، فارع الطول ذو شعر أجعد. لم يكن انطباعًا بل شعورًا، يقينًا من أنّي مَليك تلك الجميلات... لكن السبب في هذا يعود إلى عروض أجسادهن واستثارتها بالأعين والأيادي والألسنة، لذلك لم تقدر الفتيات على الانصراف. شعرت بهن وقد بلغن هزة النشوة مرة أو مرتين، ومن بعدها يزدهرن، وعاد إليهن بريق أعينهن، وتختفي الغشاوة التي غطتها، وتتبدد السحب التي تجمعت فيها، فينظرن على نحو طبيعي. عندها يروننني نادلًا صغيرًا، شخصًا فعل -باسم رجل آخر وسيم وقوي وبأمر منهن- ما كنت أفعله كل

خميس بمزيد من الرغبة والاعتياد. تلك كانت فضيلة النادل المختار الذي سبقني، كارل. كان موهوبًا في هذا، وقادرًا عليه، ويحبه. وأنا أيضًا... لكن يبدو أني كنت جيدًا على نحو مختلف، لأن كل الفتيات بلا استثناء كن يبادرن بتحيتي كلما التقيتهن في الفندق أو الشارع، ينحنين لي من بعيد. يلوحن بمنديل أو بحقيبة يد من بعيد كلما رأينني. وعندما لا يجدن ما يلوحن به يصافحنني بحرارة وحميمية. أنا أيضًا كنت أنحني لهن، أو أرفع لهن قبعتي، وأمد ذراعي بكل تواضع، ثم أرفع قامتي، وذقني كي أشعر بأني أطول فوق كعب مزدوج ولو بضعة سنتيمترات... وهكذا أعطيت لنفسي أكثر مما تستحق. في أوقات الفراغ أرتدي بزتي، بعد أن عشقت رابطات العنق، فهي التي تجعل الملابس ملابس، والملابس هي التي تصنع الإنسان. اشتريت كثيرًا من رابطات العنق التي يلبسها ضيوف فندقنا. لم أكتفِ بهذا، فتحت الخزانة التي بها متعلقات زبائن نسوها عندنا في الفندق. رأيت هناك رابطات عنق لم أرَ مثلها في حياتي في أي مكان. رابطات عنق عليها لافتات معلقة في خيط رفيع. إحداها تخص ألفريد كارنيول، تاجر كبير من دمشق، وأخرى لـ سلامون بيهوياتي، مدير عام من مدينة لوس أنجلوس، وثالثة لـ جوناثان شابلينر، صاحب مصانع نسيج من مدينة لفيف، ورابعة وخامسة. عشرات رابطات العنق. تمنيت أن تكون لي واحدة من تلك الرابطات، ألفها حول عنقي. تملكتني الفكرة. وقع اختياري على ثلاث منها. واحدة زرقاء وكأنها من معدن، وأخرى حمراء داكنة مصنوعة من نفس قماش الرابطة

الزرقاء، تلمعان مثل أجنحة خنافس نادرة، أو فراشات. يا إلهي! سترة صيفية صغيرة مفتوحة، ويدي في جيب سروالي، ورابطة عنق كلسان يتدلى من الرقبة حتى الخصر. جودة وبهاء. انحبست أنفاسي عندما ارتديتها على سبيل التجربة وربطتها حول رقبتي أمام المرآة... رأيت تلك الرابطات، وتخيلت نفسي أمشي في ميدان فاتسلاف، وناروودني ترشيدا، وفجأة ذُهلت! رأيت نفسي ألتقي بنفسي هناك، رأيت المشاة الآخرين، الأنيقين منهم وهم فيّ يتشاحنون مصعوقين من جمال رابطات عنقي التي لم يروا مثلها من قبل، في أي زمان أو مكان، ولم يروها على أحد. لكنني واصلت السير دونما اكتراث بمعطفي المفتوح، كي يرى الخبراء جميعًا رابطة عنقي. وقفت أمام مرآة في عليّة فندق باريس، أخلع تلك الرابطة اللامعة الحمراء كلون النبيذ، ثم أخذت واحدة أخرى لم أنتبه إليها من قبل، تلك كانت الرابطة التي أبحث عنها! رابطة بيضاء وكأنها مصنوعة من نسيج خشن نفيس، عليها نقاط زرقاء مبعثرة، فاتحة الزرقة مثل زهور أذن الفأر. نقاط محبوكة في الرابطة، رغم ذلك بدت وكأنها أُلصقت عليها، تلمع وتبرق، عليها لافته معلقة في خيط، فصلتها بالخيط عن الرابطة، وجدت عليها لافتة تقول إن رابطة العنق هذه قد نسيها الأمير هوهن لوها. وضعتها حول عنقي، ثم نظرت إلى نفسي في المرآة، فوجدتني بها جميلًا إلى درجة أني شعرت ببعض من رائحة الأمير هون لوها تفوح منها ومني. وضعت بعضًا من البودرة على أنفي،

وعلى ذقني الحليق، ثم خرجت أتسكع في شارع برشيكوبي[10]، أنظر إلى نفسي في واجهات العرض، وجدت نفسي بالفعل مثاليًّا، تمامًا كام رأيتني في مرآة العليّة. إنها الحقيقة إذًا. يا إلهي! إنها بالتأكيد الأموال التي لم تنقص أيًّا ممن كان لديهم رابطة عنق كهذه، وملابس أنيقة، وحذاء من الشمواه، ومظلة مطر وكأنها السيف. لكن لا أحد عنده رابطة عنق كتلك التي عندي. دخلت إلى متجر يبيع ملابس الرجال. وما إن دخلت صرت مصب اهتمام الجميع، كانت رابطة العنق هي مركز الاهتمام. عرفت كيف أربطها جيدًا، فصرت أنا مركز الاهتمام. طلبت رؤية بضعة أقمصة خفيفة، ولمزيد من التألق طلبت منهم أن أرى مناديل بيضاء صغيرة. طلبت من البائعة أن تأخذ منديلًا من حزمة المناديل، وتسويه في جيبي على أحدث الطرق، فضحكت قالت: أنتَ تمزح، أنتَ الذي يجيد عقد رابطة عنقه على هذا النحو... ثم أخذت المنديل، فرأيتها وهي تطويه. لم أقدر يومًا على معرفة الطريقة. أخذت المنديل، ووضعته على الطاولة، وأمسكت منتصفه بأصابعها الثلاث وكأنها تلتقط من الملاحة ملحًا، ورفعته بخفة، وهزته فتكونت طيات جميلة. أمسكت تلك الطيات بيدها الأخرى، وضمتها، ثم دست ذلك المنديل الصغير في جيب معطفي، وسحبت طرفه المثني قليلًا. شكرتها، وسددت الثمن. ثم أخذت منها قميصين جميلين وخمسة مناديل معصوبة بشريطة ذهبية. ثم دلفت إلى متجر آخر يبيع أقمشة الرجال. مشيت برابطة عنقي

10- واحد من أهم شوارع العاصمة التشيكية براج. وأرقاها. (المترجم)

البيضاء، ونقاطها الزرقاء، والمنديل الأبيض الصغير ذي الرأس الأبيض المخروطي الناتئ، والجعدات الحادة مثل أطراف أوراق الزيزفون المطوية. حدقت أعين البائعين ورجلين أنيقين عندما رأوا ما أنا عليه، تجمدت مفاصلهم، وارتبكوا. بقوا هكذا للحظات قبل أن يستعيدوا ثقتهم التي فقدوها في أربطة عنقهم ومناديلهم الصغيرة... ثم اخترت قطعة قماش لملابسي، لم أجد في جيبي أموالًا لشرائها. اخترت إسترهازي، وهو قماش إنجليزي طلبت منهم أن يحملوه إلى خارج المتجر لأراه في الشمس. وصرت لهم زبونًا في الحال، يفهم في الأقمشة. حمل لي العامل لفافة القماش بأكملها، ثم فرد طرفها كي أتخيل جيدًا شكل بزتي التالية وأنا في شوارع المدينة. شكرته وأنا أشعر ببعض الحرج، لكن عامل المتجر قال إن مثلي من الزبائن يفكر مليًّا، ويتردد في الشراء، وإنه لا داعي للعجلة. فهذا القماش متاح للبيع في أي وقت، لأن شركة هاينريش بيسكو لا تتعجل البيع، فهذه الخامة لا مثيل لها في براج. شكرته، وغادرت المتجر. عبرت إلى ضفة الشارع المقابلة. هالني كل شيء. مِلت برأسي، وحنيت جسدي، ورسمت جعدات النبلاء فوق جبيني وكأنني مستغرق في التفكير. ثم حدث ما أكد لي أن هذه الرابطة قد بدلتني تمامًا. لأني رأيت الآنسة فيرا التي أعرفها من الشامبر سيباريه، تلك التي ظهرت مع رجال البورصة في قسم الاستعراض في آخر خميس، وعرفتني وأنا في المقهى. رأتني. لاحظت أنها تريد أن تلقي عليّ التحية بحقيبة يد صغيرة، وقفاز أبيض صغير تعلقه في سير الحقيبة، لكنها فجأة

تراجعت، وكأن الأمر قد اختلط عليها، ولم تكن متأكدة من أنني الشخص الذي تظنه. الرجل الذي منحها نفسه كي تقدر على مغادرة الفندق بعد أن استثار العجائز غرائزها... تظاهرت بأني شخص آخر، فاستدارت، وواصلت طريقها وهي على قناعة بأنها أخطأت الظن. كل هذا عائد إلى المنديل الصغير ورابطة العنق البيضاء. لكن عند بوابة براشنا التي عبرتها لأتجول من جديد في الشارع، وبينما أكاد أطفر سعادة من طاقم ملابسي والقليل من الحلي رأيت في مواجهتي مديري في الفندق، السيد سكرشيفانك بشعره الأشيب. يمشي دون أن يلتفت إليّ رغم أنه يراني. مر بي فتوقفت وكأنه قد ألقى عليّ التحية. نظرت ناحيته فتوقف هو الآخر، والتفت ناحيتي ثم عاد. نظر في عيني فرأيت أنه لا يرى فيّ سوى رابطة العنق، وكيف أني مجرد رابطة عنق بيضاء تسير في شارع برشيكوبي... نظر إليّ السيد المدير وهو العليم بكل شيء، ويعرف من أين جاءت هذه الرابطة، وأني قد أخذتها دون إذن منه. أدام النظر بينما أقول في نفسي: من أين لكَ، يا سيدي المدير، بكل هذه المعارف؟ فابتسم، وأجاب بصوت عالٍ: أنا أعرف كل شيء لأني خدمت ملك إنجلترا... ثم واصل طريقه في برشيكوبي. أشرقت الشمس، رغم هذا شعرت أن الظلمة قد هبطت، وأنني مصباح مشتعل، نزع السيد المدير فتيله، وكأنني إطار سيارة كان منفوخًا فنزع السيد سكرشيفانك صمامه. مشيت وأنا أسمع صوت الهواء يغادر جسدي. رأيت نفسي وقد انطفأ نوري فلم أعد أضيء الطريق، لا أرى شيئًا. تملكني شعور

بأن رابطة العنق وحتى المنديل الصغير قد تضاءل مثلما تضاءلت، وكأنني قد تبللت بماء المطر.

كنت محظوظًا بأن كل المناسبات العظيمة والمجد الذي يمكن أن يصيب أي فندق أو مطعم يومًا ولو لمرة واحدة وحيدة كانت من نصيب فندق باريس. عرفنا أن الرئيس، ساكن القلعة لا يملك أدوات مائدة ذهبية، فكل زيارة لمدينة براج، أو ما يطلق عليها زيارة رسمية، أكثر ما يهم أعضاؤها رؤية الذهب. رئيس وزراء الرئيس، والمستشار بنفسه تباحثا حول إمكانية طلب أدوات المائدة الذهبية من القطاع الخاص، أو من الأمير شفارتسنبيرج[11]، أو لوبكوفيتس[12]. اتضح أن هؤلاء النبلاء لديهم بعض تلك الأدوات. حفرت على مقابض الملاعق والسكاكين جميعًا الأحرف الأولى من أسماء نبلاء تلك الأسر. الوحيد الذي قدر على إعارة السيد الرئيس مثلها من أدوات المائدة كان النبيل ترون تاكسيس، لكن كان عليه أن يرسل في طلبها من ريجينس بيرج حيث استخدمت في حفل زفاف أحد أعضاء تلك السلالة الثرية. وكان يمتلك هناك سلسلة فنادق، وشوارع، وأحياء بأكملها، وبنكًا. فشل كل المرشحين، وفي نهاية المطاف جاء السيد المستشار بنفسه إلى فندقنا. بدا غاضبًا وهو ينصرف من عند المدير. وكانت تلك إشارة جيدة. كل هذا قرأه السيد سكرشيفانك تلقائيًّا، الرجل الذي

11- سلالة من النبلاء من أصول ألمانية تشيكية يعود تاريخها إلى القرن الثاني عشر الميلادي.
12- أقدم سلالة نبلاء في التشيك يعود تاريخها إلى القرن الرابع عشر. (المترجم)

خدم ملك إنجلترا. قرأه في وجه السيد المستشار، وفي وجه السيد برانداييس، صاحب فندق باريس. عرف أن المدير رفض إعارته أدوات المائدة من الفندق، فاضطر إلى إقامة الوليمة هنا، عندنا، وعليه سيأخذ السكاكين والملاعق والشوك الذهبية من الخزينة التي يحفظها فيها. عرفت وكدت أصعق مما عرفته بأن فندقنا يمتلك أدوات مائدة ذهبية تكفي لثلاثمئة وعشرين ضيفًا... اتفقوا في القلعة على أن تقام عندنا وليمة الغداء على شرف ضيف عزيز من إفريقيا ومرافقيه. بدأنا في تنظيف الفندق بأكمله. جاءت مجموعة من النساء تحمل دُلِيًّا وخرقات، تنظف الأرضية، والحوائط، والأسقف، وكل النجف. لمع الفندق وبرق، ثم جاء اليوم الموعود، حيث سيقيم عندنا إمبراطور الحبشة والوفد المرافق له. طوال اليوم وعربات النقل تجمع الورود والاسبراكس، والأوركيد من محلات الورود في كل أنحاء براج. لكن في النهاية جاء السيد المستشار بمفرده إلى القلعة، ورفض الإقامة عندنا، لكنه أمن على حفل الغداء. لكن مدير الفندق لم يكن معنيًّا بالأمر، فقد أضاف تكاليف الإقامة إلى الحساب، بما فيها التنظيف. أعددنا العدة لحفل الغداء لثلاثمئة ضيف، استقدمنا السعاة، ورئيس الطهاة من فندق شتاينر. في ذلك اليوم أغلق السيد شروباك فندقه، وأرسل إلينا سعاته، وجاء رجال الشرطة السرية من القلعة، هؤلاء الذين رافقوا معي «بامبينو دي براجا»، ومعهم ثلاثة أزياء لطهاة، وبزتا سعاة. ارتدوها على الفور كي يعتادوها، وتفحصوا الطعام خوفًا من أن يضع فيه أحد سمًّا لإمبراطور

الحبشة، بينما تفقد السعاة صالات الطعام بحثًا عن أفضل مواقع حراسة الملك. قضى رئيس الطهاة مع السيد المستشار والسيد براندايس ست ساعات متواصلة لإعداد قائمة طعام لثلاثمئة ضيف. بعدها أمر رئيس الطهاة بتجهيز الثلاجة بخمسين فخذة من لحم العجول، وست بقرات لعمل الحساء، وثلاثة مهور للحم البوفتيك، وفحل خيل لعمل الصلصة، وستين خنزيرًا لا يزيد وزن الواحد منها على ستين كيلوجرامًا، وعشرة خنوص، وثلاثمئة دجاجة، فضلًا عن الغزلان، وظبيين. نزلت لأول مرة إلى مخازننا مع السيد سكرشيفانك رئيس الطهاة ومدير المخازن. حيث أعاد إحصاء مخزون النبيذ والكونياك وغيرها من المشروبات الروحية... أصابتني الصاعقة. إنه مخزن متخم بالبضائع وكأننا في شركة أوبيلت المتخصصة في تجارة الجملة، تتاجر في النبيذ والكحوليات الثقيلة. رأيت لأول مرة حائطًا بأكمله مكسوًّا بزجاجات هاينكل تروكن، وشمبانيا فوارة من شركة فيفو كليو، وشركة واينهارت من مدينة كوبلنتس. حوائط بأكملها من كونياك مارتل، وهينيسي، مئات من زجاجات الويسكي الاسكتلندي من كل الماركات. رأيت أيضًا نبيذ الموزيل والراينلاندي الفخم، والبازنتسي المورافي[13]، ونبيذ منيالنيك، وجيرنوساك. وبينما السيد المدير سكرشيفانك يتنقل من قبو إلى آخر يربت على أعناق الزجاجات برقة وكأنه مدمن على الخمر رغم أنه لم يشربه

13- بنزانتس مدينة في شمال شرق التشيك بمنطقة مورافا شهيرة بصناعة النبيذ. (المترجم)

يومًا. لم أره يومًا يشربه. انتبهت وأنا في القبو إلى أني لم أرَ رئيس الطهاة يومًا جالسًا. دائمًا يقف وفي يده سيجارة مشتعلة. نظر إليّ ونحن في القبو، وعرف ما أفكر فيه. تنبأ بما يدور في عقلي لأني سمعته فجأة يقول: تذكر، إن أردت أن تكون مديرًا ناجحًا فلا يجب أن تجلس كي لا تصاب بألم شديد في ساقيك فتصبح نوبة عملك جحيمًا. أخذ مسؤول المخازن يطفئ الأنوار من خلفنا، ثم غادرنا القباء. جاءتنا في نفس اليوم أخبار بأن ملك الحبشة سيأتي برفقة طاهيه الخاص، وسوف يطهو له طعامًا حبشيًّا. جاء الطهاة في اليوم السابق قبل موعد الوليمة، يلمعون من السواد، ويرتجفون من البرد. كانوا ثلاثة ومعهم مترجمهم، وعلى طهاتنا أن يكونوا مساعدين لهم، لكن رئيس طهاتنا فك مئزره، واختفى في ذلك اليوم. قطب وجهه بعد أن شعر بالمهانة. لكن طهاة الحبشة شرعوا في إعداد بضع مئات من البيض المسلوق وهم يضحكون بملء أفواههم، ثم أحضروا عشرين ديكًا حبشيًّا، وشرعوا في طهيها في أفراننا. وزعوا في أطباق كبيرة أنواعًا من الحشو احتاجوا لإعدادها عشرين سلة خبز، وحفنات كبيرة من التوابل والبقدونس الذي أحضروه فوق عربة. تولى طهاتنا تقطيعه وهم في فضول مما يفعله هؤلاء الزنوج الضيوف. كثيرًا ما شعر هؤلاء الضيوف بالعطش فأحضروا لهم بيرة بلزن. أعجبتهم فبادلونا إياها بـ ليكير من بلدهم، مصنوع من أعشابهم، وكان مُسْكرًا للغاية، تفوح منه رائحة الفلفل وتوابل جديدة مطحونة. أصبنا جميعًا بالفزع عندما رأيناهم يحضرون ذبيحتين

من الظباء، سلخوا جلديهما على الفور. كانوا اشتروهما من حديقة الحيوانات. طهوا الظبيين في أكبر وعاءين عندنا، ووضعوا من تحتيهما قطع لحم، وأفرغوا فيها توابلهم التي حملوها في جوالات. كان لا بدَّ أن نفتح كل النوافذ بسبب البخار الكثيف المتصاعد. ثم حشوا الظبيين بالديوك الحبشية المحشوة، نصف المطهوة، وملؤوا الفرغات بمئات من حبات البيض المسلوق. كاد الفندق بأكمله يسقط حتى فزع رئيس الطهاة عندنا لأنه لم يكن مستعدًّا لأمر كهذا. أحضر الطهاة جملًا حيًّا أمام الفندق، وأرادوا ذبحه. تملكنا الخوف لكن المترجم أقنع السيد برانديس. جاء الصحفيون، فجعلوا فندقنا محط أنظار الصحافة. ربطوا ذلك الجمل الذي هدر وكأنه يقول لهم: لا، لا كي لا يذبحوه، ثم جاء أحد الطهاة، ونحره بسكين كبير فامتلأ الفناء بالدم. وضعوا الجمل فوق طاولة الذبح، وأفرغوا أحشاءه بالسكين، وفصلوا لحمه عن عظمه دون سيقانه، تمامًا كما فعلوا مع الظبيين. أحضروا ثلاث عربات ممتلئة بالخشب، فاضطر مدير الفندق إلى استدعاء رجال المطافئ الذين وقفوا متأهبين بخراطيم المياه، بينما الطهاة يوزعون النيران بسرعة، نيران ضخمة تشبه نيران عمل الفحم. بعدما انطفأت النيران فوق حامل بثلاث أرجل علقوا الجمل كله فوقه بالأسياخ وأداروه. قبل أن يكتمل شواء الجمل فيها وضعوا الظبيين المحشوين بالديكة الحبشية، وكانا هما أيضًا محشوين، ثم أضافوا أسماكًا. ملؤوا الفراغات بالبيض المسلوق، ولم ينفكوا يضيفوا بهاراتهم، ويشربون البيرة لتدفئهم

حتى وهم بجوار تلك النيران. مثل عاملي مصانع البيرة الذين يشربون بيرة باردة في الشتاء يستدفئون بها. لم يكتفِ هؤلاء الطهاة السود بشوي الخنوص والخراف في الفناء لوليمة امتدت لثلاثمئة ضيف بدأت السيارات تحملهم إلينا والحراس يفتحون أبوب سيارات الليموزين، بل طهوا في المراجل حساء فيه كمية كبيرة من اللحم، ما جعل مدير الفندق راضيًا عن كميات اللحم الكثيرة التي اشتراها... ثم جاء هيله سيلاسي يرافقه رئيس الوزراء، وكل جنرالاتنا، وقادة الجيوش الحبشية، كلهم مدججون بالنياشين. وحده إمبراطور الحبشة لفت أنظارنا بملابسه البيضاء الخفيفة الخالية من أي نياشين، مجرد خاتم كبير في إصبعه، بينما كل أعضاء حكومته أو شيوخ قبائله يرتدون ملابس مزركشة، وبعضهم يحمل سيوفًا كبيرة. رأيناهم جميعًا ودودين متدربين على قواعد الموائد بمجرد أن جلسوا. امتدت الموائد في كل صالات فندق باريس، ولمعت أدوات الطعام الذهبية بجوار كل طبق، أطقم من الشوك والسكاكين والملاعق. ثم بدأ الترحيب بالإمبراطور هايله من قبل رئيس الوزراء. تحدث هايله وكأنه ينبح، والمترجم يترجم. يقول إن الإمبراطور الحبشي يدعو الضيوف على وليمة غداء حبشية... فصفّق رجل يرتدي ملابس كرتونية، جسد بدين، تلفه تنورة من عشرة أمتار من القماش. ثم بدأنا في توزيع المقبلات التي أعدها الطهاة السود في مطبخنا. لحم عجول بارد مع صوص أسود. شعرت بالاختناق بعد أن لعقت منه بإصبعي. كان قويًّا. لأول مرة أرى الطهاة وهم يضعون

الأطباق بأناقة، وشوكنا الذهبية، ثلاثمئة شوكة وسكين، تتلألأ في صالات الطعام... أعطى كبير الطهاة إشارة صب نبيذ الموزيل الأبيض، وهنا جاء دوري. لاحظت أنهم نسوا صب النبيذ للإمبراطور، فحملت الزجاجة ملفوفة في مفرش، ودون أن أدري، تقدمت من الإمبراطور، وسقطت على إحدى ركبتي مثل أي كاهن مساعد، وطأطأت رأسي. عندما وقفت رأيتهم جميعًا ينظرون ناحيتي، والإمبراطور يرسم على جبيني صليبًا، فصببت له في الكأس. وقف من ورائي مدير فندق شروباك الذي نسي أن يصب له، تخدر جسدي مما فعلته، ودرت بعيني بحثًا عن رئيس الطهاة السيد سكرشيفانك فرأيته يومئ لي سعيدًا من يقظتي... وضعت الزجاجة وأنا أنظر إلى الإمبراطور وهو يأكل، ويدس قطعة لحم بارد في الصوص، وكأنه يريد فقط أن يتذوق الطعام. هز رأسه وهو يمضغ اللحم، ثم وضع الشوكة على حافة الطبق ليعلن أنه قد اكتفى... شرب بعض النبيذ، وظل يمسح فمه طويلًا بالمنشفة... ثم جاء دور الحساء. دب النشاط في الطهاة السود من جديد، ربما لأنهم شعروا ببرد لا يتوقف، وشربوا البيرة. غرفوا الحساء في الأطباق بسرعة عجزنا معها عن اللحاق بهم، حتى المخبرون الذين تخفّوا في ملابس الطهاة وقفوا مصعوقين. لم يفت رجال الشرطة السرية أن يأخذوا صورًا تذكارية مع الطهاة، بينما طهاة فندقنا في الفناء يديرون الجمل المحشي فوق الفحم المشتعل في هوادة وقد دهنوه بفرشاة مصنوعة من خصلات النعناع مبللة بالبيرة. فكرة ابتكرها الطهاة السود. عندما حان

موعد دهان الجمل طفر رئيسهم من السعادة، وقال، حسب ما أخبرنا المترجم، أن الطهاة قد يحصلون على وسام ماريا تيريزا على هذه الفكرة. هدأت أنفس جميع الطهاة ورؤسائهم، الخادمات، وصغار الطهاة والسعاة بعد أن تأكدوا من أن الطهاة الحبشيين مسيطرون على الأوضاع رغم أنهم ما فتئوا يشربون البيرة. شرفني الإمبراطور، حسب ما قاله المترجم، بأن اختصني بتقديم الطعام والشراب له. في كل مرة أسقط فوق إحدى ركبتي مرتديًا حلتي، أصب له الشراب أو أقدم الطعام، ثم أتراجع لأعود رهن إشارته لمعاودة صب الشراب أو رفع الطبق. لم يأكل الإمبراطور كثيرًا، كان فقط يتذوق الطعام مثل طاهٍ ذواقة، يتناول القليل منه، ويرتشف بعض النبيذ ليعاود الحديث مع رئيس الوزراء. انصرف من حوله الضيوف والجنرالات واحد تلو الآخر وهم يقبلون على الطعام والشراب بنهم شديد. اجتمعوا حول طاولات في القباء، أو في الغرف المجاورة. هناك التهموا الطعام وكأنهم جوعى، حتى الخبز أكلوه. حتى إن أحد الضيوف أكل زهور عصا الراعي في المزهريات بعد أن أضاف إليها الملح والفلفل... وقف المخبرون السريون في أركان الغرف وعند الزوايا بملابس السعاة، وعلى سواعدهم فوط الطعام، يراقبون الناس كي لا يسرق أحدهم شيئًا من أدوات المائدة الذهبية. اقتربت لحظة الوليمة الرئيسة. لمّع الطهاة السود سيوفهم الطويلة التي تشبه

سكاكين الشحيطة[14]. ووضع اثنان منهم سيخ الجمل على أكتافهما، بينما دهن ثالث بطن الجمل بعيدان النعناع، ودخلوا به إلى صالات المطعم... مروا بالصالة والغرف الملحقة بها. وقف الإمبراطور، وأشار بيده ناحية الجمل المشوي، وقال المترجم على لسانه: إن هذا طعام إفريقي وعربي... هدية بسيطة من إمبراطور الحبشة. أحضر اثنان من المساعدين لوحين كبيرين ووضعاهما متجاورين على شكل طاولة في منتصف الفندق، وعلى تلك الطاولة استقر الجمل. أحضروا السكاكين، وقسموا الجمل إلى نصفين. وشطروا كل نصف إلى جزأين، فانتشرت رائحة فواحة. في كل جزء اجتزوه قطعة من لحم الجمل، والظبيين، في داخل كل ظبي ديك حبشي، وفي الديك أسماك وحشو، وحلقات مشوية من البيض... وزع السعاة الأطباق، وقاموا بتوزيع لحم الجمل المشوي بدءًا من عند الإمبراطور. سقطت على ركبتي، فأومأ لي الإمبراطور بعينيه فقدمت له أكلتهم المفضلة الرائعة بكل تأكيد، فقد صمت الضيوف كلهم، لا يُسمع سوى صليل أدوات المائدة الذهبية... ثم حدث أمر ما لم أره أو أسمع به من قبل، لا أنا ولا كبير الطهاة السيد سكرشيفانك. في البداية أحد مستشاري الحكومة، ذواقة معروف أشاد بالطعام، وبلحم الجمل، ثم وقف وبدأ يصرخ صرخات مدوية، وعلى وجهه علامات نشوة غامرة من مذاق الطعام عبرت عنها خلجات وجهه.

14- الشحيطة هي أحكام ذبح الطيور والحيوانات الثديية في اليهودية. حيث يذبح الحيوان بقطع عنقه بسكين حادة لإخراج الدم. (المترجم)

وراح وكأنه يتدرب، وكأنه في أحد احتفالات اللياقة البدنية، ثم خبط على صدره، وأخذ قطعة أخرى مغمورة في الصوص. جعله الطعام منتشيًا حتى إن الطهاة السود وقفوا يحملون سكاكينهم، وينظرون ناحية الإمبراطور. لكن يبدو أن الإمبراطور اعتاد مثل هذه الأمور فضحك، وضحك من بعده الطهاة السود. ضحكوا وهزوا رؤوسهم، ومعم الجنرالات المفتولون في أقمشة ثمينة مزركشة، كتلك التي كانت على مئزر جدتي، أو على قماش حريري مزركش. لم يتحمل مستشار الحكومة، فانطلق إلى الدهليز وراح يصرخ، ثم عاد مهرولًا، ودس شوكته في قطعة لحم أخرى. تصاعد الأمر بعدما انصرف مهرولًا، وهو يصرخ. وقف أمام الفندق وراح ينادي ويرقص، ويبتهج، ويضرب على صدره، ثم عاد مسرعًا وهو يغني ويتراقص بساقيه حمدًا على ذلك الجمل المحشي الطيب. وفجأة انحنى أمام الطهاة الثلاثة، وثنى جسده حتى بلغ خصره إلى أن لمس الأرض. ذواقة آخر، وهو جنرال متقاعد، تطلع إلى السقف، وأصدر نغمة شجية طويلة، صرخة نشوة طويلة، تصاعد إيقاعها. ثم تناول قطعة لحم أخرى، وأخذ يلوكها في فمه وهو يصرخ ويتأوه، ويقطع اللحم. ثم انتصب بعد رشفة نبيذ الجرنوساك، وأخذ يهمهم، ففهم الطهاة السود مقصده، وصاحوا بسعادة: أجل، أجل، إنها السامبا! أجل! على ما يبدو أن هذا كان سببًا في اعتدال مزاج الجميع، فصافح رئيس الوزراء الإمبراطور الحبشي، وهرول المصورون لتسجيل الحدث، وبرقت أضواء الكاميرات الحادة، وعلى خلفية وميضها المبهر تصافح

أعضاء وفدنا وأعضاء الوفد الحبشي...

طأطأ الإمبراطور الحبشي رأسه وهو ينصرف، فحنى كل الضيوف رؤوسهم، وتبادل جنرالات الطرفين الأوسمة، وتناوبوا تعليقها. علق أعضاء الحكومة النياشين على جانب بِزّاتهم، وكذلك النجوم والأوشحة التي منحهم إياها الإمبراطور على صدورهم. وأخذوني من يدي، أنا الصغير، ناحية مستشار الإمبراطور، شد على يدي نظير خدمتي الممتازة، وعلق على صدري أصغر النياشين حجمًا وأكبرهم قيمة، بوشاح أزرق، نوط خدمة عرش الإمبراطور الحبشي. حملت الوسام فوق طية بزتي مع شريط أزرق فوق صدري، طأطأت عيني والكل يحسدني على الوسام، وخاصة رئيس طهاة الفندق، السيد شروبيك الذي انتظر أن يحصل هو على ذلك الوسام. قالت لي عيناه ليتني أعطيه الوسام، خاصة وهو على وشك سن المعاش، وربما تمنى طويلًا هذه اللحظة، فبوسام كهذا يمكنه أن يدير فندقًا في وادي جبال كركنوش، أو في تشسكي راي[15]. فندق إمبراطور الحبشة. غير أن المصورين ومراسلي الصحف صوروني، وكتبوا اسمي. مشيت أحمل ذلك النوط والوشاح الأزرق، أجمع الأشياء، وأحملها إلى المطبخ، أدوات المائدة والأطباق. بقيت أعمل على هذا النحو حتى وقت متأخر من الليل. انطلق النساء والسعاة يغسلون ثلاثمئة

15- تيشكي راي (Český ráj) معناها جنة التشيك وهي منطقة أثرية سياحية بوسط بوهيميا. (المترجم)

قطعة من أدوات المائدة تحت أعين المخبرين السريين الذين تنكروا في ملابس الطهاة، ورئيس الطهاة سكرشيفانك يحصيها بمساعدة مدير فندق شروباك، وأعاد إحصاءها، ثم أعاد صاحب الفندق عد الملاعق الصغيرة بنفسه. امتقع وجهه بعد أن انتهى من العد بعدما تأكد من أن واحدة منها مفقودة. أعاد إحصاءها، ثم لاحظت أن مدير الطهاة في فندق شروباك يهمس للمدير، ثم ظهرت الدهشة على وجهيهما، واصل السعاة من فندق شروباك غسيل الأواني، ثم توجهوا هم أيضًا إلى الصالة حيث تبقى كثير من الطعام، ومن ورائهم كل الطابخين والسعاة. جاؤوا جميعًا لا لكي يأكلوا، بل ليتذوقوا ما تبقى من طعام شهي في هدوء، والأهم أن يلقوا نظرة على طهاة فندقنا الذين شرعوا في تذوق الطعام، والتعرف على أنواع التوابل التي وضعت في الصوص، وعلى طريقة الطهي التي صنع منها هذا الطعام الرائع الذي رأوه، والسبب الذي جعل ذلك المسؤول الحكومي كونوباسك، الذي اعتاد أن يكون ذواقة القصر، يصرخ من النشوة... لكني لم آكل الكثير بعد أن رأيت المدير ينظر إليّ مستاءً من النوط الذي حصلت عليه. رأيت رئيس طهاة فندق شروباك يتحدث هو الآخر همسًا إلى رئيس طهاتنا السيد سكرشيفانك. انتبهت فجأة إلى أن ما يتحدثون عنه هو تلك الملعقة الصغيرة الذهبية، وأنهما يظنان أني من سرقها. صببت لنفسي كأس كونياك مخصص لنا، وشربت منه، ثم صببت كأسًا أخرى، وتقدمت من رئيس طهاتنا الذي خدم ملك إنجلترا لأعرف إن كان غاضبًا مني. خاطبته، وتحدثت عن

النوط الذي تسلمته دون وجه حق، وأن من يستحقه هو رئيس الطهاة من فندق شروباك، أو هو شخصيًّا، أو مدير فندقنا. لكن أحدًا لم ينصت إلى ما قلته. لاحظت أن رئيس الطهاة السيد سكرشيفانك ينظر إلى البابيون فوق رقبتي، ويحدق فيه، فتذكرت تلك النظرة التي رشقني بها قبل عدة أيام عندما حدق في رابطة العنق التي ارتديتها يومها، الرابطة البيضاء ذات الرقط الزرقاء مثل رقط الفراشات. الرابطة التي أخذتها دون إذن منه من خزانة حفظ الأشياء والملابس التي ينساها ضيوف الفندق. رأيت في عيني رئيس الطهاة ما معناه: طالما أخذ الرابطة دون إذن فلمَ لا يكون هو من سرق الملعقة الذهبية؟ لا سيما وهي آخر ما أخذته من فوق طاولة إمبراطور الحبشة. وبالفعل هذا ما حدث. أخذتها، ووضعتها في حوض الغسيل مباشرة. شعرت بحرج شديد وأنا أقف بيد ممدودة تحمل كأسًا أردت أن أقرعها مع مديري الذي دائمًا ما رأيته عظيمًا، أعظم من الإمبراطور نفسه، وأعظم حتى من الرئيس. رفع هو الآخر كأسه، ثم تردد للحظات وأنا أنتظر على أمل أن يخبط كأسه بكأسي في نخب النوط المنحوس الذي حصلت عليه، لكنه هذه المرة، وهو الرجل العليم بكل شيء، أسقط في يده. وصفع بكأسه كأس رئيس الطهاة من فندق شروباك الذي يقاربه في السن، وشاح بوجهه بعيدًا عني. أعدت كأسي، وشربته. شعرت بأن جسدي يشتعل ويحترق، صببت لنفسي كأس كونياك أخرى... ثم خرجت مهرولًا بملابس العمل أمام الفندق في الليل، أمام الفندق الذي لم أعد جزءًا منه. أردت أن

أختفي من العالم، فأخذت سيارة أجرة. سألني السائق إلى أين سنذهب، فأجبته بأن يأخذني إلى الغابة، أردت أن أستنشق هواءً طلقًا... أخذني إلى هناك. كل شيء يقرعني في ظهري، أضواء، كثير من الأضواء، ثم بضعة مصابيح متفرقة هنا وهناك، إلى أن اختفت كلها من ورائي، لم أعد أراها إلا كلما مالت سيارة الأجرة عند المنحنيات. وصارت براج خلفي إلى أن توقفت السيارة عند غابة حقيقية... أشعلت سيجارتي بينما السائق ينظر إلى النوط والوشاح الأزرق. قال إنه غير مندهش من غضبي هذا. فهو يعرف كثيرًا من رؤساء الطهاة الذين يطلبون منه أن يقلهم إلى منتزه ستروموفكا أو غيره للتجوال. ابتسمت، وأخبرته أني لم آتِ إلى هنا للتجول، بل ربما لأنتحر شنقًا. لم يصدقني السائق، حقيقة لم يصدقني، ضحك وقال: وبم ستنتحر؟ كنت بالفعل أعرف كيف سأنتحر. أخبرته أني سأشنق نفسي بمنديل، فغادر السائق العربة، ورفع غطاء المحرك، ثم أخذ يبحث عن شيء ما هناك، أعطاني بعدها حبلًا في ضوء مصباح السيارة، ما يشبه الحزام، ثم ضحك، وأدار عينيه. عقد الحبل، ونصحني وهو يبتسم بأفضل طريقة للانتحار بذلك الحبل... ثم رفع زجاج الباب في وجهي، وصاح: حظًّا سعيدًا في الموت مشنوقًا! رحل وهو يومض بأضواء السيارة تحية. وقبل أن يختفي خلف الغابة الصغيرة أطلق نفير السيارة... مشيت أنا في مدق في الغابة، ثم جلست على دكة. عندما تدبرت كل ما حدث، وعندما وصلت إلى قناعة أساسية بأن السيد رئيس الطهاة لم يعد يحبني قلت لنفسي إن الحياة في هذا

العالم قد صارت مستحيلة، فلو أن الأمر يتعلق بفتاة لكان سهلًا، لكنه رئيس الطهاة الذي خدم ملك إنجلترا والذي يظن أني قد أسرق ملعقة صغيرة فُقِدت، وربما أن أحدًا غيري سرقها. لم أجد تفسيرًا للأمر. شعرت بذلك الحبل بين أصابعي، ثم هبط ظلام دامس جعلني ألتمس الطريق، وأتحسس الأشجار، شجيرات صغيرة. خرجت من الغابة لأظن، حسب السحب، أني أسير وسط أجمات أصغر، أيكة صغيرة، ثم أجد أمامي غابة أصغر من أشجار التامول العالية، يلزمني سلم كي أتسلقها لأبلغ أحد أغصانها... تأكدت من أن مسألة الانتحار ليس سهلة. بلغت غابة أخرى حقيقية صغيرة بأغصان أشجار صنوبر متدلية قريبة من الأرض، أغصانها القديمة نافرة جعلتني أحبو فوق الأرض... وبينما أنا كذلك لطم ذلك النوط ذقني، ووجهي، فذكرني بتلك الملعقة الذهبية الصغيرة التي فقدت في الفندق. توقفت عن الحبو، وتراءت أمامي كل الأحداث التي مرت حتى بلغت تلك المنطقة المؤلمة في عقلي، ولم أقدر على تجاوزها، وهو أن السيد سكرشيفانك لا يحبني، ولن يواصل تدريبي، ولن نتراهن سويًّا مرة أخرى عما سيطلبه الضيف، أو يود طلبه، وعن جنسية الضيف فور دخوله إلى الفندق، فأخذت أصرخ مثل كبير موظفي الحكومة السيد كونوباسك بعدما أكل بضع لقيمات من لحم الجمل المحشي الرائع... قررت أن أشنق نفسي. لمس رأسي شيء ما وأنا جاثٍ فوق الأرض. بقيت هكذا لبعض الوقت، ثم رفعت يدي فلمست حذاءً، قمة فردتي حذائي، ثم كاحلين، وجوربًا

يغطي ساقًا باردة... وقفت، ورفعت عيني لأرى النصف السفلي من رجل مشنوق، فزعت، وانطلقت أعدو، اندفع جسدي وسط عيدان حادة قديمة. أذيت وجهي، وأذني، لكني لم أتوقف إلى أن بلغت دربًا في الغابة، وهناك سقطت فوق الأرض وفي يدي الحبل، وفقدت وعيي... إلى أن أيقظتني المصابيح وأصوات البشر... رأيت بعدما فتحت عيني، في الواقع لم أرَ، بل عرفت أني في أحضان السيد سكرشيفانك كبير الطهاة، وهو يمسد جسدي، وأنا أردد: هناك، هناك. هناك وجدوا ذلك الرجل المشنوق الذي أنقذني لأني كنت قررت أن أشنق نفسي بالقرب منه، أو معه. مرر كبير الطهاة يده على شعري، ومسح الدم... بينما أنا أبكي، وأقول: تلك الملعقة الذهبية الصغيرة! فهمس كبير الطهاة في أذني أن اِهدأ، لقد عثروا عليها... فسألته: أين؟ فقال بصوت منخفض: علقت المياه في حوض الغسيل، ففكوا الحوض، ووجدوا الملعقة عالقة في كوع الصرف... سامحني... ستعود الأمور إلى ما كانت عليه. قلت له: لكن كيف عرفت بمكاني... فأجاب كبير الطهاة: إنه سائق التاكسي الذي راجع نفسه، وعاد إلى الفندق، وسأل السعاة عمن أراد منهم أن يشنق نفسه. في تلك اللحظة أحضر عامل الصيانة تلك الملعقة... وعرف رئيس الطهاة، الرجل الذي خدم ملك إنجلترا، عرف على الفور أنه أنا، فجاؤوا بحثًا عني. وهكذا عدت إلى فندق باريس محمولًا على الأعناق، حتى إن السيد رئيس الطهاة ائتمنني على مفتاح مخازن النبيذ، والليكير، والكونياك، وكأنه أراد أن يعوضني عن كل ما حدث بشأن الملعقة الذهبية

الصغيرة. لكن مدير الفندق لم يغفر لي أني حصلت على ذلك النوط وذلك الوشاح فوق صدري، فتجاهلني وكأنني غير موجود، رغم ذلك جنيت من النقود ما أغطي بها كل أرضية الفندق. أحمل كل ثلاثة أشهر ما يغطي أرضية الفندق من أوراق بنكنوت فئة المئة كرون، وأضعها في الخزينة. قررت أن أصبح مليونيرًا، أن أكود ندًّا للجميع، بعدها أستأجر أو أشتري فندقًا، فندقًا صغيرًا في تشسكي رَاي، وأن أتزوج من امرأة ثرية، وعندما أضم أموالي إلى أموال زوجتي سأصبح من الوجهاء شأن كل أصحاب الفنادق، وإن لم يعترفوا بي كإنسان، فسوف يحترمونني رغمًا عنهم كرجل مليونير، صاحب فندق وعقارات، وسيجبرون جميعًا على أن يحسبوا لي حسابًا... لكن حدث ما لا تحمد عقباه. استدعوني للمرة الثالثة للتجنيد، وفي المرة الثالثة لم أقبل بسبب قامتي القصيرة. حاولت أن أرشو كبار الضباط ليقبلوني في الجيش لكنهم رفضوا. ضحك كل من في الفندق. الوحيد الذي سألني عما حدث كان السيد براندايس، ثم عاود السخرية مني. فأنا صغير القامة. عرفت أني سأبقى هكذا حتى الممات، فقد توقف نموي. بقيت ثنية معطف بدلتي صغيرة رغم كل شيء؛ رغم الكعب المزدوج، وهامتي المرفوعة. كل ما تبقى من أمل هو أن أمد رقبتي، وأضع ياقة مطاطية عالية. حدث أيضًا أني ترددت على حصص في اللغة الألمانية، وشاهدت الأفلام الألمانية، وقرأت الصحف الألمانية. لم يدهشني أن أرى الطلاب في شوارع براج يرتدون الجوارب البيضاء والسترات الخضراء، وأني صرت الوحيد

في الفندق تقريبًا الذي يقوم على خدمة الضيوف الألمان. كل سعاة فندقنا عاملوا الضيوف الألمان وكأنهم لا يتحدثون الألمانية. حتى إن رئيس السعاة السيد سكرشيفانك تحدث مع الألمان بالإنجليزية، أو الفرنسية، أو التشيكية. ذات مرة وأنا في دار السينما دست على حذاء إحدى السيدات، فخاطبتني بالألمانية، واعتذرت لها أنا أيضًا بالألمانية، ورافقت تلك المرأة ذات الملابس الأنيقة. قلت لها من أجل أن أقنعها بالحديث معي بالألمانية إن ما يفعله التشيك مع الطلبة الألمان المساكين أمر بشع، وأني رأيتهم بأم عيني وهم ينتزعون الجوارب البيضاء من على سيقان الطلبة، ومزقوا سترتين بنيتين لاثنين من الطلبة الألمان في ميدان نارودني ترشيدا. أجابت بأني أفهم الأمور بشكل صحيح، وأن براج أرض تابعة للإمبراطورية[16] منذ القدم، وأن حق التنقل فيها وارتداء الملابس كل حسب عاداته هو حق أصيل. إلا أن العالم بأكمله لا يكترث لأمر كهذا، لكن ستأتي ساعة، ويوم معلوم سيثور فيه القائد على هذا الوضع. سيأتي ليحرر جميع الألمان من شومافا[17] وحتى جبال كرباتيا[18]، و... لاحظَت أني أنظر في عينيها وهي تقول ما قالته، وكذلك هي أيضًا، وأني لا أعتبرها كأي امرأة أخرى. دائمًا ما كنت تعيس الحظ بأن كل النساء اللواتي ظهرن في حياتي، كلهن بلا استثناء كن أطول مني. دائمًا ما

16- حسب سياق النص يقصد بها الإمبراطورية الألمانية. (المترجم)

17- سلسلة جبلية في جنوب غرب التشيك. عند حدود التشيك مع النمسا وألمانيا. (المترجم)

18- سلسلة جبلية في جنوب شرق التشيك. (المترجم)

وقفت وسط النساء العمالقة ضئيلًا، لا أرى في مرمى بصري منهن إلا رقابهن أو نهودهن. رأيت أنها في مثل قامتي، تتلألأ عيناها الخضراوان، وجهها مكسو بنمش مثلي أنا، نمش بني تناغم بصورة رائعة مع عينيها الخضراوين. رأيتها جميلة، ولاحظت أنها تراني كذلك. ارتديت يومها رابطة العنق، تلك البيضاء الرائعة ذات النقاط الزرقاء. نظرت إلى شعري الفاتح مثل عيدان القش، وإلى عيني الزرقاء مثل صغار العجول. أضافت بعدها قائلة إن الألمان من عهد الإمبراطورية يحبون كثيرًا العرق السلافي، ويسعون إلى الطبائع السلافية وما بلغوه من مستويات، وأنهم يسعون منذ ألف عام إلى التزاوج بهذا العرق، سواء بحسن نية أو بسوء نية. أخبرتني أن دماء سلافية تجري في عروق كثير من نبلاء بروسيا، وهذا ما يجعلهم في عيون أقرانهم أكرم من غيرهم. وافقتها الرأي، وتعجبت من أنها تفهمني. لم يأتِ من الزبائن من يطلب ما سيأكله على الغداء أو العشاء، فبقيت أتحدث مع تلك الفتاة التي دست على حذائها الأسود، ببعض الألمانية وكثير من التشيكية، رغم ذلك لم يفارقني شعور بأني أتحدث الألمانية كأي رجل ألماني... عرفت من تلك الفتاة أن اسمها ليزا، وأنها من مدينة خِب[19]. تعمل مدرسة تربية بدنية، وأنها بطلة المحافظة في السباحة. خلعت معطفها وكشفت عن صدر فوقه أربعة أحرف F مرسومة على شكل دائرة، أو وريقة رباعية الأطراف. ابتسمت لي، علقت عيناها على شعري إلى درجة

19- مدينة في غرب التشيك قريبة من الحدود الألمانية. (المترجم)

أزعجتني، لكنها منحتني ثقة عندما قالت إن لدي أجمل شعر أشقر في العالم، ما جعلني أفقد توازني. أجبت بأني رئيس السقاة في فندق باريس. قلت هذا وأنا لا أتوقع منه خيرًا على الإطلاق، لكنها وضعت يدها على ساعدي. برقت عيناها وهي تلمسني فشعرت بالخوف. قالت إن أباها يمتلك مطعمًا في مدينة خِب، مطعم أمستردام. اتفقنا على أن نذهب إلى السينما لمشاهدة فيلم «الحب على مقام السيكا». جاءت وهي ترتدي قبعة بافارية، وسترة قصيرة خضراء من دون أكمام أحببتها منذ طفولتي، سترة بنية بنطاق أخضر مزين بأهداب بلون خشب البلوط. كانت الثلوج تتساقط في الشارع قبيل أعياد الميلاد. جاءت بعدها إلى فندق باريس عدة مرات، وتناولت الغداء أو العشاء. أول مرة جاءت فيها نظر كبير السعاة السيد سكرشيفانك ناحيتها، ثم ناحيتي، ثم توجهنا، أنا وهو، إلى الكوة، كما كنا نفعل يومًا. ضحكت، وقلت: هيا نتراهن على ورقة بعشرين كرونًا، ماذا ستطلب هذه الفتاة؟ عرفت أنها جاءت مرتدية تلك السترة القصيرة، والجوارب البيضاء، فأخرجت عشرين كرونًا، ووضعتها على طاولة المناولة، لكن السيد سكرشيفانك باغتني بنظرة استنكار، تمامًا كتلك التي صوبها نحوي عندما أردت أن أقرع كأسي بكأسه ليلة أن خدمت إمبراطور الحبشة، وضاعت الملعقة الذهبية. أصابعي لا تزال فوق ورقة العشرين كرونًا. تركني أظن أن كل شيء طبيعي، فسحب عشرين كرونًا هو الآخر، ومد بها يده على مهل، لكن سرعان ما دسها في حقيبته وكأن أمواله هذه

ستلوثها أموالي. نظر إلى الفتاة ليزا مرة أخرى، ولوح لها. بعدها توقف عن مخاطبتي، وأخذ مني مفتاح المخازن. تجاهلني تمامًا، راح ينظر إليَّ وكأنني غير موجود... وكأنه لم يخدم يومًا ملك إنجلترا، وكأنني لم أخدم يومًا ملك الحبشة. لكن الأمر لم يعد ذا قيمة بالنسبة لي، فقد رأيت وعرفت أن كل التشيك ظالمون للألمان. بدأت في تلك اللحظة أشعر بالخجل من أنني من الأعضاء الداعمين لـسوكول[20] لأن السيد سكرشيفانك كان من أكبر أنصارهم، ومثله السيد براندايس، وكلهم كانوا معارضين للألمان وعلى رأسهم تلك الفتاة ليزا التي كانت تتردد على الفندق لرؤيتي. رغم ذلك لم يجز لي أن أقوم على خدمتها لأن طاولتها في نطاق مسؤولية ساقٍ آخر. لاحظت أنهم يخدمونها بطريقة غير لائقة، يقدمون لها الحساء باردًا، ويدس الساقي فيه إصبعه... حدث أني أمسكت بأحد السقاة من خلف الباب وهو يبصق في طبق به لحم عجول محشو. انطلقت آخذ منه الطبق، فكَفَأه الساقي على وجهي وبصق فيه، بصق في وجهي مرة أخرى وأنا أزيل الصوص اللزج البارد من على عيني كي أتأكد من أنه يكرهني. وكأنها إشارة جعلت كل من في المطبخ ينطلق ناحيته، كل صغار السقاة جاؤوا، وبصقوا كلهم في وجهي، وظلوا يبصقون إلى أن جاء براندايس بنفسه، وبصق هو الآخر بصفته رئيس سوكول عن مدينة براج، ثم قال إنهم قد استغنوا عن خدماتي... انطلقت إلى

20- المنظمة الأشهر والأكبر والأنجح في التاريخ التشيكي والسلوفاكي المعاصر. وهي منظمة معنية بدعم الرياضة البدنية. (المترجم)

صالة الطعام وأنا أنضح بالبزاق وصوص لحم العجول المشوي، وتوجهت إلى طاولة الآنسة ليزا، وأشرت بيدي الاثنتين لترى ما فعله بي أعضاء سوكول والتشيك بسببها. فنظرت إليّ، ومسحت وجهي بمنديل الطعام، وقالت إنها لم تتوقع غير هذا من المرتزقة التشيك، وإنها تحبني على ما تحملته من أجلها... وعندما خرجنا، وبعد أن استبدلت ملابسي كي أرافقها، هرول تشيك أنذال ونحن عند بوابة براشنا، وصفعوها بقوة حتى تطايرت قبعتها البافارية إلى طريق السيارات. وعندما أخذت أدافع عنها، وأصرخ بالتشيكية: ما الذي تفعلونه؟ هل أنتم تشيكيون؟ يا للقرف! دفعني أحد هؤلاء المرتزقة، وأمسكها رجلان منهم، وطرحاها أرضًا، وأمسك آخران بيديها، رفع أحدهم تنورتها، ونزعا جواربها البيضاء من على فخذيها البنيتين من أثر الشمس ومن على بطتي ساقيها بكل عنف، بينما أنا أصرخ، وهم يضربونني: ما الذي تفعلونه، أيها التشيك المرتزقة! وبقيت أصرخ إلى أن أطلقوا سراحنا بعد أن أخذوا جوارب الآنسة ليزا وكأنها رأس أبيض اجتزوه، أو غنيمة بيضاء، بينما تقدمت معها عبر الممر إلى ميدان صغير، وهي تبكي وتلهث، وتقول: صبرًا يا رعاع البلاشفة، لن تفلتوا من العقاب، تفضحون مدرسة ألمانية من خِب!... شعرت وقتها بأني إنسان كبير. أمسكت بي، وكنت في حالة فوران، ورحت أبحث عن بطاقة عضويتي في سوكول كي أمزقها، ولم أعثر عليها... فجأة اغرورقت عيناها بالدموع وهي تنظر إليّ، وانفجرت في البكاء من جديد وسط الشارع، ثم أسندت وجهها

إلى وجهي، والتصقت بي بكل جسدها. عرفت أن عليّ أن أحميها، وأدافع عنها أمام كل من أراد من التشيك أن يؤذي حتى شعرة واحدة في هذه الفتاة الشابة، ابنة صاحب فندق ومطعم أمستردام في مدينة خِب التي اُعتبرت في خريف العام الماضي ضمن أراضي الرايخ الألماني، فتوجه جميع السوديت[21] إلى هناك، عادوا إلى حيث كانوا قبل عدة سنوات، إلى الإمبراطورية الألمانية. والآن يحدث للألمان المساكين في براج المتأثرة بتوجهات سوكول ما رأيته بأم عيني، وما فسر السبب في احتلال مناطق السوديت، والسبب الذي أوصل براج إلى هذه الدرجة حيث هددوا حياة المواطنين الألمان، ولوثوا سمعتهم، وحطوا من شأنهم... طردت من فندق باريس، ولم يقبلني أحد ولا حتى كنادل صغير. في كل مرة تأتيني أخبار بأني مواطن تشيكي متعاطف مع الألمان رغم أني أحد أعضاء سوكول، وأرافق في الوقت نفسه مدرسة تربية بدنية ألمانية. بقيت بلا عمل لفترة طويلة، إلى أن جاءت أخيرًا الجيوش الألمانية، واحتلت براج، وكل الأراضي التشيكية... كانت الآنسة ليزا اختفت من حياتي لمدة شهرين. أخذت أرسل لها الخطابات عبثًا، لها ولأبيها. وفي اليوم التالي لاحتلال براج كنت في نزهة في ميدان المدينة القديمة، ورأيت جيش الإمبراطورية يطهو أنواعًا من الحساء في مراجل تفوح منها رائحة شهية، ويوزعونها على المواطنين في علب. رأيتها

21- السوديت اسم يطلق على جميع سكان المناطق الحدودية التشيكية (وخاصة الغربية والشمالية والجنوبية) من أصول ألمانية ويتحدثون اللغة الألمانية. (المترجم)

بينما أقف أشاهد ما يحدث، في ثوب صغير مخطط، وشارة حمراء على صدرها، ومغرفة في يدها! إنها ليزا! لم أخاطبها. نظرت إليها للحظات وهي تصب الحساء وتوزع الأطباق بابتسامة. استفقت من بعدها على ما يبدو من دهشتي، وانتظمت في صف المنتظرين، وعندما جاء دوري أعطتني كوبًا به حساء ساخن. لم تظهر أي علامة دهشة ولا سعادة وهي تنظر إليّ. رفعت قامتها بكل خيلاء، فخورة بملابسها العسكرية التي تقول إنها ممرضة في الجبهة الأمامية، أو لا أدري تحديدًا معنى هذا الزيّ العسكري. أخبرتها أني عاجز عن الحصول على وظيفة منذ أن دافعت عن كرامتها عند بوابة المدينة القديمة، يوم ارتدت الجورب الأبيض. فطلبت أن يحل أحد محلها، وعلقت في يدي وهي تضحك سعيدة. شعرت وقتها، كما شعرت هي الأخرى أن جيش الإمبراطورية جاء ليحتل براج بسبب جواربها البيضاء وبسبب طردهم لي من الفندق. أخذنا نتجول في منطقة برشيكوبي، الجنود يلقون التحية على ليزا بأزيائهم الرسمية، وأنا أحني لهم رأسي في كل مرة. فكرت، وهي أيضًا على يبدو، أن نتوجه إلى المكان الذي سقطت فيه على الرصيف قبل ثلاثة أشهر، وجردوها عنوة من الجورب الأبيض، إلى بوابة المدينة القديمة. ثم دخلنا إلى فندق باريس، وقفت أبحث عن طاولة فرأيت أن الضباط الألمان على كل الطاولات، وقفت أنا والآنسة ليزا بزي ممرضة، بينما امتقعت وجوه صغار السقاة ورئيسهم السيد سكرشيفانك وهم يقومون على خدمة الضيوف الألمان. جلسْت بجوار النافذة، وتحدثت

بالألمانية أطلب قهوة فيينا[22] مع كأس رَم صغير. هكذا كنا نقدم القهوة من قبل، على طريقة فندق ساخار Wiener Kaffé mit bespritzter Nazi. كم كان شعورًا جميلًا عندما جاء السيد براندايس، وحنى رأسه، ومال به ناحيتي أنا أيضًا احترامًا، وفجأة أخذ يتكلم معي. حدثني عن تلك الحادثة المؤسفة التي وقعت وكنت جزءًا منها، واعتذر لي... أخبرته أني لا أقبل أسفه، وأني سأراجع الأمر... قلت للسيد سكرشيفانك وأنا أدفع له الحساب: أترى! لم تنفعك خدمتك لملك إنجلترا في شيء... ثم هممت واقفًا، وتجولت بين الطاولات. ضباط الجيش الألماني يحيّون الآنسة ليزا، وأنا أيضًا أومئ لهم برأسي، وكأن التحية تخصني أنا أيضًا... رافقت الآنسة ليزا في تلك الليلة. في البداية توقفنا في كازينو عسكري في برشيكوبي يقع في أحد الأبنية الباهتة. شربنا شمبانيا في نخب احتلال براج. كبار الضباط يقرعون مع ليزا الكؤوس، ومعي. في كل مرة تقول لهم إنني تصرفت بشجاعة، ودافعت عن شرفها الجرماني ضد جماعة الجندية التشيكية، وأنا أميل برأسي، أشكرهم على تحيتهم لي، وعلى الكؤوس المرفوعة. لم أعرف يومها، ولم يكن في وسعي أن أعرف أن التحيات كلها موجهة إلى ليزا، وحدها دون غيرها، وأنهم تجاهلوني، تحملوا وجودي، وأجبروا على احترامي كتابع لـ ليزا، قائدة الممرضات العسكريات، كما عرفت من مناداتهم لها أثناء قرع الكؤوس...

22- اسم نوع من القهوة شهير في النمسا وكذلك في التشيك. وهي قهوة تصنع بصب ماء مغلي على بن مسحوق، ووضع طبقة من الكريمة أعلاه. (المترجم)

ملأني شعور جميل بأن في مقدوري أن أشاركهم الاحتفال، أن أكون وسط كبار الموظفين والضباط، أن أكون وسط شباب بعيون زرقاء، وشعر أشقر مثل شعري أنا التشيكي الذي لا يجيد الألمانية، رغم هذا شعرت بأني رجل ألماني، أسعى إلى أن ألتقي بالآنسة ليزا، أن أدوس فردة حذائها الأسود كما في حكاية الأميرة النائمة. هكذا عدت من الحفل إلى مكان لم أظهر فيه من قبل. طلبت مني ليزا أن أنظر إلى شجرة عائلتي، فمن المؤكد أني سأعثر فيها على جد من أصول جرمانية. لكني أخبرتها أن شاهد قبر جدي مكتوب عليه يوهان ديتيا، وكان سائسًا عند أحد الأسياد. وكنت دائمًا أخجل من سائس الخيول هذا. لكنها بعد أن سمعت ما قلته، وكأنني قد كبرت في عينيها أكثر من لو كان جدي نبيلًا تشيكيًّا. بدا أن اسم ديتيا قد أسقط جميع الحصون والحوائط الهشة التي وقفت حائلًا بيننا. صمتت طوال الطريق، ثم فتحت باب بيت عتيق، وصعدنا فوق الدرج. تقبلني طويلًا في كل طابق من طوابقه، وتدس يديها في ما بين فخدي تدلكه. ثم دخلنا إلى غرفتها الصغيرة، أضاءت مصباح المكتب. كانت مبللة في كل مكان، في عينيها، وشفتيها، وابيضت عيناها. سقطت على الأريكة، وعادت تقبلني قبلات طويلة، تلعقني بلسانها، تحصي به عدد أسناني، وهي لا تكف عن التأوه، والنحيب مثل بوابة بيت تتأرجح وسط الرياح. بعدها لم يحدث سوى ما توقعته، وما لم أبادر به كما كنت أفعل من قبل، بل بادرت به هي. هي التي كانت ترغب في، وسمحت لنفسها بكل شيء. جردت نفسها من

ملابسها، وراحت تراقبني وأنا أخلع ملابسي. تخيلت بما أنها في العسكرية سوف تلبس سروالًا داخليًّا عسكريًّا، وحمالة صدر عسكرية. فتيات المستشفيات العسكرية بالتأكيد لا يلبسن إلا الملابس المصرح بها. لكن كل ما عليها كان كسائر الفتيات اللواتي ترددن على فندق باريس لتقديم العروض أمام رجال البورصة، وكسائر فتيات رايسكا. بعدها التصق جسدانا العاريان وكأنهما قد انصهرا، وكأننا قوقعتان ملتصقتان ببعضهما بذلك الجسد الرطب الناتئ من القوقعة. اهتزت ليزا بعنف، وارتجفت. ولأول مرة أعرف أني قد وقعت في الحب، وأني صرت محبوبًا. أمر يختلف تمامًا عما عرفته في السابق، لم تطلب مني أن أكون حذرًا، ولم تُملِ عليّ أي شروط. حدث كل شيء كما يجب أن يكون. الحركات والتلاحم، والطريق إلى المرتفع، والاستنارة، وبريق الضوء، والصراخ واللهاث المكبوت. بعدها لم تظهر أي خوف مني، ولا للحظة. ماجت ببطنها أمام وجهي، تحتضن رأسي بساقيها، وتدسه بين فخديها بقوة، لم تخجل، بل على العكس، وكأنها من طبائع الأمور. وقفت وتركتني ألعق بلساني طويلًا، ثم استجمعت قواها، ودست لسانها في فمي لترسل لي كل ما تشعر به في جسدها... بعدها نامت على ظهرها، وعقدت ذراعيها، وفرجت ساقيها، فلمعت كتلة شعر فاتح، مصفف إلى أعلى، بينما وقعت عيناي على طاولة، فوقها صحبة ورد من توليب ربيعي، وغصينات البتولا النضرة، وبضعة غصينات الصنوبر، وكأنه حلم لم أرَ مثله. راودتني بعدها ذكرى لا تُنسى، فقطعت الأغصان إلى

جذل صغيرة، وطوقت بها فرجها. مشهد رائع، بطنها تحفه غصينات الصنوبر من كل جانب. نظرت في عيني. طأطأت رأسي، وقبلت ما بين تلك الغصينات. شعرت حول فمي بلدغات الغصينات الحادة. حملت هي رأسي برقة ووضعته في كفيها. قامت، ودست ما بين فخديها في وجهي بقوة حتى انتحبت من الألم، وببضع خفقات ببطنها بلغت حد النشوة وراحت تصرخ بعنف، ثم ارتمت على جانبها تزفر بقوة حتى ظننت أنها تحتضر أو ستلفظ أنفاسها... لكنّ شيئًا من هذا لم يحدث. مالت فوقي، وفتحت أصابعها العشرة، وهددتني بأن تنهش وجهي وجسدي كله. هكذا عبرت عن رضاها وامتنانها. مرة أخرى فرجت مخالبها من فوقي، ثم ضمتها متشنجة، وانفجرت بعد لحظات في بكاء تحول إلى نحيب خفيف، تبعته ضحكات خفيفة... وبقيت أنا هادئًا صامتًا، مستلقيًا بكل استسلام. رأيتها وهي تنزع بأصابعها بسرعة بقايا غصينات الصنوبر، وكسرات الأوراق، مثلما يفعل حراس الغابات عند صيد الفريسة. رأيتها وهي تغطي بطني، وعضوي المرتخي، رأيت حجري كله مغطى بالغصينات، ثم قامت، وملست بيديها على جسدي، وقبلت عضوي ما جعله ينتصب رويدًا، وفجأة ارتفعت الغصينات، واخترقها عضوي الذي ارتفع تدريجيًّا، وأزال الغصينات، لكن ليزا سوت الغصينات من حوله بلسانها، ثم رفعت رأسها، ودست عضوي بأكمله في فمها وحتى حلقها. أردت دفعها بعيدًا، لكنها طرحتني أرضًا، ودفعت يدي بعيدًا. تطلعت إلى السقف، وتركتها تفعل بي ما تشاء. لم أفكر إطلاقًا في انتقاد

فظاظة سلوكها وخشونته بعد أن امتصت عضوي بقسوة في حلقها، وبضربات وحركات عنيفة من رأسها دون أن تزيل الغصينات أو تبعدها، فوخزت في فمها حتى دمى. يبدو أن هذه هي عادة الجرمانيين. كدت أشعر بالخوف منها... أخذت بعدها تلعق بطني بلسانها وتترك خطيطًا من لعابها عليه مثل حلزون. تقبلني وفمها ممتلئ بسائل منوي وبقايا غصينات الصنوبر، ولم تعتبر هذا مخالفًا لآداب النظافة، بل على العكس، اعتبرته قمة النشوة، جزءًا من القداس. فهذا جسدي، وهذا دمي، وهذا لعابي، وهذا السائل مني ومنكَ. كل هذا ربط بيننا، وسيظل يربطنا إلى الأبد، كما قالت، لأننا تبادلناه بيننا، رائحة السوائل والزغب.

هل اكتفيتم؟ هذا كل ما لديّ اليوم.

ولم أعثر على رأسها

اسمعوا وعُوا ما سأقصه الآن عليكم:

كانت وظيفتي الجديدة كنادل صغير، ومن بعدها كبير السقاة في الجبال التي تعلو مدينة دياتشين[23]. كدت أصعق من الدهشة عندما وصلت إلى ذلك الفندق. لم يكن فندقًا صغيرًا كما توقعت، بل مدينة صغيرة، أو قرية كبيرة وسط الغابات وينابيعها الساخنة. هنا الهواء عليل، يصلح أن يكون شرابًا في كأس. يكفي مواجهة النسيم العليل، وابتلاعه على مهل مثل سمكة تبتلع الماء بخياشيمها. هناك تسمع بكل وضوح وجلاء الأكسجين المختلط بالأوزون وهو يتغلغل وسط ضلوعك، تشعر برئتيك، وصدرك وهو يستنشق الهواء وكأنك إطار سيارة فُقأ قبل أن تأتي إلى هنا بزمن، وهنا في هذا الهواء العليل قمت بملئه تلقائيًّا بالهواء لتواصل السير بكل أمان وراحة. أحضرتني إلى هنا ليزا في سيارتها العسكرية، وأخذت تتجول في المكان وكأنه بيتها، ابتسامة دائمة لا تفارقها وهي ترافقني على طريق

23- مدينة تشيكية في شمال غرب البلاد. (المترجم)

مشجر طويل يشكل البهو الرئيس للفندق. تماثيل ألمانية ذات قرون، تماثيل الملوك والقياصرة، كلها صنعت من المرمر أو الحجر الجيري الأبيض الذي تلألأ مثل حبات السكر. على نفس الشكل كانت باقي المباني الإدارية الأخرى التي انفصلت عن البهو الرئيس مثل أوراق الأكاسيا. انتشرت بُهيّ أخرى في كل مكان، تتصدر مدخل كل مبنى يمكنكَ أن تمر بها، أو عليك أن تمر به، ببهو أعمدة به نفس التماثيل ذات القرون. كذلك كانت كل الحوائط مزينة بنقوش تحكي أمجاد الألمان الغابرة، وقت أن كانوا يتحركون بفؤوس في أيديهم، ويلبسون الجلود. أمر يشبه الأساطير التشيكية القديمة التي كتبها يِراسِك[24]، الفارق هو أن الملابس ألمانية. شرحت لي ليزا كل شيء، وأنا في غاية الدهشة. تذكرت الخادم العملاق في فندق تيخوتا الذي كثيرًا ما تحدث بكل حماس عن أشياء مستحيلة صارت واقعًا. ما رأيته كان كذلك. أخبرتني ليزا بكل فخر عن أن الهواء هنا هو أفضل هواء في وسط أوربا، وفي مكان آخر قريب من براج فوق مرتفع أوهليتشكا وفي بودمورشاني. هنا أول محطة أوربية لتناسل نبلاء البشر، فأسس الحزب القومي أول تلقيح للفتيات الألمانيات ذوات الدم النقي، والجنود الألمان الأنقياء من هيريزسواف أو

24- ألويس يراسِك (1852-1930) كاتب وسياسي تشيكي ألف كتاب «الأساطير التشيكية القديمة» يحكي عن أحداث من التاريخ التشيكي بناء على الأساطير الشعبية وبعض الحقائق التاريخية. (المترجم)

شوتسشتافل[25]. كل شيء حسب قواعد علمية. هنا يوميًّا يحدث جماع قومي اجتماعي كما فعلها الجرمان القدماء بكل وضوح. هنا أمهات المستقبل اللواتي يحملن في أرحامهن سكان أوربا الجدد. يلدن أطفالهن هنا، وبعد عام يتفرقن في جبال تيرول وبافاريا والغابة السوداء، أو عند البحار كي يواصلن تربية الإنسان الجديد في أولى رياض الأطفال والمدارس، من دون أمهاتهن بالطبع، وتحت أعين المَدرسة الجديدة. وهكذا أرتني ليزا بيوتًا صغيرة جميلة بنيت على شكل بيوت ريفية، زهور مائلة فوق نوافذها الأمامية وشرفاتها وأفنيتها الخشبية. رأيت أمهات المستقبل فتيات قويات مثل نساء الفلاحين، شقراوات وكأنهن قادمات من زمن غير هذا الزمن، لسن من هومبولاتس أو من هناكي، بل من قرى نائية، حيث لا يلبسون هناك سوى سراويل مخططة، وسترات فتيات سوكول، أو تلك التي كانت ترتديها بوجينا في الصورة وهي تغسل الملابس، وأعجب بها أولدرشيخ[26] وهو يمر فوق حصانه. صورهن جميعًا رائعة. يمشين، مجبرات على الحركة رويدًا وباستمرار في تلك البُهي وكأنه هذا هو عملهم الوحيد، يتطلعن إلى تماثيل المقاتلين ذات القرون، أو يتوقفن أمام تماثيل الملوك وقياصرة الألمان البهية، يطبعن في عقولهن ملامح الوجود والأجساد، ويحفظن تاريخ أبطال الماضي الغابر.

25- حرفيًّا معناها سرب الحماية وهي منظمة شبه عسكرية قادها أدولف هتلر في ألمانيا النازية. (المترجم)

26- "بوچينا" و"أولدرشيخ" من أمراء الأسطوريين. جاء ذكرهما في كتاب الأساطير التشيكية من القرن العاشر الميلادي. (المترجم)

كل هذا عرفته وسمعته من نوافذ قاعات الدرس، حيث تحدثوا عن هؤلاء الخالدين. هناك أيضًا اختبروا أمهات المستقبل ليتأكدوا من أنهن يتذكرن هذا التاريخ، ويحفظنه عن ظهر قلب، وهذا فرض على تلك النساء. قالت أيضًا ليزا إن تلك الصور المطبوعة في عقولهن تهبط في أجسادهن، وتسقط على شكل رضاب، ثم شرغوف، ثم علجوم، إلى أن يصبح إنسانًا صغيرًا، قزمًا يتحول بالتدريج، شهرًا وراء شهر وحتى الشهر التاسع إلى إنسان. كل هذه المعارف، والمطالعات لا بدَّ أن يظهر أثرها على هذا المخلوق الجديد... جابت ليزا بي المكان مع كل هذه الشروحات وهي تتعلق بي. لاحظت وهي تمسد على شعري الأشقر أنها تخطو بسعادة. عندما عرفتني على رئيس القسم قدمتني له باسم ديتيا، مثلما كُتب على قبر جدي في مقبرة تسفيكوف. عرفت أن ليزا تتمنى أن تقضي هنا تلك الأشهر التسعة أو يزيد، من أجل أن تهدي الإمبراطورية حفيدًا من سلالة نقية... عندما تخيلت أن كل ما يتعلق بطفل المستقبل يجب أن يحدث كما كنا نفعل بالبقرة حين نقدمها للثور، أو العنزة حين تتزاوج مع الكبش. أخذنا نطالع رواق الأعمدة والتماثيل، في النهاية تأكدت من أني لا أرى شيئًا هناك، وأن ما أراه يثير الفزع. سحابة صغيرة من الرعب الرهيب تطوقني من كل جانب... تذكرت، سعيًا في طلب الحماية، أني صغير، وأنهم لم يقبلوني في سوكول، رغم أني تلويت فوق القضبان، ودرت في دوائر الكبار، تذكرت ما حدث لي في فندق باريس وتلك الملعقة الذهبية الصغيرة، ولفظهم لي لمجرد أني

وقعت في غرام مدرسة تربية بدنية ألمانية. والآن أرى رئيس معسكر التناسل القومي الاجتماعي يصافحني بنفسه. رأيته ينظر إلى شعري الأشقر بلون القش، ويبتسم لي في رقة وكأنه قد رأى فتاة جميلة، وكأنه قد احتسى ليكير، أو أفضل أنواع الخمور التي يحبها. عندما رأيت كل هذا مددت جسدي، رغم أني لم ألبس ياقة صلبة تحت بدلتي. لأول مرة أكتشف أنه ليس شرطًا أن تكون قامتي طويلة كي أكون عظيمًا، الأهم هو ما أشعر به. أخذت أنظر من حولي بهدوء. توقفت عن الشعور بأني نادل صغير، بل ساعٍ. ساعٍ صغير حكم عليه أن يكون قصيرًا حتى آخر يوم في عمره، سمح للآخرين أن ينادوه بـ«القصير»، و«الصغير»، سمع سخريتهم من لقبه ديتيا[27]. لكنه هنا السير ديتيا، واختفى معنى الطفل من الكلمة عند الألماني، ومن المؤكد أنه ارتبط بأمر آخر مختلف، أو لا يمكن ربطه في الألمانية بأي شيء. لذلك صرت هنا إنسانًا موقرًا، سيحسدني على اسم ديتيا -كما قالت ليزا- نبلاء بروسيا وبوموراني الذين حملوا في أسمائهم آثار أصول سلافية مثلي أنا، سليل عائلة ديتيا، النادل في القسم الخامس، المسؤول عن خمس طاولات وقت الظهيرة، وخمس طاولات وقت العشاء، وخمس نساء ألمانيات حوامل. في كل مرة يدقون الجرس في طلبي كي أحمل لهن الحليب، وكؤوس الماء الساخنة والباردة، وكعكة تيرول، أو أطباقًا من اللحم البارد، وكل ما تضمه قائمة الطعام عندنا...

27- كلمة ديتيا (dítě) في التشيكية معناها طفل. (المترجم)

ازدهرت حياتي هنا، وكما كنت ناجحًا في الخدمة في فندق تيخوتا، أو فندق باريس، صرت هنا الشخص المفضل لدى الألمانيات الحوامل. تمامًا كما كنت لدى فتيات البار في فندق باريس يوم الخميس كلما جاء رجال البورصة إلى الشامبر سيباريه... لكن هؤلاء الألمانيات، مثلهم مثل ليزا، افتتن جميعًا بشعري، وببزتي. أجبرتني ليزا بعد ذلك وأنا أقدم الطعام في أيام الأحد أو الأعياد على أن أحمل على صدري الوشاح الأزرق، والنوط المطليّ بالذهب وبه حجر أحمر، في منتصفه عبارة Viribus Unitis، علمت هنا أن عملة الحبشيين هي تالر ماريا تريزا... وهكذا صار لي لقب الساقي الذي خدم ملك الحبشة، هنا في هذه المدينة الصغيرة التي توافد عليها كل مساء جنود من كل الأسلحة، جاؤوا يتزودون بما طاب لهم من طعام، ويسعدون بأطيب أنواع النبيذ الرايلاندي، والموزيل، بينما الفتيات لا يشربن سوى كؤوس الحليب. بعدها يُسمح للجنود بالدخول عليهن تحت رقابة علمية مستمرة. صرت رئيسًا للسعاة مثل السيد سكرشيفانِك في فندق باريس الذي خدم ملك إنجلترا. فأصبح لي نادل صغير السن قمت على تعليمه، مثلما فعل معي السيد سكرشيفانك، علمته أن يتعرف على البلدة القادم منها أي جندي، وما الذي سيطلبه. أخذنا أيضًا نتراهن على عشر ماركات ألمانية نضعها أيضًا على طاولة مناولة صغيرة، وغالبًا ما كنت أفوز. تيقنت من أن الشعور بالنصر هو الأهم، وأن الشخص الخاضع الراضي بالاستكانة سيبقى هكذا طيلة حياته، ولن يفارقه هذا الشعور، خاصة في

وطنه، وفي بيئته، حيث يرونه صغيرًا، ويظل بينهم وضيعًا إلى الأبد، كما كنت أنا وسط أهلي. لكن الألمان احترموني وعظموا من قدري... كنت عصر كل يوم، وكلما سطعت الشمس أحمل كؤوس الحليب أو الحلوى، أحيانًا يكون حليبًا دافئًا، حسب الطلب، أو شايًا، أحمله إليهن في الحمامات الزرقاء حيث يسبح الحسناوات الألمانيات الحوامل، يسبحن عاريات تمامًا. ما أسعدني أنهم اعتبروني كأحد الأطباء. بمقدوري أن أنظر إليهن وإلى أجسادهن الرائعة وهي تموج، وهن يمددن أيديهن وسيقانهن، فتهتز أجسادهن مفرودة، لتتخذ أياديهن من جديد أوضاع السباحة الفاتنة. لكن لم تهمني أجسادهن كثيرًا بعد أن وقعت في غرام شعورهن. لم أتوقف كثيرًا أمام أجسادهن. أحببت الشعر الأشقر مثل لون القش وهو يطفو ويتطاير خلف أجسادهن، الشعر الذي انفرد عن آخره أثناء حركات الأيادي والسيقان القوية بدت وكأنها تتوقف عن الحركة للحظات، فتموج أطراف الشعر وسط أشعة شمس رائعة، وعلى خلفية حوائط حمام السباحة الزرقاء والخضراء، تموج فوقها المياه فتقذف أطراف سطحها المتكسر بشمسه وأمواجه الخفيفة. تلاطم معسول، وظلال الحركات والأجساد ترتد على الحوائط، وأرضية الحمام الزرقاء. أقف أتابعهن وهن يضممن سيقانهن تحت أجسادهن أثناء السباحة، ثم يستقمن، ويقفن بصورهن وبطونهن التي تسيل من فوقها المياه مثل حوريات الماء. فأقدم لهن الكؤوس ليشربن، أو يأكلن في دعة. بعدها يغطسن بأيادٍ معقودة وكأنها الصلوات، يدفعن

الماء بحركات أولية، ثم يواصلن السباحة، ليس من أجل سعادتهن، بل من أجل أطفال المستقبل. بعد مرور بضعة أشهر رأيت أمهات وأطفالهن الصغار يطفون فوق الماء في حمامات سباحة مغطاة. أطفال وليدة بعمر ثلاثة أشهر تسبح مع النساء، مع أمهاتهن وكأنهن إناث دببة مع صغارها، ملتصقة بها، أو بطّات صغيرة تطفو بعد أن خرجت للتو من بيضاتها. فهمت أن تلك النسوة اللاتي حملن أطفالهن في بطونهن ويسبحن اعتبرنني عبدًا حقيقيًّا، مجرد عبد يرتدي بزة، اعتبرنني غير موجود، وكأنني وتد يعلقن عليه ثيابهن فلا يستحين مني. كنت خادمًا، أشبه بمهرج الملكات، أو قزم صغير. فكلما خرجن من الماء حرصن على أن يتوارين من أعين المتلصصين خلف سور مكسو بألواح خشبية. ذات مرة فاجأهم أحد السكارى من رجال الحزب النازي فصرخن، وخبأن بطونهن في المناشف، وعقدن أيديهن على صدورهن، وهربن إلى الكبائن. لكن عندما أحمل لهن الكؤوس فوق الصينية يقفن عاريات بكل اطمئنان، يتحدثن ويلهون متكئات بيد على الأعمدة ويدلكن بالأخرى بطونهن الذهبية المشعرة. حركات حذرة حرة، ينظفن أمامي ما بين أفخاذهن طويلًا، ثم مؤخراتهن. ثم يأخذن الكؤوس ويشربن وأنا أقف وكأنني طاولة صغيرة يضعن عليها أشياءهن. أتفحص أجسادهن كيفما أشاء. لا شيء فيّ يعكر صفوهن، أو يقلق راحتهن. يواصلن تجفيف ما بين أفخاذهن بكل حرص وعناية، ثم تمد كل منهن يدها لتجفف كل ثنية في صدرها وكأنني غير موجود... لكن ما إن تحط طائرة

حتى يتفرقن في الكبائن، يصرخن ويضحكن. بعدها بلحظات يتجمعن مرة أخرى في نفس الأماكن، بينما أقف أنا، أحمل الصينية وعليها كؤوس الشراب البارد... كنت في أوقات فراغي أكتب خطابات مطولة أرسلها إلى ليزا التي انتقلت بالقرب من مدينة وارسو التي احتلوها، ثم إلى باريس. بعدها حدث جراء تلك الانتصارات بعض التخفف في النظام. بنوا خارج هذه المدينة الصغيرة منطقة ملاهٍ، وألعاب نارية، وأراجيح، وكل ما عرفناه من ملاهي مدينة براج. كثير من أنشطة اللهو. زينوا اللافتات بنفس الأشكال على بيت المدينة الصغيرة، بصور حوريات وصور تعبيرية لنساء وحيوانات. وهكذا بدأت الفيالق الجرمانية مرتدية خوذًا ذات قرون تتدفق إلى مناطق الألعاب النارية وتعتلي الأراجيح. تعلمت تاريخ الألمان من خلال تلك الصور. بقيت طوال العام أنتقل من صورة إلى أخرى. وكلما أسعفني الوقت أسأل مسؤول الشؤون الثقافية فيجيبني بكل سعادة وهو يخاطبني بعبارة عزيزي السيد ديتيا. كان ينطق كلمة ديتيا بعذوبة جمة حتى إني كنت أعاود سؤاله كي يعلمني من خلال تلك الصور والنقوش ماضي الألمان المجيد. فيومًا ما أريد أن أكون أبًا لطفل ألماني، حسبما تعاهدت مع ليزا التي جاءت وقالت تحت تأثير الانتصار على فرنسا إنها تطلبني للزواج، وإني سوف أتقدم بطلب يدها من أبيها، صاحب مطعم أمستردام في مدينة خِب. وهكذا صار المستحيل واقعًا، وخضعت في المدينة لفحص من قبل القضاء الأعلى. وقفت أمام القاضي وطبيب جيوش النازية.

قدمت طلبًا مكتوبًا، وسجلت فيه كل شجرة عائلتي حتى جدي المدفون في جبانة تسفيكوف، يوهان ديتيا، وذكرت فيه أصله الآري والجرماني، وقلت في الطلب إنه ليشرفني أن أطلب الزواج من ليزا إليزابيث بابانيك، وحسب قوانين الإمبراطورية أطلب فحص أهليتي الجسمانية حسب قوانين نورمنبرج بحكم انتمائي إلى قومية أخرى، والتأكد من قدرتي على النكاح، وإنجاب طفل من أصل جرماني آري. في الوقت الذي كانت فرق الإعدام تمارس عملها في براج، وفي برنو، وتصدر أحكام الإعدام في مناطق أخرى وقفت أنا عاريًا أمام الطبيب الذي أخذ يرفع قضيبي بعصاه، وأمرني أن أستدير ليدس عصاه في مؤخرتي ليفحصها، ثم وزن خصيتي بيديه، وراح يملي بصوت مرتفع كل ما رآه، وفحصه، دقق بيده في كل مكان، بعدها طلب مني أن أستمني، وأحضر بعض المني بغرض الفحص العلمي. فقد علّق ذلك الطبيب بلغة ألمانية نازية مخيفة لم أفهمها، لكني خمنت معناها بكل ثقة، وقال بكل استياء: عندما يرغب تشيكي حقير الزواج بامرأة ألمانية فمن باب أولى أن يكون منيّه أكبر قيمة من مَنِيّ أقل خادم في فندق بمدينة خِب. ثم أضاف إن البصاق الذي تلفظه امرأة ألمانية بين عيني، هو لها سُبّة ولي شرف... لاحظت فجأة من على بعد أخبارًا في الصحيفة تقول إن الألمان يطلقون النار على التشيك بينما أنا ألهو بقضيبي كي أكون جديرًا ولائقًا بالزواج من امرأة ألمانية. فجأة ملأني الذعر من حالات الإعدام التي تحدث، وأنا هنا أقف أمام الطبيب ممسكًا بقضيبي في قبضة يدي، وعاجز

عن قذف المني لأقدم بعض قطرات منه. انفتح الباب بعدها، ومن ورائه يقف ذلك الطبيب يحمل ملفاتي بين أصابعه، ويقرأ منها على ما يبدو بكل وضوح عن أمر يخصني، فقد قال بلهجة دمثة: Herr Ditie, was ist den los[28]...?. ثم ربت على كتفي، وأعطاني صورًا. أشعل المصباح فإذا بي أنظر إلى مجموعة من الصور العارية. رأيتها كلها من قبل. كلما كنت أنظر إليها من قبل وأنا أحملها بين أصابعي يتوتر جسدي، لكني الآن كلما أمعنت فيها النظر لا أرى سوى عناوين الصحف وأخبارها التي تقول إن هؤلاء وأربعة غيرهم أدينوا وأطلقوا النار عليهم. في كل يوم مزيد ومزيد من الأبرياء... وأنا هنا أقف ممسكًا قضيبي بإحدى يدي، أضع بيدي الثانية صورًا عارية على الطاولة، عاجزًا عن تحقيق ما يطلبونه مني كي أصبح جديرًا بمضاجعة امرأة ألمانية، بعروسي ليزا. في نهاية المطاف جاءت ممرضة شابة، وبعد حركات من يدها لم أقدر خلالها على التفكير في أي شيء، ولم أكن مضطرًّا إلى ذلك. كانت يد الممرضة الشابة ماهرة للغاية. بعد دقائق حملت على ورقة نقطتين من منيي الذي تأكدوا منه بعد نصف ساعة من أنه لائق، وجدير بالولوج في مهبل آري بالوقار المطلوب.... هكذا لم يجد مكتب حماية الشرف الألماني والدم الألماني أي مانع من أن أحمل دمًا آريًّا. وبضربات قوية من الأختام حصلت على تصريح بالزواج، بينما التشيك المدافعون عن وطنهم يساقون إلى المشانق بنفس ضربات الأختام. أقيم

28- السيد ديتيا! ما عسانا أن نفعل معك؟ (المترجم)

حفل الزواج في خب، في صالة حمراء ببلدية المدينة. الأعلام الحمراء التي تحمل صليبًا معقوفًا ترفرف في كل مكان. الموظفون يرتدون الملابس الرسمية البنية ذات الشرائط الحمراء فوق أكتافهم، وفوق الشرائط صليب معقوف، وأنا أرتدي بزة بالوشاح الأزرق فوق صدري، والنوط الذي منحني إياه ملك الحبشة. ارتدت العروس ليزا ثوب الصيادين، سترة مزينة بأغصان البلوط، وعلى الصدرية صليب معقوف على خلفية حمراء. لم يكن حفل زفاف بمعنى الكلمة، بل إجراء عسكري رسمي، لم ينفكوا خلاله يتحدثون عن الدم والشرف والواجب. في نهايته توجه إلينا عمدة المدينة الذي ارتدى لباسًا رسميًّا وحذاء برقبة عالية، ونفس القميص البني، وطلب منا بصفتنا العروس والعريس أن نتقدم من المذبح حيث تدلى من فوقه علم طويل يحمل الصليب المعقوف، وفوق طاولة المذبح الصغيرة تمثال نصفي لـ»أدولف هتلر»، مضاء من قاعدته، بملامح صارمة، وكأن ضوء المصباح من تحته يلقي عليه ظلال تجاعيد. أخذني العمدة من يدي، وكذلك فعل مع العروس، ودسهما في ذلك العلم، ثم مد ذراعه ناحيتنا في رداء الكهنة وعلى وجهه ملامح احتفالية. بعدها جاء دور طقس الزواج. قال لنا العمدة إننا صرنا منذ هذه اللحظة زوجين، وواجبنا هو التفكير الحصري في الحزب الاشتراكي القومي، وإنجاب أطفال علينا تربيتهم بروح هذا الحزب. اغرورقت عينا العمدة بعدها بالدموع، وطلب منا على نحو احتفالي ألا نشغل بالنا بما يحدث، وأنه لا يمكن أن ننخرط

معًا في الحرب من أجل أوربا الجديدة، لكنهم، الجنود والحزب سيواصلون هذه الحرب حتى النصر... ثم انطلقت من مشغل الموسيقى أغنية: Die Fahne hoch, die Reihen dicht geschlossen[29]. وأخذ الكل يغني معها، مع الأسطوانة. تذكرت أنا وليزا فجأة أني كنت أحيانًا أغني عند أسوار ستراهوف النشيد القومي التشيكي، رغم ذلك رحت أغني معهم في سري. لكزتني ليزا بكوعها بخفة، وعيناها تلمعان. واصلت غناء النشيد الألماني مع الآخرين... غنيت من قلبي وكأنني مواطن ألماني. ثم التفتت من حولي لأرى الشهود على حفل زفافي. من بينهم عقداء في الجيش، وكل كبار رجال الحزب في خِب. عرفت أنه لو كان حفل زفافي هذا في بلدي لما ذكره أحد. لكنه هنا، في خِب، صار حدثًا تاريخيًّا لأنهم يعرفون ليزا... انتهى طقس الزواج، ووقفت أمد يدي أصافح المهنئين، بدأت أتصبب عرقًا بعدما تأهبت بيدي لمصافحة كبار ضباط الحزب النازي والقوات المسلحة لكنهم لم يصافحوني. عدت بالنسبة لهم ذلك النادل الحقير، الإزْب التشيكي البحتري، بينما تداعوا كلهم على ليزا يهنئوها بصورة مستفزة. وقفت وحدي، لا أحد يمد لي يده لأصافحها. ربت العمدة على كتفي فمددت له يدي لكنه لم يتلقاها. وقفت للحظات وكأن جسدي قد تجمد من مد يدي. جذبني العمدة من كتفي، وأخذني إلى المكتب كي أوقع على أوراق، وأسدد نفقات الحفل. حاولت

29- مطلع النشيد الوطني الذي وضعه النازيون، ويقول: ارتفع العلم، وانتظمت الصفوف. (المترجم)

مرة أخرى، ووضعت مئة مارك إضافية على الطاولة، فقال لي أحد الموظفين بلغة تشيكية ركيكة رغم أني تحدثت معه بالألمانية إنهم لا يتقبلون هنا بقشيشًا، فهذا ليس مطعمًا، ولا حانة، بل مكتب لبُناة أوربا الجديدة، حيث يتحدد الشرف والأصل، وأن هذه لست براج حيث الإرهاب والرشاوى والممارسات الرأسمالية أو الشيوعية. أقيمت وليمة الزفاف في مطعم أمستردام. ومرة أخرى رأيتهم جميعًا يشربون في نخبي، رغم ذلك التفوا جميعًا حول ليزا، فبدأت أتقمص دور الآري المتسامح، وأيضًا المرتد عن وطنه. رغم أن شعري أصفر أشقر، وأحمل على صدري وشاحًا، وعلى ياقة بزتي نوطًا من الذهب. أخفيت مشاعري وتجاهلت ما أراه، رسمت الابتسامة على وجهي، حتى غمرتني سعادة من أني زوج امرأة شهيرة، وأن كل كبار الضباط لو كانوا ما زالوا عزابًا لتصارعوا عليها، لكن لا أحد منهم فاز بها، وفزت بها أنا دون غيري، أنا من فتنها. يبدو أن هؤلاء الجنود لا يقدرون إلا على الانقضاض على زوجاتهم في الفراش بأحذيتهم هذه ذات العنق الطويل، على زوجاتهم فقط كي يحافظوا على نقاء الدم والشرف. فاتَهم أن الحب، والمداعبة، والملاطفة مطلوب في الفراش أيضًا. وهذا ما أجدته أنا، وتعلمته منذ أن كنت أتردد على فتيات رايسكا، عندما طوقت بطن النادلة العارية بزهور اللؤلؤ وأوراق عصا الراعي المزدهرة... وفعلتها قبل عامين مع بطن هذه الألمانية الناضجة، قائدة ممرضات الجيش، وعضو الحزب الكبير. تلقت التهاني. لم يتخيل أحد ما رأيته منها، وهي مستلقية على ظهرها

عارية، وأنا أطوق بطنها بأغصان الصنوبر الصغيرة، وهي تتقبل ما أفعله بكل تقدير، ربما بتقدير أكبر من ذلك الذي نالنا عندما ضم العمدة يدينا في العلم الأحمر، وعبّر عن أسفه بأنه لا يمكننا الانخراط في الحرب من أجل أوربا الجديدة، من أجل الإنسان الوطني الاشتراكي الجديد. عندما لاحظت ليزا أني أبتسم، وأني قد قبلت باللعبة التي فرضت عليّ من خلال هذا المكتب الحكومي، رفعت كأسًا، ونظرت إليّ. هدأ الجميع أمام هذا الطقس. وقفنا أنا وهي متقابلين، وقفت كي تبدو قامتي طويلة، وقفنا متقابلين يحمل كل منا كأسه بين أصابعه، بينما كبار الضباط ينظرون، يتابعون، ويحدقون فينا، يخمنون وكأننا في جلسة استماع. ابتسمت ليزا نفس ابتسامتها ونحن في السرير يومًا، يوم أن كنت شهمًا معها شهامة الفرنسيين. تبادلنا النظرات، وكأنها عارية وأنا أيضًا. اتسع بياض عينيها، وظهرت تلك الغشاوة، حانت اللحظة التي تسقط فيها النساء في حالة تشبه الإغماء، لحظة أن تطرح المرأة عن كاهلها كل عائق، وتفتح الطريق لمن معها كي يفعل ما يحلو له حسب اللحظة التي ينفتح فيها عالم آخر، عالم المداعبة والملاطفة والحب... وعلى هذه الحال قبلتني قبلة دامت طويلًا أمام الجميع، فأغلقت عيني وكلانا ممسك بكأس الشمبانيا في يده الذي مال أثناء القُبَل، وسال منه النبيذ فوق السجادة، خرست كل الأصوات. من لحظتها وكأن صاعقة أصابت الجميع، وأخذوا ينظرون إليّ جميعًا نظرة إجلال. لم يتوقفوا عن البحث والفحص، إلى أن تأكدوا أن الدم الألماني يتناسب تمامًا مع الدم

السلافي. صرت بعد عدة ساعات أجنبيًّا، لكنه الأجنبي الذي يحترمه الجميع بقدر من الحسد الخفيف، أو ربما الحقد. أخذت النساء تنظر إليّ وهي تتخيل ما يمكن أن أفعله معهن في السرير؟ تقبلوا أني قادر على صنع مداعبات خاصة وألاعيب جريئة، فتنهدن بسعادة، وقلبت كل واحدة منهن عينيها، وانخرطن في الحديث معي على مهل، وكأنهن يعلمن نطق الكلام في روضة أطفال، يتحسبن إجاباتي، ويرين أن الأخطاء التي أفعلها في لغتي الألمانية هي أخطاء فاتنة تجعلهن يضحكن. أخطاء تمنحهن سحر الهضاب السلافية، والمروج وأشجار البتولا... لكن كل الجنود، سواء كانوا جنود النازي أو القوات المسلحة، كلهم كانوا قساة معي، غاضبين مني. عرفوا جميعًا أني قد استملت الجميلة الشقراء ليزا، وأنها فضلت الحب الطبيعي الرائع علي الشرف والدم الألماني... الحب الذي وقفوا أمامه جميعًا بلا حول ولا قوة، رغم النياشين والأوسمة التي حصلوا عليها بعد غزوتهم على بولندا وفرنسا...

بعدما عدنا من إجازة شهر العسل في مدينة صغيرة متاخمة لمدينة دياتشين حيث كنت أعمل نادلًا طلبت مني ليزا أن ننجب طفلًا. لكن ذلك لم يكن من طبعي، فقد استسلمت لتقلب مزاجي شأن أي سلافي أصيل، قدرت على أن أفعل كل شيء تحت تأثير اللحظة، لكن عندما أخبرتني أن أستعد شعرت مثلما شعرت يوم أن طلب مني طبيب الإمبراطورية، وحسب قوانين نوريمبرج، أن أحضر له بعض منيّي على ورقة بيضاء. كانت هذه حالي عندما

أخبرتني ليزا أن أستعد، وأنها في ذلك المساء على استعداد أن تتلقى هذا الإنسان الجديد في رحمها، مؤسس أوربا الجديدة القادمة بعد أن قضت أسبوعًا تستمتع إلى أوبرا لورينجرين وسيجفريد لـفاجنر من مشغل الأسطوانات. قررتْ أنه لو جاء ولد فسوف تسميه سيجفريد ديتيا. ظلت لأسبوع كامل تمشي وتطالع كل المشاهد على النقوش في بُهي الأعمدة والعرائش. تقف وقت الأصيل لترى ملوك الألمان وقياصرتهم، فرسان الجرمان وأنصاف الآلهة، يقفون منتصبين على خلفية سماء زرقاء، وأنا أفكر في أن أعاود فرش الورود على بطنها، في البداية مداعبة مثل مداعبات الأطفال، خاصة ونحن عائلة ديتيا[30]. جاءت ليزا ذلك المساء مرتدية روبًا طويلًا، خلت عيناها من أي علامة حب، امتلأتا بشعور الواجب، والشرف، والأصل الألماني. أعطتني يدها، وثرثرت بكلمات ألمانية، ثم تطلعت نحو السماء، وكأن كل من في سماء الجيرمان ينظرون إلينا من خلف سقف الغرفة، كل أقزام نيبلونج[31]، وفاجنر نفسه الذي استدعته ليزا كي يساعدها، كي تحمل جنينًا كما تتمنى، حسب الشرف الجرماني الجديد، كي تبدأ بالرحمة حياة جديدة لإنسان جديد في رحمها. إنسان سيؤسس لنظام جديد ودم جديد، وأفكار جديدة، وشرف جديد. عندما سمعت هذا شعرت بأن كل ما يجعل الرجل رجلًا قد

30- لقب العائلة ديتيا معناه بالتشيكية طفل. (المترجم)

31- عائلة نيبلونج حسب الأسطورة الألمانية عائلة أقزام ثرية اغتصب سيجفريد ثروتهم. (المترجم)

فارقني، فاستلقيت أتطلع إلى السقف، وأحلم بالجنة المفقودة، بكل جميل فقدته بالزواج، بحياتي العابثة مع كل النساء، والآن أجد نفسي أمام واجب وفرض، مثل كلب أصيل مع كلبة أصيلة. رأيت وعرفت كم أن الأمر صعب، مثل مُربّين يترقبون اللحظة المناسبة أيام بأكملها، ينتظرون أن يأتي مُربٍّ من أقصى أطراف الجمهورية يحمل كلبة، ثم ينصرف لأن الكلب الصغير المختار لا يريدها، وعندما يأتي للمرة الثانية عليه أن يترك الكلبة في صندوقها خلف الإسطبل، فتقوم سيدة بارتداء جوربها، وتمسك بقضيب الكلب وهي تهدد الكلبة بفرقعة سوط فوق رأسها من أجل أن تقبل ككلبة أصيلة معاشرة ذلك الكلب الهجين، أو أن ضابطًا كبيرًا لديه كلب برناردين، قضى طوال ساعات ما قبل الظهيرة ليعرفه على كلبة من شومافا، لكن عبثًا، لأن الكلبة أطول من ذلك الكلب... في نهاية المطاف يأخذهما المهندس مارزين إلى حديقة فوق سفح الجبل، وهناك يحفر حفرة، ويقضي ساعة يمهد الأرض لحفل زواج برناردين، وفي المساء ومع آخر عزقة لتمهيد المكان يحدث ما خططوا له بعد إرهاق طويل، يضعون الكلب أسفل إحدى درجات مسرح الزفاف ويحدث التزاوج بالإجبار. هكذا كانت حالي أنا... وأصبح المستحيل حقيقة، فبعد شهر أجبروني على تناول حقنة، حقنة تعزيز، دستة كاملة من الحقن الحادة مثل مسمار، طعنوني بها في مؤخرتي كي تشتد عزيمتي. وبعد حقني عشر مرات تمكنّا من الأمر. ضاجعت في إحدى الليالي ليزا حسب التعليمات... فحملت مني، لكنها هي

الأخرى خضعت لحقن تعزيز بسبب مخاوف الأطباء من أن الإنسان الجديد لن يستقر في رحمها، وقد تجهضه. وهكذا لم يبقَ من حبنا شيء، ولم يبقَ من مضاجعتنا الاشتراكية القومية إلا إجراء نؤديه بلباس النوم. لم تقرب ليزا قضيبي، وتعاملت أنا حسب التعليمات ونظام الإنسان الأوربي الجديد، وهو ما أساءني، لكن مسألة الطفل وكل ما يتعلق بها كانت مجرد علم وكيمياء. الأهم هو تلك الحقن. امتلأت مؤخرة ليزا بطعنات تلك الحقن الحادة كالمسامير، فانشغلت أنا بتطبيب تلك الندب، بينما ندبي متقيحة بعد كل تلك الحقن، كل هذا من أجل إنجاب طفل جديد جميل. في ذلك الوقت تعرضت لحادثة كريهة. لاحظت أكثر من مرة أنهم صاروا يعلمون اللغة الروسية في حجرة الدراسة التي حاضروا فيها في السابق حول مجد قدماء الجرمان الغابر. كان الجنود يتعلمون اللغة الروسية فضلًا عن معاشرة الفتيات الشقراوات الجميلات، جملًا أساسية من تلك اللغة. سألني المدير ذات مرة عن رأيي في ما يحدث عندما رآني أسترق السمع إلى دروس اللغة الروسية أسفل النافذة. قلت له إن معناه على ما يبدو أن حربًا مع الروس قادمة. فراح يصرخ بأني أثير الرأي العام بهذا الكلام، فأجبته بأن لا أحد يسمعني سواه. لكنه صرخ بأننا لدينا تحالف مع الروس، وأن ما أقوله إثارة، ونشر أخبار كاذبة. اكتشفت وقتها فقط أن هذا المدير هو الذي شهد على زفاف ليزا. هو الذي رفض مصافحتي، وتهنئتي. فقد طلب يد ليزا من قبلي، لكني أحرقت معبده، والآن حان وقت الانتقام، وتفريغ الغضب.

فشكاني لأقف أمام قائد هذه المدينة الصغيرة التي يصنعون فيها أوربا الجديدة... عندما صرخ فيّ بأن ما أقوله هراء، وأني سأُعْرض على القضاء العسكري بتهمة أني مواطن تشيكي متعصب. صدح صوت الإنذار في المعسكر، وعندما رفع القائد سماعة الهاتف امتقع وجهه، وحدث ما حدث. بالفعل اندلعت الحرب كما توقعت. سألني القائد ونحن في الدهليز كيف توقعت هذا، فأجبته بكل تواضع بأني خدمت ملك الحبشة... بعدها بيوم جاء طفلي إلى الحياة. عمّدته ليزا، وأطلقت عليه اسم سيجفريد، كما رأت الاسم على حوائط العريش، وكما سمعته في موسيقى فاجنر الذي استلهمته كي تحمل طفلها. رغم ذلك طردوني من العمل، وقرروا أنه بعد انقضاء إجازتي أن أحصل على وظيفة جديدة في مطعم كوشيتشاك بمنطقة تشسكي رَاي. كان ذلك المطعم في باطن الصخور، والفندق غارق في شبورة الصباح، ثم في هواء الظهيرة الرائق. فندق صغير مخصص للعشاق، لأزواج العشاق التي تتجول حالمة وسط الصخور والإطلالات، تعود من بعدها بأيادٍ متعانقة، أو عالقة، تتناول الغداء أو العشاء. حركات كل ضيوف الفندق مسترخية وهادئة. كان فندق كوشيتشاك مخصصًا لضباط القوات المسلحة والحزب النازي الذين ذهبوا إلى الجبهة الشرقية، رغم ذلك كانت تلتئم هنا آخر لقاءاتهم بزوجاتهم أو عشيقاتهم. كل شيء عكس ما يحدث في المدينة الصغيرة. هناك يصنعون العِرق الجديد، فيأتي الجنود كفحول التكاثر أو كذكور الخنازير الأصيلة، في نفس الليلة أو

خلال يومين يلقحون الإناث الألمان بالمني الجرماني بطريقة علمية... لكن كل شيء في كوشيتشاك كان مغايرًا تمامًا، ووافق مزاجي. خلا المكان من المرح، تلون بالحزن والكآبة. حالة حالمة لم أتوقع أن أراها عند الجنود. كان كل ضيوفنا تقريبًا كالشعراء قُبيل كتابة قصيدة. ليس لأنهم كذلك، بل شأنهم شأن كل الألمان؛ أجلاف وقحون، متكبرون، ثملون دائمًا من نصرهم على الفرنسيين، رغم أن ثلث ضباط الفرقة العسكرية على الجبهة الشرقية سقط في تلك الحملة على فرنسا... كان هؤلاء الضباط هنا يتأهبون لرحلة أخرى، ومهمة أخرى، وحرب أخرى مغايرة تمامًا لما قبلها، رحلة إلى الجبهة الروسية. بلغت تلك الفرقة أعتاب موسكو في نوفمبر، لكنها لم تقدر على التقدم لأكثر من ذلك، وتشعبت الجيوش في أماكن كثيرة، بلغت فورونيج والقوقاز. ثم جاءت أخبار من الجبهة، ومن وراء الجبهة، تقول إن أنصار روسيا ضيقوا الخناق على الطريق المؤدي إلى الجبهة إلى درجة أن صارت الجبهة خلف خطوط العدو، كما أخبرتني ليزا التي عادت مثبطة الهمة من المقاومة الروسية. أحضرت لي معها حقيبة صغيرة لم أتمكن من معرفة محتواها ولا قيمتها. لكنها كانت حقيبة صغيرة مليئة بطوابع بريد عثرت عليها. ظننت أنها تسللت إلى شقق اليهود في فرنسا وبولندا لتأخذ منها الطوابع، أو استولت على هذه الطوابع البريدية في وارسو أثناء تفتيش اليهود المهجريين. قالت عنها إن قيمتها سترتفع بعد انتهاء الحرب، ويمكننا أن نشتري بثمنها أي فندق نريده أينما كان. كان ابني

الذي بقي معي طفلًا غريب الأطوار. لم أجد فيه أي علامة تدل على أنه ابني، خلا من أي علامة على أنه ابني أو ابن ليزا، أو من أي أثر من أساطير فالهالا[32]. لم يظهر على الطفل أي أثر لموسيقى فاجنر، بل على العكس، كان طفلًا هائبًا مصابًا بالتخلف العقلي وهو في شهره الثالث. قمت على خدمة الضيوف من كل مقاطعات ألمانيا. أتوقع المقاطعة القادم منها أي جندي ألماني بدقة شديدة. أعرف أن الضيف قادم من بوموران، أو من بافاريا، أو بوريني. تعرفت بكل دقة على أي جندي من سكان السواحل أو من داخل البلاد. أعرف إن كان عاملًا أم فلاحًا... كانت تلك متعتي الوحيدة، أواصل الخدمة بلا توقف منذ الصباح وحتى وقت متأخر من الليل. أرفض الإجازات، كانت متعتي الوحيدة هي تخمين اسم البلد القادم منه الضيف وما سيطلبه، رجلًا كان أو امرأة. كانت النساء تأتي في مهام سرية، لم تكن تلك المهام سوى الحزن والخوف؛ حزن احتفالي. لم أرَ في حياتي اللاحقة زوجين أو عاشقين التصقا ببعضهما بكل تلك الرقة والحنان، بكل ذلك الحزن والأسى. كان الأمر يشبه ترديد الفتيات في البيوت أغنية: أيتها العيون السوداء، لمَ البكاء؟[33]... أو قصيدة: هدرت

32- فالهالا في الإسطورة الاسكندنافية هي قاعة ضخمة مهيبة تقع في أسكارد الموجودة في العالم الآخر التي يذهب إليها من ماتوا في المعارك ويعيشون فيها بسعادة بضيافة أودين. (المترجم)

33- هو اسم فيلم كوميدي تشيكوسلوفاكي من ثلاثينيات القرن العشرين. (المترجم)

الجبال[34]، أو شيء من هذا القبيل. ظهرت الأزواج تتجول حول كوشيتشاك في كل الأجواء، ضابط شاب يرتدي ملابسه الرسمية برفقة امرأة شابة، كلاهما يلتصق بالآخر، ويهمهمان. وأنا الرجل الذي خدم ملك الحبشة، لم أعرف يومًا ما يشعران به، ولم أقدر على تخيله. الآن فقط تيقنت من أن هذين الزوجين لن يلتقيا مجدّدًا بعد اليوم... هذا اليقين جعلهم أناسًا جميلة. ذلك هو الإنسان الجديد، ليس المنتصر الزاعق المتفاخر، بل العكس، إنه الإنسان المتواضع، المتأمل، صاحب عيون جميلة لطائر صغير هائب... وهكذا تعلمت أن أرى الطبيعة من حولي بأعين أزواج العاشقين، فحتى الزوج والزوجة صارا هنا عاشقين بتأثير ما يحدث على الجبهة. رأيت بأعينهم الزهور فوق الطاولة، والأطفال اللاهية، تعلمت أن كل ساعة هبة مقدسة. لم يذق العاشقون طعم النوم ليل اليوم السابق لانصرافهم إلى الجبهة ولا نهاره. لم يقربوا الأسِرّة، لم تكن هناك سوى الأعين والعلاقات الإنسانية التي لم أرَ مثلها في مكان آخر طيلة عملي كساقٍ... أنا الساقي، وأحيانًا رئيس السقاة، شعرت هنا وكأنني في مسرح كبير، أو في دار سينما أشاهد عرضًا أو فيلمًا غراميًّا حزينًا... عرفت هنا أيضًا أن الصمت هو أقوى علاقة إنسانية تربط الإنسان بالإنسان. ساعة صمت، ثم ربع الساعة، ثم الدقائق الأخيرة حينما تأتي عربة،

34- من الشعر الشعبي التشيكوسلوفاكي: ومطلعه: هدرت الغابات والجبال/ أين ضاع شبابي/ اختفى منه الجمال/ لم أرَ فيه الحياة/ يا شبابي. يا شبابي/ ضعت مني عبثًا/ ضيعك مني تفريطي وإعراضي. (المترجم)

وأحيانًا عجلة عسكرية، أو سيارة، فينهض الزوجان في صمت، يتبادلان النظرات والزفرات الطويلة، ثم تحين لحظة آخر قبلة. بعدها تنتصب قامة الضابط في العربة، ثم يجلس بينما العربة تنصرف فوق التل. آخر استدارة، وآخر تلويح بمنديل، ثم ما إن تبدأ العربة أو السيارة في الاختفاء تدريجيًّا خلف الهضبة مثل شمس المغيب، ولا يبقى منها شيء، تقف المرأة أمام مدخل فندق كوشيتشاك، امرأة ألمانية، إنسان غارق في الدموع لا يكف عن التلويح، وهز أصابعه فيسقط منها المنديل الصغير... تستدير وسط نوبة بكاء، وتصعد الدرج هرولة لتبلغ حجرتها، وهناك تدس وجهها في الوسادة وكأنها راهبة رأت رجلًا في الكنيسة، وتختبئ في سريرها وسط بكاء وعويل متصاعد... في اليوم الثاني تنصرف العاشقات إلى محطة القطارات بأعين حمراء باكية. يحضر عاشقون غيرهم من كل أرجاء العالم، فوق نفس العربة أو في نفس السيارة، من كل بعثة عسكرية في المدن والقرى، من أجل آخر لقاء قبل الرحيل إلى الجبهة؛ فالأخبار القادمة من الجبهات كلها سيئة، رغم تقدم الجيوش الحثيث. تلك الحرب الخاطفة جعلت ليزا أشد قلقًا، ودفعتها إلى التململ من جودها معي، فأخذت سيجفريد وعادت إلى مدينة خِب، إلى مطعم أمستردام، ومن هناك ستذهب إلى الجبهة، وستكون في حال أفضل...

مرة أخرى صار المستحيل واقعًا. وقتها لم أكن في كوشيتشاك، مر عام على مغادرتي المكان. وقتها أيضًا طال الوداع، والتلويح

قبل أن تتحرك العربة عبر التلال. أنا أيضًا ذرفت الدمع، وذهبت بالقطار إلى مكان عملي الجديد. حملت معي تلك الطوابع البريدية في حقيبة صغيرة عادية، ومعها طعامي. حقيبة بركانية[35] وجدتها ملقاة بلا صاحب. قارنت قيمة بعض الطوابع بما هو موجود في كتالوج زومشتاينز[36]، وفورًا تيقنت من أني لن أكون في حاجة إلى أن أفرش حجرتي بأورق المئة كرون، فلو أني صنعت منها أوراق حائط، أو لصقتها على السقف وفي الردهة وحتى في الحمام والمطبخ، لو أن كل ألواح الجرانيت الخضراء اكتست بورقة المئة كرون لما بلغت الأموال التي سأحصل عليها مقابل هذه الطوابع. فقط مقابل أربعة طوابع، حسب كتالوج زومشتاينز، سأجني من الأموال ما يجعلني مليونيرًا. أخذت أحصي في سري، وأتحسب لما بعد عودتي يومًا. فالألمان قد خسروا الحرب التي أوشكت على نهايتها. قرأت الموقف بكامله في وجه كل ضابط كبير يظهر في أي مكان. كانت آخر أخبار ساحات المعارك تأتيني على وجوه الضباط، أقرؤها فيها حتى لو وضعوا فوق أعينهم نظارات لامعة، أو سوداء. قرأت النهاية بكل دقة، حتى لو وضعوا على وجوههم أقنعة سوداء. تكهنت، حسب خطوات الجنرالات، وانتصاب أجسادهم، وحركاتهم، بالموقف على جبهة القتال... ذهبت لاستلام برنامج الحزب، ففكرت في أن أنظر إلى نفسي في المرآة. رأيت نفسي فجأة أقف أمام إنسان

35- مادة بلاستيكية من السيليولوز تُصنع منها حقائب السفر. (المترجم)
36- اسم مدينة بغرب النمسا. (المترجم)

غريب، إنسان مثل كل هؤلاء الألمان من كل البقاع، وكل ألوان المهن، بكل أمراضهم وهواياتهم التي خمنتها بصفتي خدمت ملك الحبشة، بصفتي تلميذ السيد سكرشيفانِك رئيس الطهاة الذي خدم ملك إنجلترا. نظرت إلى نفسي، فرأيت نفسي من زاوية الرؤية الحادة كما لم أرَني من قبل، رأيتني عضو جماعة سوكول الذي سمح لرجال النازي أن يفحصوه ليتأكدوا من مقدرته على مضاجعة مدرسة التربية البدنية الألمانية بينما الألمان يعدمون الوطنيين التشيك. في الوقت الذي نادى فيه الألمان إلى الحرب مع روسيا أقمت أنا حفل زفافي، وغنيت Die Reihen dicht geschlossen[37]. في الوقت الذي عانى أهلي في الوطن كنت أتمرغ في نعيم الفنادق والنُّزل الألمانية، وأخدم فيها رجال الجيش الألماني والحزب النازي. وجدت أني لا يمكنني العودة إلى براج بعد أن وضعت الحرب أوزارها. فلن أنتظر أن يشنقوني هناك، بل سأشنق نفسي على أول عمود إضاءة يقابلني، أو في أحسن الأحوال سأحكم على نفسي بالسجن لعشر سنوات على الأقل... وهكذا وقفت أنظر إلى نفسي في محطة القطارات ساعة الصباح، حيث خلت من الركاب، أرى نفسي ضيفًا يقبل ثم يُدبر، وأنا من خدم ملك الحبشة، حكم عليّ بمواجهة الحقيقة، وأنا أتلهى من معاناة الآخرين وأحلامهم. بنفس الطريقة أنظر الآن إلى نفسي، وأشعر بالنفور من شكلي هذا، خاصة وأن حلمي أن أصبح مليونيرًا، وأن أعود إلى براج لأثبت لأصحاب الفنادق أني

37- مقطع من النشيد القومي النازي ومعناه: «احكموا الصفوف!». (المترجم)

واحد منهم، ولست أي واحد، بل ربما أعلاهم قدرًا، وأن الأمر الآن مرهون بما أقرره أنا، متى أعود إلى بلادي، وأشتري فيها أكبر فندق، وأصبح ندًّا لـ»شروباك»، والسيد براندايس، ندًّا لأعضاء نادي سوكول الذين تجاهلوني. لا يمكن الحديث إلا من منطق القوة، من منطق قوة حقيبتي الصغيرة التي اغتنمتها ليزا من وارسو أو من ليبمبرج، أن أشتري بقيمة أربعة طوابع منها فقط فندقًا، فندق ديتيا... أو أشتري شيئًا في النمسا أو في سويسرا؟ تشاورت مع صورتي في المرآة، ومن ورائي عربات القطار السريع تصل المحطة في هدوء، وقطارات حجر صحي قادمة من الجبهة... لما توقف القطار رأيت في المرآة ستائر منسدلة، ارتفعت واحدة منها، أرختها يد ممسكة بحبل، وعلى السرير استلقت امرأة بلباس النوم، تثاءبت بملء فمها، وفركت عينيها، ثم نظرت بعينيها الناعستين لترى أين توقف القطار؟ التفتت ناحيتها، نظرت إليّ، فكانت ليزا، زوجتي. رأيتها تقفز من القطار، وتتجاوز الحاجز. انطلقت كما هي بملابسها الداخلية، وقبل أن أستفيق مما أراه وجدتها عالقة في رقبتي تقبلني كما كانت تفعل أيام العزوبية، وأنا من خدم ملك الحبشة أرى أنها قد تغيرت كما تغير كل كبار الضباط الذين عادوا من الجبهة ليقضوا أسبوعًا هادئًا في كوشيتشاك مع زوجاتهم أو عشيقاتهم. من المؤكد أن ليزا رأت ومرت بمستحيل صار واقعًا... عادت من جديد مدرسة التربية البدنية، ترافق جمعًا من الكُسحان إلى المكان الذي أقصده أنا أيضًا، إلى خوموتوف، المستشفى الميداني العسكري بجوار

إحدى البحيرات. صعدت إلى القطار أحمل تلك الحقيبة الصغيرة، ثم انطلق القطار، ودخلت إلى كابينة ليزا. انتفض جسدها مثل أيام العزوبية عندما أخلعتها القميص من وراء ستارة صغيرة منسدلة، وباب موصد، وفي المقابل عرتني من ملابسي، وتعانقنا عاريين. تركتني أقبل بطنها، وكل جسدها على وقع اهتزازات القطار، ومصدات العربات التي تتحرك وتتلامس ثم ترتد...

انتظرت عربات الإسعاف على محطة القطار في خوموتوف، وطابور من الحافلات على شكل مستشفى متحرك فوق ست عجلات. لم أسمع ما تقوله ليزا وأنا أقف في آخر رصيف نظيف، جعلوني أقف هناك لأني نزلت من القطار بصحبة ليزا التي توجهت إلى رئيس المحطة، وبدؤوا يُخرِجون من جاء بهم القطار من على جبهة القتال، عجزة آخرين قادرين يستحقون الرعاية، بقدم أو بقدمين مبتورتين. كل هؤلاء الجنود وضعوهم في تلك السيارات والحافلات. لم أعرف هويتهم على وجه الدقة، لكني تنبأت بأنهم كل الجنود الذين ظهروا في المدينة الصغيرة في حضن جبل دياتشين، كل الذين ودعوا زوجاتهم وعشيقاتهم في كوشيتشاك. تلك كانت آخر صور الكوميديا، آخر مشهد في المسرحية أو الفيلم. ذهبت على متن أول حافلة إلى المكان الذي أقصده، إلى مطعم المستشفى العسكري، أحمل حقيبتي الصغيرة في حجري، بينما ألقيت بحقيبة السفر الجلدية فوق سطح الحافلة وسط الحقائب العسكرية والأربطة. تجولت في ذلك اليوم في المنطقة، وفي أرجاء المخيم الذي امتد على سفح هضبة بمثابة

حقل كَرْز وتوت، يهبط حتى يصل بحيرة حجرية تشبه بحيرة طبريا، أو نهر الجانجا المقدس. انخرط هناك كل العاملين فوق أرصفة طويلة في نقل الجرحى بجروحهم المتعفنة بعد عمليات البتر، ووضعوهم في تلك البحيرة التي خلت من أي حشرة أو سمكة. مات كل ما في مياهها، ولن تعود إليها الحياة ثانية وستتبخر المياه من هذا المحجر إلى الأبد. ألقوا فيها الجرحى الذين التأمت جراحهم قليلًا، فأخذوا يسبحون بساق واحدة، أو بساقين بُترتا من عند الركبة. بعضهم فقد ساقيه بالكامل، فلم يبقَ منهما سوى جذوعهما، فأخذوا يتحركون في الماء بأيديهم مثل ضفادع، رؤوسهم ناتئة في ماء البحيرة الزرقاء. بدوا مثل الرجال الوسيمة في حمامات السباحة في دياتشين. بعد أن يكملوا السباحة، ويقضوا وقتًا طويلًا في البحيرة كما أمرهم الطبيب، ثم يجرهم من أياديهم فيستلقون على الشاطئ مثل السلاحف. يبقون هكذا ينتظرون أن يضعهم العمال في أكياس الاستحمام، وأغطية ثقيلة. كانت أعدادهم بالمئات. نقلوهم واحدًا تلو الآخر إلى الهضبة الرئيسة أمام المطعم. هناك وقفت فرقة موسيقية نسائية تعزف وتقدم الطعام... أكثر ما أهمني قسم النخاع الشوكي. كل من جر وراءه نصف جسده الأسفل بدا فوق اليابسة وفي الماء مثل جنية البحر، وبدا من كانوا بلا أقدام، وبجذوعهم الصغيرة وكأنهم رؤوس فوق أقدام لا جذع لها. هؤلاء بالطبع أحبوا لعب كرة تنس الطاولة. جلسوا على عربات مطلية بالكروم قابلة للثني، مكنتهم من الحركة السريعة حتى إنهم لعبوا

من فوقها كرة القدم. استبدلوا الأقدام باليد، أي كرة يد في الواقع. أقبل أصحاب القدم الواحدة وكل من فقد يديه بعد أن استعاد عافيته بعض الشيء على الحياة بشكل ملحوظ. بقوا يلعبون كرة القدم، وتنس الطاولة، وكرة اليد حتى يهبط الظلام. يزعقون أثناء اللعب في الأبواق. دعوتهم ذات مساء على تناول الطعام. فجاؤوا كلهم فوق عرباتهم، أو متكئين على عصيهم مفعمين بالحياة. أطلقوا على القسم الذي كنت مسؤولًا فيه عن تقديم الطعام قسم إعادة التأهيل، بينما قام الأطباء بإجراء جراحات للجرحى القادمين من الجبهة في الأقسام الأخرى، ثم الإرحال الأيوني والعلاج بالكهرباء معًا في قسم واحد... أحيانًا كنت أرى هؤلاء المعاقين على غير ما هم عليه. كثيرًا ما تراءت لي أعضاء جسدهم التي فقدوها، كثيرًا ما تخيلت أني أراها، وأن ما تبقى من أعضاء قد اختفى. أصابني الفزع مما أراه! في كل مرة أضع إصبعي على جبيني، وأقول لنفسي: لماذا أرى هذه الأشياء. لأني خدمت ملك الحبشة، ولأني كنت تلميذًا لكبير السقاة سكرشيفانِك الذي خدم ملك إنجلترا. ترددت أنا وليزا مرة كل أسبوع لزيارة ابننا في فندق أمستردام بمدينة خِب... عادت ليزا إلى ممارسة السباحة، وكانت تحبها. ظلت في تلك البحيرة حتى جعلتها السباحة قوية وفاتنة مثل تمثال من البرونز. اشتقت كثيرًا إلى لقاءاتنا، ورؤيتها وهي تتحرك عارية. أسدلنا الستائر، وبالفعل تغيرت ليزا تمامًا. اشترت كتابًا لأحد رياضيي الإمبراطورية اسمه فوري أو فوكي. كان هناك أيضًا قسم للأجساد العارية، ولأن جسمها كان جميلًا قررت ليزا

الانضمام إلى هؤلاء العرايا دون أن تراهم. في الصباح تصنع لي قهوة وهي ترتدي تنورة، وأحيانًا تأتي عارية، تهز رأسها برضا وهي تنظر إليّ، ثم تبتسم بعد أن ترى في عيني أني معجب بها، وأراها جميلة... لكن الأمر مع ابننا سيجفريد كان مأساويًّا. كلما وقع شيء في يده رماه، ذات مرة وهو يحبو فوق أرضية الغرفة في فندق أمستردام، أخذ مطرقة، وأعطاه جده مسمارًا من باب المزاح، فدق الصبي المسمار في الأرض بضربة واحدة... وقت أن كان الأطفال يلعبون بالشخاشخ ودمى الدببة، أو يجرون هنا وهناك ظل سيجفريد يحبو على الأرض، ويطول صراخه إلى أن يحصل على المطرقة والمسامير، ويدقها في الأرض بكل سعادة. في الوقت الذي بدأت فيه الأطفال الأخرى الكلام، عجز ابننا حتى عن المشي وعن نطق كلمة ماما أو غيرها. ظل فقط يتحرك بالمطرقة والمسامير. اهتز فندق أمستردام من ضربات المطرقة طالما كان مستيقظًا، وامتلأ المكان بالمسامير المدقوقة. قَويت يمناه من الطرق، وبانت ذراعه من بعيد قوية... لم يتوقف طوال زيارتنا له في كل مرة. لم يتعرف على والدته، ويلح في أن نعطيه مطرقة ومسامير. كانت المسامير تُمنح له بناء على كوبونات أو طلبات أو حتى بصورة غير رسمية. اضطررت أيضًا إلى البحث عن مسامير له في كل مكان. دق بالمطرقة مسامير بطول ستة سنتيمترات في أرض الغرفة. أمسك برأسي في كل مرة يدق فيها مسمارًا. عرفت منذ البداية أن طفلي، هذا الضيف الذي هو ابني، سيكون مُعتل العقل. في الوقت الذي سيبدأ فيه أطفال آخرون

الذهاب إلى المدرسة سيبدأ هو المشي، وحين ينهون دراستهم يشرع هو في تعلم القراءة، وحين يتزوجون سيكون سيجفريد قد بدأ بالكاد يتعرف على الوقت، وشراء الجرائد. سيبقى في البيت لا فائدة تُرجى منه. لن يعرف سوى دق المسامير... هكذا رأيت ابني. في كل مرة أزوره أرى أرض حجرة أخرى وقد رصعها بالمسامير. كنت محقًّا في ظني به وإلى ما سينتهي إليه. لم أرَ فيه ابنًا لي، بل ضيفًا... لكن هذا الصبي المهووس بدق المسامير في الأرضية لم يفعلها عرضًا. كان لمساميره التي تخترق ألواح خشب الأرضية منطق. يمتلئ هو سعادة بها وفرحًا بينما يهرب الآخرون إلى المخابئ عند كل إنذار بغارة. وبينما الأطفال الآخرون يفزعون منها كان سيجفريد يصفق بيديه، ويضحك. فجأة بدا جميلًا، اختفت ملامح البلاهة ومظاهر الغشاوة التي غطت على عقله. كلما سقطت قنبلة دق سيجفريد مسمارًا وراء الآخر في لوح الخشب الذي يحملونه له معهم إلى القبو، وهو غارق في الضحك... وأنا الرجل الذي خدم ملك الحبشة، أطير فرحًا من أن ابني قادر على التنبؤ بمستقبل كل المدن الألمانية رغم أنه معاق ذهنيًّا. المدن التي عرفت أن مصيرها سيكون كمصير أرضيات غرف الفندق. اشتريت ثلاثة كيلوجرامات من المسامير، استطاع سيجفريد دقها في أرضية المطبخ خلال ساعات ما قبل الظهيرة. اجتهدت في خلعها جميعًا من المطبخ بعد انتصاف النهار وبعد أن انتهى من دق المسامير في أرضية الغرفة. أسعدني أن وابل

طائرات المارشال تيدر[38] يمطر الأرض بالقنابل بنفس الطريقة، وحسب خطة مرسومة بكل دقة، تمامًا كما يفعل ابني، ويدق المسامير بخطوط مستقيمة، وبزاوية صحيحة... انتصر الدم السلافي، وكنت فخورًا بابني. بدأ يمشي رغم عجزه عن الكلام، لكنه ظل يحمل المطرقة في يده القوية وكأنه بيفوي[39]...

فجأة تراءت أمام عيني صور اختفت من ذاكرتي طويلًا. رأيتها أمام عيني فجأة واضحة جلية. وقفت أحمل صينية عليها كؤوس مياه معدنية وكأن صاعقة أصابتني... تذكرت صورة زدينياك لبضع ثوانٍ فقط عند البحيرة الحجرية، كبير السقاة في فندق تيخوتا، ذلك الرجل المرح الذي بدَّد كل ما في جيبه من أموال كلما اتسع له الوقت. وصلت إلى بضعة آلاف... الصورة التي ظهرت أمام عيني كانت صورة عمه، عازف على المعاش في فرقة موسيقى عسكرية. موسيقيٌّ يقطّع الأخشاب في الغابة في أرض يمتلكها، بنى فيها بيتًا عششت فيه الزهور وأحراش الصنوبر. كان ذلك العم موسيقيًّا إبّان الحكم النمساوي، دائمًا ما ارتدى لباسًا موحدًا حتى وهو يقطع الخشب. كتب موسيقى رقصتي

38- آرثر ويليام تيدر) -1890 - 1967). قائد القوات الجوية الفرنسية وقائد العلميات في العسكرية في منطقة البحر المتوسط وشمال إفريقيا إبّان الحرب العالمية الثانية (المترجم).

39- بطل أسطوري تشيكي تقول عنه الأسطورة إنه حمل خنزيرًا ضخمًا على ظهره حتى قلعة الملكة ليبوشا. في المقابل تزوج من كازي، شقيقة الملكة. (المترجم)

جالوب[40]، وبعض رقصات الفالس التي ظلت الفرق الموسيقية تعزفها، لكن أحدًا لم يعرف يومًا هوية ذلك العازف. ظنوا جميعًا أنه مات. ذات يوم كنا في إجازة، ونتحرك فوق العربة فسمعنا موسيقى نفخ عسكرية. وقف زدينياك في العربة وأمر الحوذي أن يتوقف... ثم مشى خلف تلك الفرقة الموسيقية العسكرية التي كانت تعزف فالس عمه، وبجوارها حافلات صعدت إليها الفرقة الموسيقية بعد لحظات متوجهة إلى مكان ما للاشتراك في مسابقة للموسيقات العسكرية. تحدث زدينياك مع قائد المجموعة وأعطاه كل ما لديه من نقود، أربعة آلاف كرون ليوزعها على الجنود لشراء بيرة يشربونها، ومن أجل أن يفعلوا ما سيطلبه منهم. غادرنا العربة، ثم صعدنا أول حافلة. بعدها غادرنا الحافلات في إحدى الغابات بعد ساعة سفر. مئة وعشرون عازفًا بزيهم الموحد وآلاتهم اللامعة ساروا على مهل في طريق الغابة، ثم انعطفوا إلى ممشى به أحراش كثيفة، تعلوه أشجار صنوبر شاهقة. أعطاهم زدينياك إشارة كي يتوقفوا، واختفى في أحد الأحراش، ثم سرعان ما عاد ليخبرنا عن خطته، ثم أعطى إشارة، فبدأ الجنود في التوجه ناحية الأحراش، واحد تلو الآخر. وكما في الجبهة راح زدينياك يعطي الأوامر بأن يطوقوا بيتًا هناك تغطيه الأحراش، وتصدر منه ضربات مِعول. التفت مجموعة الموسيقيين بأكملها حول ذلك الكوخ والرجل العجوز الذي يرتدي زيًّا نمساويًّا

40- نوع من موسيقى الكانتري الشعبية شأنها شأن الفالس. انتشرت في فيينا ولندن وبرلين من القرن التاسع عشر. (المترجم)

كان رجال الموسيقى يرتدونه قديمًا هناك. عندما أصدر زدينياك الأوامر رفع قائدهم فجأة عصاه الذهبية، وانطلق يقودهم بصوت مسموع. علا صوت آلات النفخ الموسيقية من وسط الأحراش، وعزفت الفرقة مقطوعة جالوب الزاعقة التي ألفها عم زدينياك، وكانت الفرقة الموسيقية تنوي دخول السباق بها. وقف الموسيقيّ العجوز يقطع زند الخشب بينما الموسيقيون يتقدمون منه عدة خطوات وشجيرات البلوط والصنوبر تصل أردافهم، بينما وقف قائدهم ذو العصا الذهبية وحده وسط شجيرات خضراء بلغت ركبتيه، يحرك عصاه والموسيقى تعزف الجالوب، والآلات تبرق في الشمس. اِلتفَت الموسيقي العجوز من حوله، وارتسمت على وجهه علامة مدهشة لمن فارق الحياة. بعدما انتهت الفرقة من عزف الجالوب، وواصلت عزف فالس موسيقي انهار الموسيقي العجوز، ووضع فأسه في حجره، وانفجر في البكاء. تقدم منه قائد الفرقة الموسيقية ذو العصا الذهبية، ولمس كتفه، ولما وقف العجوز أعطاه عصاه الذهبية. قال لنا العجوز بعد أن اعتدل إنه ظن أنه مات، وظهرت في السماء وسط فرقة موسيقية. وظن أن فرقة موسيقية تعرف في السماء، وأن الله هو قائدها، وهو من يعطيه عصاه... قاد العجوز عزف مقطوعته الموسيقية، وعندما بلغ نهايتها خرج زدينياك من وسط الأحراش، ومد يده للعجوز، وتمنى له موفور الصحة... بعد نصف ساعة عادت الفرقة الموسيقية إلى الحافلات، وعزفوا لـ«زدينياك» لحنًا قصيرًا، جعجعة احتفالية. وقف زدينياك متأثرًا، ثم حنى قامته يشكرهم.

اختفت الحافلات ومعها الموسيقى فوق طريق الغابة الذي اعترضته أغصان أشجار الزان وشجيراتها... زدينياك هذا كان ملاكًا. كل عطلة نقضيها معًا تكون كسابقتها. يظل عشرة أيام يخطط كيف سيبدد تلك الآلاف، بينما أنا أغلق الباب على نفسي، وأرص ورقات المئة كرون على الأرض، ثم أمشي حافيًا فوق أوراق البنكنوت وكأنها أرضية مكسوة بالبلاط. وأحيانًا أرقد عليها وكأني في مرج أخضر. نظم زدينياك ذات يوم حفل زفاف ابنة أحد الفحامين، ودخلنا ذات مرة إلى محل للملابس، ألبسنا صبية من دار الأيتام زيّ البحارين الأبيض، أو ذهبنا بهم إلى الملاهي، ودفعنا ثمن كل الأراجيح والعجلات الدوارة ليوم كامل كي يلهوا فوقها مجانًا. في إجازة أخرى ذهبنا إلى براج لشراء أجمل باقات الورود، وزجاجات النبيذ، ورحنا ننتقل من حمام عام إلى آخر، نهنئ العاملين فيه بمناسبة أعياد لا وجود لها، وذكرى ميلاد مرّت. كان زدينياك دائمًا محظوظًا عندما يجد امرأة من عاملات المراحيض تحتفل بذكرى ميلادها أو عيد اسمها... قلت لنفسي ذات يوم إني سأذهب إلى براج، وسأستقل سيارة تاكسي إلى فندق تيخوتا، أسأل إن كان زدينياك ما زال هناك. وإن لم أجده سأسأل عن مكانه، سأذهب كذلك إلى المكان الذي ربتني فيه جدتي. أسأل عن الغرفة التي ظهرت في نوافذها القمصان والملابس الداخلية التي كان ضيوف مصحات كارلوفي فاري يلقونها من أعلى، من نوافذ دورات المياه، وكانت جدتي تصلح تلك الملابس الداخلية المتسخة، وتبيعها للعمال والبنائين في

المواقع... وهكذا وقفت على محطة القطار في براج أبحث عن القطار المتجه إلى مدينة تابور. رفعت كمي كي أرى الساعة، ثم رفعت رأسي فرأيت زدينياك يقف بجوار كشك الجرائد. صعقت. إنه قدري أن أرى المستحيل واقعًا. بقيت في مكاني متجمدًا بكُمّ مطوي. رأيت زدينياك يلتفت من حوله وكأنه ينتظر هنا منذ وقت طويل، ثم رفع يده، بالتأكيد أنه كان في انتظار أحدهم لأنه أراد أن يتحقق من الوقت أيضًا. فجأة تقدم مني ثلاثة رجال في معاطف جلدية، أمسكوا بذراعي. رأيت زدينياك وهو ينظر إليّ بوجه باهت وكانه في حلم. وقف ينظر ناحيتي والألمان يضعونني في سيارة ويأخذونني بعيدًا. تعجبت: إلى أين يأخذونني، وما السبب؟ أخذوني إلى سجن بَنكراتس. انفتحت البوابة، واقتادوني مثل المجرمين، ثم ألقوني في زنزانة. مرة أخرى أشعر بالدهشة مما أصابني. فجأة تغمرني السعادة، والحزن إن أطلقوا سراحي. تمنيت ألا يفعلوا، فالحرب أوشكت على نهايتها. تمنيت أن أظل سجينًا، أن أكون في معسكر الاعتقال. تمنيت أن أسجن على يد الألمان. سطعت نجمة حظي، وانفتحت الأبواب، واقتادني الألمان إلى جلسة استجواب. بعدما أخبرتهم بكل ما أعرفه، وسبب قدومي إلى براج. ارتسمت الجدية على وجه المحقق، ثم سألني عمن كنت أنتظر؟ أجبته بلا أحد. فتح الباب ودخل رجلان بلباس مدني، انقضوا عليّ وكسروا أنفي، وسنتين من أسناني. سقطت على الأرض، فَمَالا عليّ، وسألوني من جديد عمن كنت أنتظره، ومن سيسلمني الأخبار. أجبتهم بأني جئت لزيارة المدينة، مجرد

رحلة. مال أحدهم عليّ، ورفع رأسي بيديه، وأمسك بشعري، وأخذ يخبط رأسي بالأرض. صرخ المحقق بأن النظر إلى الساعة علامة متفق عليها، وأني متورط في حركة بلشفية سرية... ثم أخذوني، ووضعوني مع باقي السجناء الذين خلعوا أسناني المكسورة، ومسحوا دمائي، وطببوا حاجبي المفتوقين. وأنا أضحك وأضحك. لم أشعر بأي شيء، لا بالضرب، ولا بالجروح، ولا الكدمات. تعجب مني الآخرون، وكأنني شمس، بطل. ألقاني رجال النازي وسطهم وهم يصرخون فيّ بكل احتقار: أيها الشيوعي الخنزير! سمعت هذا الوصف وكأنه موسيقى عذبة، وصف محبب إلى نفسي. بدأت أنتبه إلى أنه نافذة، تذكرة عودة إلى مدينة براج، قلم تقويم، سائل يمكنني أن أمحو به ما اقترفته عندما تزوجت بامرأة ألمانية، ووقفت أمام أطباء النازي في مدينة خِب ليفحصوا قضيبي، ويتأكدوا من أني قادر على مضاجعة امرأة آرية جرمانية... وجهي الذي تهشم بسبب أني نظرت إلى ساعة يدي هو بطاقة هوية سيعرفونني بها، وأدخل بها إلى براج كأي مناضل ضد النازية. الأهم هو أني سأثبت للجميع، لـ شروباك، وبرانديس وكل أصحاب الفنادق أني واحد منهم. وطالما كنت على قيد الحياة سأشتري فندقًا كبيرًا، سواء في مدينة براج أو في مكان آخر. بحقيبة طوابع البريد هذه –كما أرادت ليزا– يمكنني شراء فندقين، أختار بين النمسا وسويسرا. لكني لن أرى أي شيء في أعين أصحاب الفنادق النمساويين أو السويسريين. هؤلاء لا يهمني أن أثبت لهم أي شيء، أو أتباهى أمامهم بشيء، فلا

حسابات لي معهم في الماضي. ولا حاجة لي أن أتباهى أمامهم. لكن أن يكون لي فندق في براج، وأن أكون في براج وسط جماعة أصحاب الفنادق، وأن أكون أمين عام جميع فنادق براج فهذا أدعى أن يعترفوا بي – لا أن يحبونني، لكنه مدعاة للاحترام، ولا يعنيني غير هذا في المستقبل... بقيت في سجن بَنكراتس أربعة عشر يومًا. أثبتت جلسات استجواب تالية أن ما حدث مجرد خطأ، وأنهم كانوا يترقبون شخصًا سينظر في ساعة يده، وأنهم قد توصلوا إلى دليل حصلوا منه على ما كانوا يبحثون عنه، وأني لست الشخص المطلوب. تذكرت أن زدينياك وقف في المحطة، وأراد هو الآخر أن ينظر في ساعة يده، وأن زدينياك صديقي، ورأى أني تحملت الأمر نيابة عنه، وأنه سيكون ذا شأن كبير، وسوف يدافع عني، وربما فعلها شخص آخر ممن كانوا معي في السجن. بعدما عدت من جلسات الاستجواب عاودوا ضربي، ونزف أنفي من جديد، ومن جديد أخذت أبتسم وأضحك بينما الدم يسيل من أنفي... ثم أطلقوا سراحي. اعتذر لي المحقق، وبالطبع قال إن مصلحة الإمبراطورية تفضل أن يُعاقَب تسعة وتسعون ممن لا ذنب لهم، على أن يهرب مذنب واحد... وهكذا وقفت في المساء أمام بوابة سجن بَنكراتس، ومن ورائي رجل آخر أطلقوا سراحه... خرج ذلك الرجل الذي خانته قدماه فجلس على الرصيف. عربات الترام تتحرك وقت الغسق. المشاة يتحركون صعودًا وهبوطًا. أيادي الشباب متعانقة، والأطفال تلهو وقت الغروب، وكأن حربًا لا تدور، وكأن العالم قد خلا إلا من الزهور والعناق، ومشاهد

الغرام. الفتيات يرتدين وقت الغروب الدافئ سترات وتنورات مطرزة. حتى أنا أخذت أشاهد بكل رغبة كل ما طاب لأعين الرجال، وكل ما استثار خيالاتهم الجنسية... قال ذلك الرجل بعد أن استفاق: يا له من مشهد رائع! فتقدمت منه كي أساعده... سألته: كم قضيت في السجن؟ أجاب بأنه في السجن منذ عشرة أعوام... أراد أن ينهض لكنه لم يقدر. ساعدته على أن يقف، وسألني إن كنت في عجلة من أمرى؟ قلت لا. ولَمّا سألني عن سبب سجني قلت بسبب أنشطة غير قانونية. وهكذا سرنا ناحية الترام، ساعدته كي يصعد العربة التي امتلأت عن آخرها بالركاب كما امتلأ الرصيف أمامها. وكأن كل الناس عائدون إلى بيوتهم أو متوجهون إلى حفل راقص. لأول مرة أنتبه إلى أن نساء براج أجمل من الألمانيات، وأن أذواقهم أرقى، وأن الألمانيات وكأنهن يلبسن زيًّا موحدًا، وأن ثيابهن، ذلك الدرندل[41] واللباس الأخضر، وقبعات صيادي الغابات تعطي إيحاءً بالزي العسكري... وهكذا جلست بجوار ذلك الشاب ذي الشعر الأشيب، عمره يتجاوز الثلاثين. قلت له إنه يبدو شابًّا رغم شيب شعره. وسألته دون مناسبة: مَن قتلت؟ تردد للحظات، ثم نظر طويلًا إلى نهدي فتاة عامرين تتكئ بإحدى يديها على عمود الترام. وسألني: وكيف عرفت؟ فقلت له إني خدمت ملك الحبشة... بلغنا المحطة الأخيرة من الترام رقم إحدى عشر. كان الظلام قد هبط، وطلب مني ذلك

41- الدرندل هو ثوب نسائي تراثي قروي يلبس في جنوب ألمانيا وفي محيط جبال الألب. (المترجم)

القاتل أن أرافقه إلى أمه فربما سقط على الأرض وهو في طريقه إليها... أشعل كل منا سيجارة ونحن ننتظر حافلة سرعان ما جاءت. ركبنا لمسافة ثلاث محطات، ثم هبطنا منها في محطة كونيتشكوفي مِلين. أخبرني ذلك القاتل أنه يفضل الذهاب من الخلف، مرورًا بقرية ماكوترشاسي كي يصل إلى البيت أسرع، والأهم هو أن يفاجئ أمه، ويطلب منها الغفران... أخبرته بأني سوف أرافقه حتى حدود القرية فقط، وحتى بوابة بيته، ثم أعود بعدها إلى الطريق الرئيس، ومن هناك أستقل أي حافلة. فعلت كل ما فعلته ليس بدافع من التعاطف معه أو الرحمة، لكن ملأتني فكرة جمع أدلة البراءة قدر الإمكان، حتى تضع الحرب أوزارها، وسوف تفعلها عما قريب... سرنا وسط ظلام مرصع بالنجوم. طريق ترابي أخذنا عبر قرية مظلمة إلى فراغ طري أزرق مثل ورق الكربون، به شريط قمر ضيق يصدر لونًا ورديًّا، يصنع ظلًّا خفيًّا من أمامنا أو من خلفنا، أو فوق التلال المحاذية. ثم صعدنا تلًّا منخفضًا وكأنه زفرة طين. قال الرجل إنه يرى من هنا بيته، وقريته... لكن عندما صعدنا التل لم نرَ أي بيت أو مبنى... تردد المجرم القاتل، وانتابه ذعر، وأخذ يبربر: مستحيل! هل أخطأت العنوان؟ ربما خلف ذلك التل الآخر... لكن بعدما تقدمنا مئة متر أخرى امتلأ قلبانا رعبًا، أنا وذلك القاتل الذي ارتعدت أوصاله أكثر مما كانت لحظة خروجه من بوابة سجن بَنكراتس... جلس يجفف جبينه الذي لمع وكأن مياهًا سالت فوقه. سألته: ماذا حدث؟ أجاب بكلمات متعثرة: هنا كانت قريتي، وها هي اختفت،

أكاد أجن، أم أنني قد جننت بالفعل؟... سألته عن اسم القرية، أجاب: ليديتسا... قلت له إن هذه القرية اختفت من الوجود. دمرها الألمان، وأطلقوا النار على أهلها، وأخذوا ما تبقى منهم إلى معسكرات الاعتقال. سألني القاتل: لماذا؟ قلت: لأنهم قتلوا نائب الإمبراطورية، فجاء القتلة إلى هنا... جلس المجرم ويداه عالقتان فوق ركبتيه المثنيتين وكأنهما زعنفتان... ثم قام ومشى مشية رجل ثمل في أرض يغمرها ضوء القمر. توقف أمام أحد الأعمدة، وسقط على ركبتيه، واحتضن العمود. لم يكن عمودًا، بل جذع شجرة نتأ منه فرع وحيد يبدو أنهم أعدموا فوقه الناس شنقًا. قال القاتل: هذه هي شجرة جوز، وهنا كانت حديقتنا. ثم خطا على مهل، وقال: هنا... ثم سقط على ركبتيه يتحسس بيديه قواعد البيت ومخازنه، تقوده الذكريات. تحسس قواعد البيت زحفًا على ركبتيه ثم جلس بجوار جذع الشجرة، وراح يصرخ: أيها القتلة! وقف، وعصر قبضة يده، ونفرت شراييه الزرقاء فوق رقبته في ضوء قمر واهن... جلس على الأرض بعدما صبّ لعناته على القتلة، ومال، وضم يده أسفل ركبته، وأخذ يتأرجح مثل مقعد هزاز، نظر إلى فرع الشجرة الذي يخترق هلال القمر، ويقول وكأنه في جلسة اعتراف: كان لي أب طيب، أب جميل، أجمل مني الآن، رغم أني لست قبيحًا. أنا الولد الفاشل وهو الأب الناجح. أحب النساء وأحبته النساء. رافق جارتنا وكنت أغار منه، وتعذبت معه أمي. أتعرف! رأيت أبي وهو عالق في هذا الفرع، يتأرجح عليه، ثم يسقط بكل مهارة. وعلى الجانب الآخر من السور كانت

جارتنا الجميلة. يومًا ما وقفت أنتظر أبي، وعندما قفز من فوق السور تشاجرنا، وضربت أبي بالفأس فقتلته. لم أكن أنوي قتله، لكنني أحببت أمي، وكانت تتعذب... لم يبقَ من كل هذا سوى جذع شجرة جوز... ربما أمي ماتت هي الأخرى... قلت: وربما هي في معسكر الاعتقال، وستعود قريبًا... وقف القاتل، وقال: هل ستأتي معي إلى هناك لنسأل عنها؟ قلت: ولمَ لا؟ فأنا أجيد الألمانية... وانطلقنا إلى مدينة كلادنوا. وصلنا إلى مدينة كروتشهلافي قبل منتصف الليل، وسألنا دورية الحراسة الألمانية عن مبنى الجستابو. أرشدتنا الدورية إلى الطريق. ووجدنا أنفسنا نقف أمام بوابة الدخول. مشاهد بهجة بدت في الطابق الأول، ضجيج وهدير، وخبطات وضحكات نساء حادة... كانت الدورية تتبدل، والساعة الواحدة بعد منتصف الليل. سألت رئيس الدورية إن كنا نستطيع التحدث مع رئيس الجستابو؟ صرخ، وقال: ماذا تقول؟ وطلب منا أن نأتي في الصباح، لكن فُتِح الباب وخرج منه حشد من رجال النازي في زيهم الرسمي بمزاج معتدل. انصرف الحشد يودع كل منهم الآخر منتشين وكأنهم قد أنهوا حفلة لهو، أو أمسية أو عيد ميلاد. ذكرني مشهدهم بمشهد الضيوف وهم ينصرفون مبتهجين من فندق باريس الذي كنت أعمل فيه بعد أن أنهوا حفلهم، أو كلما حانت ساعة الرحيل... وقف أحد الجنود فوق آخر درجات السلم ممسكًا بشمعدان في يده. وقف مخمورًا بزيّ رسمي مبعثر، وشعر متدلٍّ فوق جبينه. لوح بذلك الشمعدان مودعًا. عندما رآنا نزل فوق عتبة السلم، وسأل رئيس الوردية

الذي ألقى عليه التحية الواجبة: من هؤلاء؟ أجابه بأننا نرغب في التحدث معه... طلب مني القاتل أن أترجم له، وأخبر الرجل أنه كان في السجن لمدة عشرة أعوام، وأنه عاد إلى قريته ليديتسا فلم يجد ولا منزله، ولا أمه، ويريد أن يعرف مصيرها. ضحك، ومال الشمعدان في يده، وسقطت على الأرض قطرات الشمع الساخنة وكأنها الدموع... ثم صعد القائد السلم، وصرخ مرة أخرى: مكانك! فتح أفراد الحراسة الباب، ونزل القائد، وسأله عن سبب سجنه لعشرة أعوام. أجاب القاتل بأنه قتل أبيه... فأخذ القائد الشمعدان ومن فوقه الشموع تدمع، وقربه من وجه ذلك القاتل، ثم استفاق سعيدًا من أن القدر أرسل له في ليلته تلك رجلًا يسأله عن أمه بعد أن قتل أبيه. وها هو يتعرض لموقف كثيرًا ما رآه كقاتل مارس القتل بناء على أوامر، أو بقرار منه نفسه... وأنا الرجل الذي خدم ملك الحبشة، وكثيرًا ما كنت شاهدًا على مستحيل صار حقيقة، رأيت القاتل الرسمي التابع للإمبراطورية، قاتلًا متسلسلًا مزينًا بنياشين تجلجل فوق صدره، يصعد السلم، ومن خلفه القاتل البسيط، الرجل الذي قتل أبيه. أردت الرحيل، لكن قائد الوردية أمسكني من كتفي، وأشار إلى السلم بعد أن أدارني ناحيته بعنف... جلست عند بقايا الوليمة، بجوار طاولة ضخمة تشبه طاولات حفلات الزفاف أو التخرج. بقايا حلوى، وزجاجات فارغة، أو شبه فارغة، وجلس في منتصف الطاولة رجل نازي ثمِل، عاود السؤال عن الأمر، فترجمت له ما حدث عند جذع شجرة الجوز قبل عشرة أعوام. أكثر ما أسعد القائد هو التنظيم الدقيق

في سجن بنكراتس، وأن السجين لم يعرف بما حدث في ليديتسا ومع أهله... في تلك الليلة أيضًا صار المستحيل حقيقة. أنا، المتخفي في دور مترجم بوجه متهدم وجروح تدمل، لا يعرفني أحد. عرفت أن قائد الجساتبو كان واحدًا ممن شاركوا في حفل زفافي. إنه ذلك السيد العسكري الذي رفض تهنئتي، ومصافحتي. إنه الرجل الذي أردت قرع كأسي بكأسه، ووقفت بيد ممدودة تحمل الكأس مستندًا إلى أطراف حذائي اللامع، وبقيت واقفًا أحمل كأسي أستجدي سعادتي، لكنه لم يبادلني التحية، وأصبت بخيبة أمل شديدة يومها، وأنا لا أتحمل خيبة الأمل. تورد وجهي، وتعثرت بأذيال الخيبة، كما تعثرت بها عندما رفض السيد شروباك صاحب الفندق أن يقرع كأسه بكأسي، وكذلك فعل السيد سكرشيفانِك، ذلك الذي خدم ملك إنجلترا... والآن يسوق إليّ القدر رجلًا آخر رفض طلبي حَسَن النية بقرع كأس الصداقة... ها هو الآن جالس أمامي يتفاخر بأنه سيهم من مكانه ليوقظ مدير الأرشيف، ثم يفتح دفتر السجلات معنا ويبحث فيه، ويتلو منه فوق طاولة المناسبات، يقلب الصفحات ويلوثها في الصوص المسكوب والشراب، ويظل يقلب إلى أن يجد الصفحة المطلوبة، فيقرأ منها ما حدث، ثم يصل إلى إعلان بأن أم القاتل موجودة في معسكر الاعتقال، ولا يوجد أي تاريخ أمام اسمها أو إشارة إلى أنها ماتت.

عدت في اليوم التالي إلى خموتوف بعد أن أطلقوا سراحي. وصلت أخبار، مجرد اشتباه، جعلتني أحزم حقائبي. وجدت

خطابًا يقول إن ليزا رحلت برفقه سيجفريد إلى جَدّه في مدينة خِب، في فندق أمستردام، وتطلب مني أن ألحق بهما، وأنها أخذت الحقيبة الصغيرة معها. أقلتني سيارة إلى مشارف مدينة خِب. هناك انتظرت بعد أن أعلنوا عن غارة جوية على مدينة خِب، ومدينة آش. وبينما أنا مع الجنود في أحد المخابئ سمعت دويًّا، صوت ماكينة تقترب بصورة منتظمة، فتراءت أمام عيني صورة ابني الصغير، أكاد أراه وهو ما زال يدق حتى اليوم مسامير اشتريتها له، يدقها بإيقاع رتيب وبضربة قوية من معوله يرشق مسمارًا بجوار الآخر بكل حماس، وكانه يزرع فجلًا، أو عيدان سبانخ بكثافة... صعدت سيارة عسكرية عندما توقفت الغارة. اقتربنا من مدينة خِب، فرأينا الناس قادمة منها تغني، ألمان عجائز يغنون أغاني مرحة. ربما جُنّوا أو اختلط عليهم الأمر مما رأوه. أو ربما هذه عاداتهم، أن ينشدوا الأغاني المرحة وقت الشدائد، ثم استقبلنا التراب والدخان الذهبي. رأينا الموتى في الخنادق، وشوارع احترقت بيوتها، وفرق الإسعاف كاد التراب يغطيها. ممرضات الإسعاف جاثيات يضمدن الرؤوس والأيادي، وصوت أنين وصراخ من كل جانب. تذكرت يوم مررت من هنا فوق العربة بصحبة السيارات يوم زواجي، كنا جميعًا منتشين بالنصر على فرنسا وبولندا. رأيت الأعلام الحمراء ذات الصلبان المعقوفة تأكلها النيران. احترقت الأعلام والألوية وتصدعت، وكأن النار تشتهيها بصفة خاصة، النار التي تصاعدات فوق الأقمشة الحمراء، وعلت، وبدا طرفها الأسود يرقص كذيل حصان

البحر... وقفت أمام حائط فندق أمستردام المشتعل الخرِب... هبت نسمة هواء خفيفة حركت سحابة الدخان والتراب البنية. رأيت ابني الصغير جالسًا في الطابق الأخير، ويواصل التقاط المسامير، ودقها في الأرضية بطرقات مِعوله القوية. رأيت من بعيد يمناه وقد قويت. صار مجرد قبضة قوية، بمرفق كمرفق لاعب التنس، وعضلات ذراع متحركة ترشق المسمار بضربة واحدة، ثم يواصل وكأن قنابل لا تسقط من حوله، وكأن شيئًا لا يحدث في العالم... ثم حدث في اليوم التالي وبعد أن عادت الناس من الملاجئ، أن ليزا زوجتي لم تأتِ. قالوا إنها ربما بقيت في فناء الملجأ. سألت عن الحقيبة الصغيرة البالية. أخبروني أن ليزا حرصت على حملها معها طوال الوقت... حملت معولًا، وأخذت أبحث عنها طوال اليوم في أرجاء الفناء. في اليوم التالي أعطيت ابني خمسة كيلوجرمات من المسامير، فانشغل في دقها في الأرضية بكل سعادة وأنا أبحث عن زوجتي، أمه، في اليوم الثالث عثرت على حذائها بينما سيجفريد يصرخ ويبكي لأن المسامير نفذت منه، ولم يمده أحد بمسامير أخرى. وأخذ يدق بالمطرقة فوق رؤوس مسامير ثبتها من قبل، وأنا أخلص رفات زوجتي من بين الحطام. لما بلغت منتصف جسدها، رأيتها منكبة على نفسها لتحمي الحقيبة النارية الصغيرة. أول ما فعلته هو أني خبأت الحقيبة بكل عناية، ثم واصلت تخليص جسدها دون رأسها من وسط الأنقاض. عصف تيار الهواء برأسها، فبقيت أبحث عنه على مدار يومين، بينما يواصل ابني الطرق بالمطرقة.

في اليوم الرابع أخذت الحقيبة الصغيرة ورحلت دون أن أودع أحدًا. خفتت من ورائي دقات المطرقة وصوت المسامير التي سكنت الأرضية. دقات ظل صداها يتردد في أذني طيلة حياتي. انتظرنا في ذلك المساء أن تأتي جميعة للأطفال المختلة عقليًّا لتأخذ ابني سيجفريد. دُفنت ليزا في مقبرة جماعية برأس ليس رأسها، بل مجرد شال ملفوف أعلى جذعها كي لا يظن الناس الظنون... رغم أني قلبت الفناء رأسًا على عقب بحثًا عنه.

هل اكتفيتم؟ هذا كل ما لديّ اليوم.

كيف أصبحتُ مليونيرًا؟

اسمعوا وعُوا ما سأقصه الآن عليكم:

صارت تلك الحقيبة الصغيرة وطوابع البريد الثمينة مصدر سعادتي. لم يحدث ذلك على الفور، لكن لاحقًا. صدر ضدي بعد انتهاء الحرب حكم قضائي صغير. أعطيتهم عنوان قائد الجستابو الذي قتل الناس بالجملة، وهرب ليختبئ في مدينة تيرولي. علمت من والد زوجتي في خِب بمكانه. أصدرت السلطات الأمريكية أمرًا بالقبض عليه بمعرفة زدينياك، وجاءت سيارة بها جنديان يحملانه إلى هناك لتنفيذ الأمر. وجدوه يعزق في المرج مرتديًا سروالًا وقميص سكان تيرول، وقد أطلق لحيته. لكني لم أسلم من أعضاء سوكول في براج رغم أني شاركت في القبض عليه. سجنوني، ليس لأنني تزوجت بامرأة ألمانية، بل لأنني وقت أن كانوا يعدمون آلاف الوطنيين التشيك وقفت أمام مسؤولي النازي المعنيين بنقاء العرق وحماية الشرف الألماني، وتركتهم يفحصونني عن طيب خاطر، ليتأكدوا من أني قادر جنسيًّا على

معاشرة امرأة آرية جرمانية. حكموا عليّ بالسجن نظير ذلك لمدة ستة أشهر، حسب قرار المحكمة... بعدها عثرت على مشترٍ لطوابع البريد، وجنيت في مقابلها مبلغًا كبيرًا من المال يكفي لتغطية عشرة أمثال أرضية شقتي. ولما تزايد المبلغ، وصار يكفي لتغطية أربعين مِثلًا اشتريت فندقًا على أطراف مدينة براج من أربعين غرفة... ظننت في أول ليلة أن رجلًا يسكن في أكبر غرفة بعلية الفندق، ويصدر في كل دقيقة خبطات مدوية ببلطة نجار عريضة، يدق بها مسامير في أرضية الغرفة. تواصل الدق في كل يوم، لم يقتصر على تلك الغرفة الأولى، بل انتقل إلى غرفة ثانية وثالثة، وعاشرة حتى بلغ الغرفة الأربعين. حدث كل ذلك في نفس التوقيت، وفي كل مكان. إنه ابني الذي يحبو فوق أربع، ويجوب الغرف، أربعون ابنًا، يدق كل واحد منهم مسامير في أرضية الغرفة في كل يوم، غرفة وراء أخرى، إلى أن بلغ الغرفة الأربعين... ولما جاء اليوم الأربعون سألت العاملين، بعد أن صمّت الضربات أذني، إن كان أحدهم قد سمع أي خبطات مطرقة. لم يسمعها أحد، أنا فقط من يسمعها، فاستبدلت ذلك الفندق بآخر. اشتريت عن عمد فندقًا من ثلاثين غرفة فقط، فحدث به ما حدث بأول فندق. تأكدت من أن أموال الطوابع ملعونة لأنها أُخذت من صاحبها عنوة. من رجل قُتِل بسببها. ربما كان حاخامًا يأتي بالمعجزات. فالضربات والمسامير المطعونة في أرضيات الغرف هي طعنات في رأسي. شعرت مع كل ضربة برأس مسمار تخترق جمجمتي، تصل منتصفها وتخترقها بالكامل. عجزت في نهاية

الأمر عن ابتلاع الطعام بعد أن بلغت المسامير حلقي... لكني لم أبلغ مرحلة الجنون. كان هدفي أن أمتلك فندقًا، وأصير مثل كل أصحاب الفنادق. لم أفكر في التراجع، ولم أقدر عليه، تملكتني فكرة واحدة، أن أبلغ من أمري ما بلغه صاحب الفندق السيد براندايس. لم يعنِني امتلاك أدوات مائدة ذهبية تكفي أربعمئة ضيف كما امتلك هو. بل تكفيني مئة منها، وأن أستقبل ضيوفًا أجانب مشاهير... شرعت في بناء فندق على خلاف كل الفنادق. اشتريت محجرًا كبيرًا مهجورًا بالقرب من مدينة براج، وشرعت في استصلاحه وتجهيزه بكل ما رأيته في فندق تيخوتا. أساس الفندق مسبك ضخم بأرضية من طين، ومدخنتين. تركت السنادين الأربعة كما هي، وكل المطارق والمفارش العالقة فوق حوائط سوداء. اشتريت أرائك جلدية، وطاولات، حسبما نصحني المهندس المسؤول، ذلك المجنون الذي حقق كل ما حلمت به. كان متحمسًا مثلي تمامًا. في اليوم الذي بني فيه المسبك نمت هناك فورًا، أعني في المدخنتين، وفي أفران المسبك. هناك نطهو الكفتة وشرائح اللحم فوق أسياخ الشواء أمام الضيوف مباشرة. سمعت في أول ليلة لي في الفندق دقات خفيفة. كانت المسامير تخترق الأرضية الطينية بخفة وانسياب السكين في الزبد. تراجع الصوت في رأسي، وأقبلت على بناء غرف الفندق بشهية كبيرة. تحول المبنى العالي الذي يشبه معسكر الاعتقال إلى كبائن صغيرة بعد أن كان غرفًا لملابس العمال وثكناتهم. حولتها إلى غرف صغيرة، إلى ثلاثين غرفة. طلبت على سبيل التجربة أن

يصنعوا أرضيتها من قراميد صلبة خشنة، تشبه قراميد الأرضيات في إيطاليا وإسبانيا، وكل البلاد الحارة. شرعت في أول يوم أسترق السمع فلم أسمع سوى ارتطام مسامير وهي تصدر شررًا. كان خزف الأرضية صلبًا، شديد الصلابة، ثم هجعت أصوات الضربات بعد محاولات فاشلة خائبة. شفيت من أوهامي، ونمت كما اعتدت النوم من قبل... تواصل البناء سريعًا. افتتحنا الفندق بعد شهرين، وأطلقت عليه اسم فندق الانكسار. شيء ما تكسر في نفسي، ثم فارقني. أصبح فندقًا من فنادق الدرجة الأولى، وكان الناس ينزلون فيه بحجز مسبق. فندق وسط الغابة، غرفه تشكل نصف دائرة حول بحيرة صغيرة زرقاء، في قاعها محجر من صخرة انتصبت على ارتفاع أربعين مترًا، صخرة من الجرانيت. طلبت من المختصين أن يزرعوا نباتات صخرية، وشجيرات زينة تنبت في بيئة مشابهة، وفوق البحيرة امتد حبل حديدي، أحد طرفيه عالق فوق التل، متدلٍّ إلى أسفل. أقيم فيه العروض كل مساء. استأجرت بهلوانيًّا يتحرك في طوق حديدي، ومن تحته عصا قصيرة، يتحين اللحظة التي يرتد فيها، ويهبط من ذلك الارتفاع فوق بحيرة مضاءة بقماش فسفوري، ويسقط الطوق الحديدي إلى أسفل، يتوقف للحظات، ثم يتشقلب إلى أعلى، ويعتدل، وبيدين مفرودتين يسبح إلى عمق البحيرة، بعدها يطفو بروية في ثياب فسفورية ناحية الشاطئ حيث الطاولات والمقاعد. كل شيء أبيض، طلبت منهم أن يلطوا كل شيء باللون

الأبيض. صار الأبيض لوني المفضل. كان أيضًا لون باراندوف[42]، لكنني كنت الأصل، وصار في مقدوري منافسة الجميع، يجب أن أقول إن ذلك الطوق الحديدي الذي حمل البهلواني صعد به عصر أحد الأيام إلى التل، وهناك أمسك الطوق، ونزل به وسط الضيوف الذين صرخوا جميعًا من الخوف، وهموا واقفين، أو ارتدوا إلى مقاعدهم. كانت كل المقاعد على طراز لويس الرابع عشر، اعتدل البهلواني، واستجمع قواه، وسقط في الماء برأسه مرتديًا بزته وكأن البحيرة التهمته... في تلك اللحظة قررت أن يُقدّم هذا العرض يوميًّا. في المساء يأتي دور الثياب الفسفورية. فلا يمكن أن أخسر من عرض كهذا، عرض لا مثيل له في براج بأكملها، ولا في التشيك، ولا روما ولا في وسط أوربا كلها... وحسب علمي ولا في العالم أجمع... أخبروني ذات مرة بأن أديبًا اسمه شتايبيك[43] قد نزل عندنا... بدا مثل قبطان بحري، أو كأحد اللصوص، أعجبه العرض كثيرًا، المسبك الذي تحول إلى صالة طعام، وتلك النيران، والطباخون الذين يعدون الطعام أمام الضيوف مباشرة، فيعتريهم جوع شديد وهم يرونهم يشوون قطع الكفتة أو شرائح اللحم أمام أعينهم، فيتصرفون كأطفال تشتهي الطعام... لكن أكثر ما أعجب ذلك الأديب هو آلات طحن الجرانيت، تلك الطواحين المتربة، وطريقتها في تلميع الأحجار. كل شيء متاح ليراه

42- أحد أحياء مدينة براج. (المترجم)

43- جون شتاينبيك (1902 - 1968) كاتب أمريكي مبدع. من أشهر أدباء القرن العشرين. اشتهر بقصصه حول الحرب العالمية الثانية. (المترجم)

الجميع وكأنه معرض طواحين أو سيارات مشطورة يرى الناس محركاتها. أعجب ذلك الأديب بالماكينات المصفوفة على منصة أمام المحجر بإطلالة على كل المنطقة. انتصبت الماكينات وكأنها عشرات التماثيل، ماكينات تقطيع، أو مخارط أحجار تقف وحيدة وكأن نحاتين مجانين نحتوها. طلب ذلك الأديب –شتايبيك– وضع طاولة بيضاء عندها، ومقاعد بيضاء ناصعة وأرائك. وهنا أخذ يشرب الكونياك الفرنسي؛ زجاجة وقت العصاري وأخرى في المساء وهو يشاهد المنطقة من تحته حول الماكينات. يشاهد منطقة غبراء قريبة من «فيلكي بوبوفيتس»[44] يراها هو جميلة، ويرى الماكينات تحفة فنية. أخبرني أنه لم ير لها مثيلًا من قبل، ولم ينزل في فندق كهذا من قبل، ولا يمكن أن يمتلك مثله في أمريكا سوى ممثل شهير، مثل جاري كوبر، أو سبنسر تراسي. ولا يقدر على شراء مثله من الأدباء سوى هيمنجواي، لا أحد غيره. وسألني كم أريد مقابل كل هذا، فقلت له: مليونين... بعدها أخذ يحسب شيئًا على الطاولة، ثم طلب مني أن أتقدم منه، وسحب دفتر شيكات من جيبه، وقال إنه سيشتريه، وسيصدر لي شيكًا بخمسين ألف دولار... حاولت استجلاء الأمر عدة مرات، فزاد المبلغ إلى ستين، وسبعين، وثمانين ألف دولار.. رأيت وعرفت أن فندقي هذا لا يمكن أن أبيعه ولا حتى بمليون دولار. ففندقي هذا، فندق الانكسار كان ذروة قوتي وسعيي، وأنا الآن الأول وسط أصحاب الفنادق. ففنادق كتلك التي يمتلكها السيد برانديس، أو

44- منطقة تبعد 25 كيلومترًا شرق مدينة براج. (المترجم)

السيد شروباك موجودة في العالم بالمئات والآلاف. لكن لا أحد يمتلك فندقًا كفندقي هذا... حدث ذات مرة أن جاء إلينا أكبر أصحاب الفنادق في براج بسيارة، بمن فيهم السيد براندايس والسيد شروباك. طلبوا عشاءً، فأعد لهم كبير الطهاة والسعاة مائدتهم بكل عناية وذوق رفيع، ومن أجلهم وحدهم وضعت عشرة مصابيح كبيرة تحت الصخرة المضيئة، وخبأناهم تحت النباتات الوردية، ووزعناهم بحيث أضاءت الصخرة بأكملها، وبرزت بحوافها الحادة، وظلالها الرائعة، وورودها وشجيراتها. نويت لو أن أصحاب الفنادق هؤلاء جنحوا للسلم، وقرروا أن يضموني إليهم، ويعرضوا عليّ عضوية في اتحاد أصحاب الفنادق سأنسى كل شيء كما نسوه هم. لكن ما حدث هو أنهم لم يكتفوا بالتظاهر بأنهم لم يروني من قبل، بل جلسوا وأداروا ظهورهم لكل تلك المناظر الجميلة في فندقي، وعاملتهم أنا أيضًا بالمثل، وحق لي هذا. شعرت بالانتصار لأني رأيتهم يديرون ظهورهم للمشاهد الفريدة في فندقي لسبب وحيد، لأنهم عرفوا وتيقنوا من أني قد تفوقت عليهم الآن، وأن من نزلائي شتايبيك، وموريس شيفالييه[45] اللذين طاردتهما الفتيات إلى هنا وطوقت الفندق. استقبلهم شيفالييه بالبيجامة في الصباح، وانقضت عليه الفتيات، عاشقات المطرب، وجردوه من ملابسه، ومزقوا بيجامته من أجل أن تأخذ كل واحدة قطعة منها للذّكرى. ولو استطعن لقطعن شيفالييه نفسه إربًا، وأخذن منه قطع لحم كل حسب مزاجه،

45- موريس شيفالييه (1888 - 1972م). ممثل فرنسي ومطرب عالمي شهير. (المترجم)

وحسب طبيعتهن، قد ترغب كل واحدة منهن أن تأخذ جزءًا من قلب المطرب الشهير، ومن بعد قضيبه... جذب شيفالييه هذا قطيعًا من الصحفيين، فصارت صور فندق الانكسار في جميع الصحف المحلية والعالمية. جاءتني أخباره من فرانكفورتر ألجماين، وزيوريخار تسايتونج، ودي تسايت، وحتى في هيرالد تريبيون، ظهر فندقي والفتيات المجنونات من حول شيفالييه فوق المنصة حيث تماثيل الماكينات. تلك الماكينات المحاطة بطاولات بيضاء ومقاعد مساندها مطرزة بعناقيد عنب صنعها حدادون مهرة من صفائح حديدية. من أجلها جاء أصحاب الفنادق، لا لكي يتصالحوا معي. جاؤوا ليتأكدوا من أن ما رأوه أقوى بكثير وأجمل مما تخيلوه، والأهم أنهم جاؤوا إلى هنا ليروا أني اشتريت هذا المحجر بمقابل بخس وبكل ما فيه، غاروا أيضًا من أني تركت كل شيء على حاله الذي اشتريته عليه، وبنيت الفندق في داخله. فكل ذي عقل إذًا يثمن ما فعلته ويُعلي من قدري وكأنني فنان من الفنانين... تلك كانت قمة ما بلغت، وما جعلني إنسانًا لم يضع حياته هدرًا. وهكذا بدأت أرى فندقي على أنه عمل فني، بدعة ابتدعتها فرآها الآخرون... وجعلوني أنتبه إليها، فهمت لاحقًا، ربما متأخرًا، لكني فهمت أن تلك الماكينات هي بمثابة تماثيل لا يمكنني التنازل عنها بأي ثمن. رأيت ذات مرة بأن ما صنعته في المحجر يشبه ما جمعه الرحالة هولوب

الذي جمع نابرستك[46]. سيأتي وقت بكل تأكيد تُوضع فيه لافتة «أثر تاريخي» على واحدة من هذه الماكينات وعلى كل حجر، وعلى كل ما في الفندق... رغم كل هذا شعرت بالإهانة من أصحاب الفنادق الذين جاؤوا، لأني ما زالت لا أنتمي إليهم، ولست ندًّا لهم بما أملكه، رغم أني تفوقت عليهم. كثيرًا ما أسِفت أثناء الليل على المملكة النمساوية القديمة، وعلى أنه -رغم المناورات- لو نزل عندي أرشيدوق نمساوي، ولا أقول القيصر شخصيًّا، لخدمته، ولأعددت كل ما طاب له من طعام، وما سُرّت له عيناه حتى يرفعني إلى منزلة النبلاء، فأصبح بارونًا ليس أكثر... واصلت حلمي. جاءت موجة حارة شديدة الحرارة، وجف كل شيء في الأراضي، وتشققت الحقول، وشرعت الأطفال تلقي المكاتيب في الشقوق، وأنا أحلم بالأرض وقد غطتها الثلوج، وجاء الصقيع. أحلم بأني ألمع سطح البحيرة، وأضع فيها طاولتين، على كل طاولة مشغل موسيقى عتيق. واحد ببوق أزرق وآخر ببوق وردي يشبه الزهور، وأني سأشتري أسطوانات موسيقى قديمة بها موسيقى الفالس القديمة والفواصل الموسيقية الشهيرة. وفي المسبك نيران مشتعلة، وألواح الخشب تشتعل على شباك معدنية على شاطئ البحيرة، والضيوف يتزلجون. أحلم أني سأشتري زلاجات قديمة أو أطلب من أحدهم صناعة زلاجات قديمة فوق عجلات. الرجال يثبتون الزلاجات للنساء، جاثين أمامهن فوق

46- متحف نابرستك نسبة إلى فويتا نابرستك (1826-1894) وهو مصلح اجتماعي تشيكي. (المترجم)

الأرض يقدمون لهن الخمر الساخن... وهكذا واصلت حلمي بينما الأخبار تحمل سجالات الأحزاب السياسية، من سيتحمل نفقات هذا الجفاف الذي حلمت فيه بجنة شتوية وسط المحجر. تشاجر نواب البرلمان وأعضاء الحكومة في مبنى البرلمان عمن سيتحمل نفقات هذا الجفاف، واتفقوا على أن أصحاب الملايين هم من سيتحملون نفقاته. تلقيت القرار بكل رضا، فأنا أيضًا من أصحاب الملايين. تمنيت أن يظهر اسمي في الجرائد كأحد المليونيرات، بجوار اسم شروباك وبرانداييس والآخرين، وأن هذا الجفاف من حسن طالعي، ومصيبتهم لي نعمة أحقق فيها ما حلمت به، بأن يرقيني الأرشيدوق إلى مرتبة النبلاء، أصبح مليونيرًا كبيرًا بعد أن كنت يومًا نادلًا بسيطًا صغيرًا... لكن مرت الشهور ولم يرسل أحد في طلبي. لم يطلب مني أحد أن أسدد حصتي كأحد المليونيرات. اشتريت مشغلي الموسيقى، وجلبت أوركسترا رائعًا. اشتريت إضافة إلى الأوركسترا حلبة بها أحصنة كبيرة تتأرجح، وغزلان وظبي. طلبت منهم فك حلبة الأراجيح تلك، ووضعت الأحصنة والغزلان فوق حاجز حجري حول البحيرة ليجلس فوقها أي ضيف وكأنه فوق «لونجشيز»، وهي مقاعد فرنسية متقابلة، كنبة صغيرة كنت أجلس عليها مع أي فتاة نتبادل أطراف الحديث. دائمًا ما وضعت ظبيين وحصانين متجاورين وكأننا في سباق بهي. بالفعل أحدث هذا فرقًا. دائمًا ما حجز الضيوف تلك الأحصنة والغزلان ليجلسوا عليها مع السيدات بينما الأوركسترا يعزف لهم الموسيقى، والضيوف تتأرجح فوق تلك الحيوانات الخشبية ذات

السروج الرائعة، والعيون الفاتنة. كل شيء فيها رائع. كانت حلبة ألمانية صاحبها رجل ثري يمتلك حلبة إطلاق نار ومدينة ملاهي... زارني ذات يوم زدينياك، وكان من كبار القوم في المدينة، وربما في المحافظة كلها. تبدلت أحواله بشكل ملحوظ، لم يعد كما كان. تأرجح فوق الحصان وهو يلتفت من حوله. حدثني همسًا عندما جئت وجلست فوق حصان بجواره، ثم أخرج وثيقة مطوية تؤكد أني قد صرت في عداد المليونيرات، وأني سأسدد حصتي كرجل مليونير. مزقها وأنا أحاول منعه، ثم قام وألقاها في النار. ألقى شهادة اعتمادي الجميلة. ثم ضحك ضحكة حزينة، وأكمل شرب كأس المياه وهو من اعتاد شرب الكحول الثقيل. وانصرف بابتسامة حزينة تنتظره سيارة سوداء فخمة ليعود من حيث أتى. إلى السياسة التي كان يصنعها، وآمن بها. السياسة التي بنى عليها مجده والتي على ما يبدو جميلة طالما هي قادرة على تعويضه عن كل الأعمال الفخمة التي يبدد فيها كل أمواله. دائمًا ما كانت أعمالًا خيرية، وكأن تلك الأموال تحرقه فيعيدها إلى الناس الذين ظن أنهم يستحقونها... تداعت الأحداث من بعدها. وكما حلمت قمت بتنظيم الأمسيات الفاخرة وحفلات العصاري في المحجر. مشغلات الموسيقى والزلاجات، والنيران في المسبك ومن حول البحيرة المتجمدة. لكن الضيوف الذين قدموا إلينا بدوا حزانى، ثم فرحى. لم تكن فرحة كما أعرفها. كانت فرحة مُتعمَّدة كفرحة الألمان عندما عرفوا أن لقاءهم بزوجاتهم وعشيقاتهم في كوشيتشك هو آخر لقاء، يذهبون من بعده مباشرة إلى الجبهة...

على هذا النحو ودعني ضيوفي، صافحوني ولوحوا لي بأيديهم من سياراتهم وكأنه آخر لقاء لن يعودوا من بعده أبدًا. تكرر نفس الأمر كلما جاؤوا. جاؤوا حزانى عابسين، لم يصل الأمر إلى فندقنا، لكن كل شيء دار في أروقة السياسة. جاء شهر فبراير، وعرف كل ضيوفي أنها النهاية، فأسرفوا قدر استطاعتهم، بينما اختفت السعادة والانبساط من أنفسهم. تقبلت حزنهم أنا أيضًا. توقفت عن إغلاق حجرتي، وإنزال الستائر ورص الأوراق النقدية فئة المئة كرون، حصيلة اليوم، على الأرض وكأنني ألعب الورق. النقود التي كنت أحملها كل صباح إلى البنك حيث وضعت مليون كرون... انقضت تلك الأيام... ثم جاء الربيع، وتوقف ضيوفي عن الظهور في فندقي، ذهبوا كما ذهب كبار الضباط الألمان إلى كوشيتشك. توقف الكثير منهم، عملائي الدائمون عن التردد على الفندق. علمت بعدها أنهم قد لقوا حتفهم، أو سجنوا، أو ألقي القبض عليهم، وأن البعض منهم قد هرب خارج البلاد... وجاء ضيوف آخرون، وازدادت الأرباح. لكني أخطأت الحساب. ما الذي حدث بضيوفي الذين ترددوا عليّ أسبوعيًّا، ولم يبقَ منهم اليوم سوى اثنين. أخبراني أنهم مليونيرات، وأن عليهم أن يستعدوا غدًا بأحذية قوية، وأغطية، وجوارب احتياطية، وطعام، فسوف ينقلونهم إلى معسكر يتجمعون فيه بتهمة أنهم مليونيرات... طرت فرحًا لأني مليونير مثلهم. أحضرت دفتر التوفير، أريته لهذين الضيفين. أحدهم تاجر أدوات رياضية، والثاني صاحب مصنع لإنتاج أسنان صناعية. أخبراني بما حدث، وأطلعتهم على

دفتر التوفير الذي أمتلكه، ثم انصرفت على الفور. أحضرت حقيبة ظهر، وحذاء متينًا برباط، وجوارب احتياطية، وطعامًا محفوظًا. استعددت أنا أيضًا لاستقبالهم بعد أن أخبرني تاجر الأسنان الصناعية أن كل أصحاب الفنادق في براج قد جاءهم استدعاء مماثل...

انصرفوا في الصباح باكين، لم تأتِهم الجرأة على الهرب عبر الحدود، ولم يجدوا في أنفسهم قدرة على المخاطرة. أخبراني أن أمريكا، وعصبة الأمم لن تترك الأمر يمر، وأن كل ممتلكاتهم ستعود إليهم مجددًا، وأنهم سيعودون إلى قصورهم وعائلاتهم... بقيت أترقب وصولهم، مر يوم، ويومان، وأسبوع. جاءتني أخبار من براج أن كل المليونيرات قد تجمعوا في معسكر، وأن هذا المعسكر هو مدرسة للرهبان في مدينة سفاتيان، في كنيسة ضخمة، في مسكن كهنة المستقبل الذين تم ترحيلهم... اتخذت قراري يوم جاؤوني من المحافظة، وسلموني قرارًا مختصرًا بأن اللجنة القومية ستستولي على فندق الانكسار، وأنه تم تعييني أمينًا على المكان، وأن جميع حقوق الملكية ستؤول إلى الشعب... بتُّ مغلولاً. عرفت بحقيقة الأمر، أن زدينياك هو من يقف وراء ما حدث. توجهت إلى المحافظة، ودخلت على زدينياك في مكتبه. لم يقل شيئًا، ابتسم بحزن، ثم التقط استمارة من على مكتبه، ومزقها في وجهي، وقال إنه يمزق استدعائي للاستجواب نظير أني تحملت عنه يومًا تبعات النظر إلى ساعة اليد. قلت له إني لم أتوقع منه ما فعل، وإني ظننت أنه صديقي، لكنه ليس كذلك. فأنا

لم أتمنَّ في حياتي أكثر من أن أكون صاحب فندق، وأحسب على أصحاب الملايين. تلك هي غايتي التي سعيت من أجلها. انصرفت من عنده. وقفت أثناء الليل أمام بوابة مدرسة الرهبان، حيث وقف أحد أفراد الميليشيا يحمل بندقية عسكرية، فأخبرته أني مليونير، صاحب فندق الانكسار، وأني أريد أن أتحدث مع القائد في أمر هام... رفع رجل الميليشيا سماعة الهاتف، وبعد لحظات فتح لي بوابة المدرسة، ثم أخذني إلى مكتب القائد حيث جلس رجل ميليشيا من دون بندقية، أمامه سجلات واستمارات، وزجاجة بيرة لا ينفك يشرب منها... بعدما فرغ من الشراب سحب نفسه إلى أسفل الطاولة، وأخرج زجاجة أخرى، ثم فتحها وأخذ يشرب منها بنهم وكأن سعار العطش قد أخذه... سألته إن كان ينقصهم أحد المليونيرات... فأنا لم أتسلم استدعاء رغم أني مليونير... نظر إلى القوائم، ومر بالقلم على الأسماء، ثم قال إني لست مليونيرًا، ويمكنني العودة إلى البيت... لكني أوضحت له أن في الأمر خطأ، وأني بالفعل مليونير... لكنه أمسك بكتفي، واقتادني إلى البوابة، ثم دفعني وصرخ: اسمك ليس عندي في القائمة، إذًا فأنت لست مليونيرًا! فأخرجت دفتر التوفير، وأريته إياه، وقلت إني أمتلك في دفتر التوفير هذا مليونًا ومئة كرون وعشرة قروش... ثم أضفت بكل انتصار: ألا يعني هذا شيئًا؟ فنظر إلى دفتر التوفير وأنا ألح في طلبي: لا يجب أن تتركني أرحل... وأخيرًا ترأف بحالي، ودفعني إلى الصف، وأعلن أني معتقل، سجل كل بياناتي، وكل المعلومات الضرورية... بدا مبنى طلبة اللاهوت هذا بالفعل

كسجن، كثكنة عسكرية، أو كسكن جامعي لطلبة فقراء. الفارق الوحيد أن صليبًا معلقًا في كل كوات الطرقات وبين النوافذ في كل مكان، بالتناوب مع مشاهد من حياة القديسين. على كل لوحة تقريبًا مشهد تعذيب، رعب مهول رسمه فنان بكل دقة. المضحك أن أربعمئة مليونير وضعوا في زنازين الرهبان، في كل واحدة أربعة أو ستة مليونيرات. توقعت أن تحدث أعمال ترويع وترهيب كما حدث عندما سجنت لمدة ستة أشهر بعد الحرب بناء على قرار المحكمة، لكن العكس هو ما حدث. كوميديا رخيصة حدثت في مدرسة القديس چان. عقدت المحاكمة في غرفة الطعام، وجاءت الميليشيات ببنادقها العسكرية، وشُرَط حمراء تزين أكتافهم، وأحزمة لا تنفك تسقط من بزّات موحدة لا تناسب مقاساتهم وكأنها فُصّلت عن عمد ليرتدي كبيرهم أصغرها وصغيرهم أكبرها. ففضلوا فكّ أربطتها. حكمت المحكمة بالسجن لمدة عام مقابل كل مليون امتلكه كل مليونير. فحكم عليّ بعامين نظير مليوني كرون بينما حُكم على صاحب مصنع الأدوات الرياضية بأربع سنوات لأنه امتلك أربعة ملايين. كما حكم على السيد شروباك بالسجن لأطول فترة عقوبة وهي عشر سنوات نظير الملايين العشرة التي امتلكها. أكثر الصعوبات التي قابلتها هي نوعية الأوراق التي سجلوا فيها تلك السنوات وبيانات المحكوم عليهم، كما حدثت مشكلة كبرى في إحصاء أعدادنا في المساء. كل مساء يختفي واحد منا، والسبب هو أننا ترددنا على قرية مجاورة لنشتري منها بيرة في أباريق، أيضًا لأن حراس السجن

كانوا دائمًا سكارى، فلم يقدروا على تسجيل أعدادنا رغم أن الإحصاء يبدأ منذ العصر، ففضلوا إحصاءنا على دفعات، كل دفعة من عشرة أشخاص. دائمًا ما صفق أحد الحراس، فيرمي حارس ثالث حجرًا حتى يصلوا إلى السجين الأخير، بعدها يحصون الأحجار، ويضيفون صفرًا إلى النتيجة، فلا يبلغ العدد المتبقي رقم عشرة. كانت أعدادنا تنقص وتزيد في كل يوم رغم تواجدنا جميعًا. حدث أكثر من مرة أن اكتمل إجمالي عدد المليونيرات المعتقلين، وقاموا بتسجيله، فارتاح الجميع. لكن عندما جاء أربعة مليونيرات يحملون أباريق البيرة أعلنوا أنهم معتقلون جدد كي لا يختلط عليهم الأمر من جديد. كل يوم يحكم على مليونير بمزيد من السنوات حسب الملايين التي يُقرّ بامتلاكها. رغم أن المكان كان مسكنًا للطلبة لكن بلا سور. لذلك جلس رجال الميليشيات عند البوابة، الأثرياء يذهبون إلى الحديقة ويعودون منها مرورًا بالبوابة التي يفتحها رجال الميليشيا في كل مرة، ثم يغلقونها ويوصدونها بالمفتاح رغم أنه لا أثر لأي سياج أو حائط حول المكان. كثيرًا ما اختصر رجال الميليشيا الطريق مرورًا بالحديقة، لكن ضمائرهم تستيقظ لاحقًا، فيعودون إلى البوابة، ويمرون بجوارها عبر الحديقة يحملون المفتاح، ثم يفتحونها، ويدخلون منها، ثم يغلقونها من جديد، ويتوجهون بمحاذاتها إلى داخل المبنى. المشكلة الأكبر كانت مع الطعام. وكانت مشكلة مفتعلة، لأن القائد ورجال الميليشيا شاركوا أصحاب الملايين طعامهم، ويقدمون الطعام الذي يأتيهم من ثكنات الميليشيا إلى

الخنازير التي اشتراها المليونير صاحب مصنع أطقم الأسنان الصناعية. كان عددهم في البداية عشرة، ثم صاروا عشرين خنزيرًا. ترقب الجميع بسعادة أوقات نحر الخنازير لأن من بين المليونيرات تجار لحوم وعدونا بأكلات طيبة سال لها لعاب رجال الميليشيا قبل أن يذوقوها، أخذوا هم أيضًا يضيفون إليها مزيدًا من وصفات الأكلات التي تصنع من لحم الخنازير. لم يكن طهي الطعام في هذا المعتقل يحدث على طريقة مساكن كهنة المستقبل، بل على طريقة الكنائس الفخمة، أو رجال الصليب[47] على سبيل المثال. عندما تنفذ أموال أحد المليونيرات، يرسله قائد الميليشيا إلى البيت لإحضار أموال غيرها. في البداية يرافقه أحد رجال الميليشيا متخفيًا في زي مدني، ثم اكتفوا لاحقًا بالتعهد. استطاع المليونير المعتقل أن يذهب إلى مدينة براج لإحضار نقود، يسحبها من دفتر التوفير في بنك الادخار، من المليون أو الملايين التي يمتلكها بعد أن يعطيهم قائد الميليشيا شهادة بأن هذه الأموال ستنفق للصالح العام. وهكذا دار الطبخ في مسكن الطلبة. كان قائد الميليشيا يقر قائمة طعام، ويرفق بها ملاحظاته عليها حيث اعتبر رجال الميليشيا المليونيرات ضيوفًا عليهم. وهكذا اجتمعنا سويًّا في حجرات الطعام... ذات مرة حصل المليونير تاينورا على تصريح بأن يذهب إلى براج لإحضار رباعي موسيقي، وهي فرقة موسيقية. عندما جاءت الفرقة بسيارة

47- اسم جماعة من الكهنة التشيك كانوا يحملون على صدورهم صلبانًا من مختلف الألوان والأشكال. ويقضون حياتهم في خدمة الفقراء. (المترجم)

تاكسي -وكان يسمح لسيارات التاكسي أن تأتي من المدينة حتى مفترق طرق- مر الموسيقيون حول البوابة المؤصدة، ودخلوا إلى معسكر اعتقال المليونيرات. أيقظوا الحراس وكان الليل قد انتصف، ثم خرجوا أمام البوابة التي عجز الحراس الناعسون عن فتحها، فدار المليونير حول البوابة، ومر بالحديقة وجاء إلى البوابة من الجهة المقابلة. أخذ منهم المفتاح، ثم دار حول البوابة وخرج، ثم فتح لهم. لكنه وجد المفتاح تالفًا، لا يصلح لغلق البوابة، فانصرف وأغلقها من الداخل، ثم سلمهم المفتاح... كثيرًا ما أسِفت من أن زدينياك ليس مليونيرًا، فهنا ما ينشده. كان ليبدد كل أَمواله وأموال الآخرين الذين لا خيال لهم، ولساعدهم على إنفاق تلك الملايين، أو لأنفقها نيابة عنهم وبموافقة منهم... لفحت الشمس أجساد المليونيرات المعتقلين بعد مرور شهر وهم يتشمسون فوق التلال، بينما شحبت أجساد رجال الميليشيا وهم يحرسون البوابة، أو يصدرون البلاغات من الزنازين، عاجزين عن عمل بلاغ واحد بأسماء النزلاء، لأن بعض الأسماء، مثل نوفاك، ونوفي تكررت هنا لثلاث مرات. كان لازمًا عليهم أن يكونوا دائمًا في كامل عتادهم، لذلك كثيرًا ما سقطت منهم البنادق وخراطيش الطلقات، ودائمًا ما محوا أو أعادوا كتابة بلاغات، كتبها في نهاية المطاف كل مليونير صاحب فندق نيابة عنهم وكأنها قائمة طعام. كانت هناك زريبة حيوانات من مخلفات المدرسة الكاثوليكية وبها عشر أبقار لا يكفي ما بثُدِيها لعمل قهوة الصباح. كانوا يبيعون هناك قهوة بيضاء خشنة، يضاف إليها -حسب وصفة

صاحب الفندق شروباك- كوب صغير من الرّم. تعلم هذه الوصفة من مقهى «زاخر» بمدينة فيينا. لذلك اشترى تاجر الدهانات ومساحيق الألوان خمس بقرات إضافية فحدثت وفرة في الحليب. خاصة بعد أن أنف بعض النزلاء بقرة بيضاء فأضافوا إلى القهوة كوبًا صغيرًا من الرّم، أو شربوه من الكوب مباشرة من قدر منتفخ كي يهضموا ما أكلوه في أثناء الليل. كانت الزيارات الشهرية من أسر المعتقلين من الأمور الجيدة أيضًا... اشترى قائد الميليشيا حبالًا بيضاء لتعليق الغسيل، ومدها بامتداد حائط وهمي. لم تكفه الحبال فصنع خطًّا بنفسه يفصل المعتقلين عن المبنى السكني وعن العالم الخارجي... فجاءت زوجات المعتقلين وأطفالهم يحملون الحقائب على ظهورهم، وأكياس الطعام، شرائح اللحم، والمعلبات المستوردة. رغم محاولتنا الظهور بمظهر البائسين فضحتنا بشرتنا التي لفحتها الشمس والتغذية الجيدة، ولو جاء أحد لا يعرف ما يحدث لظن أن الزوار هم المساجين، وأن السجين ليس هنا، بل في الخارج. بدا جليًّا أن الزوار كانوا أكثر استياء من أقاربهم المليونيرات السجناء. ولأن الطعام وفير فقد تشاركناه نحن المليونيرات مع رجال الميليشيا الذي أقبلوا على أي طعام، إلى درجة أنهم طلبوا من قائدهم أن يسمح للزيارات مرتين في الشهر. مرة كل أسبوعين... حدث أيضًا أنه كلما احتجنا إلى ثلاثين أو خمسين ألفًا سمح القائد بحمل الكتب الثمينة من مكتبة الكنيسة، والذهاب بها إلى براج بالسيارة لبيعها في محل للكتب القديمة... ثم توصلوا إلى إمكانية بيع

مفارش الأسِرّة، وملابس النوم، وعتاد كهنة المستقبل في كنيسة القديس چان التي نتشمس فوق تلالها، ثم نأخذ قيلولة ما بعد الغذاء... لكنهم توصلوا إلى ذلك بعد فوات الأوان. فقد عرف عتاة المليونيرات بالأمر من قبلهم، فاختاروا أجمل المفارش، أكياس النوم الطويلة المصنوعة في أنوال جبلية، وخبؤوا في حقائبهم عشرات الفوط الجميلة المكدسة في مستودعات الكنيسة. كل من غادر الكنيسة بصفته كاهن المستقبل كان يأخذ من العتاد ما أراد، دون رقيب أو سلطان. صار ذلك العتاد متاحًا لرجال الميليشيا وأصحاب الملايين، كي لا تظهر أي عدوى في معسكر المليونيرات، كوليرا، أو زحار أو تيفود. كثيرًا ما حدث أن أخذ المليونيرات إجازة بعد أن وثقوا بنا، وتأكدوا من أننا لن نهرب. ولو حدث وهرب أحد، وهو ما حدث مرتين، نأتي بمليونير آخر طيب معروف كي يستريح من أسرته عندنا... وهكذا استبدل رجال الميليشيا ملابسهم، وارتدوا ملابس مدنية، وارتدينا نحن ملابسهم كي نحرس أنفسنا بأنفسنا. تمنينا جميعًا أن يصيبنا دور الحراسة يوم الأحد أو السبت وحتى صبيحة الأحد. كانت كوميديا لا قبل لشارلي شابلن نفسه بها. كنا نقضي ساعات ما بعد الظهيرة بأكملها في لعبة سميناها تدمير معسكر المليونيرات. ارتدى مسؤول البوابة، المليونير تاينورا زي الميليشيا، وأعلن أنه ستتم تصفية المعسكر، وأن المليونيرات يمكنهم العودة إلى بيوتهم. لكن المليونيرات اختبؤوا، فراح المليونيرات المتخفون في زي رجال الميليشيا في إقناعهم. حكوا لهم عن أن الحياة

خارج السجن جميلة، وخالية من أي معاناة، أو استخذاء تحت سوط الجلاد، وأنهم سيتمتعون بحياة أصحاب الملايين الحرة. لكن المليونيرات رفضوا سماع أي كلام عن هذا الأمر، فأمر كل من المليونير تاينورا الذي ارتدى زي الميليشيا، وقائد المليونيرات الآخرين الذي تخفوا مثله في الميليشيا ووقفوا يحرسون البوابة بتصفية المعسكر. أخرجنا عنوة من الزنازين كل من امتلك منهم عشرة ملايين أو ثمانية، ثم بحثنا عن مفتاح البوابة لكننا فشلنا في فتحها، فدار المليونيرات من حولها، وفتحوها من الخارج، ثم داروا من حولها عائدين، وانفجرنا جميعًا في الضحك ونحن نراقبهم؛ المليونيرات - قادة الميليشيا يقتادوهم إلى الخارج، ويغلقون البوابة من خلفهم. فصعد المليونيرات المرتفع، والتفتوا من حولهم، وعدلوا عن رأيهم، ثم عادوا يطرقون على بوابة السجن، راكعين أمام المليونيرات في زي الميليشيا، يتضرعون إليهم كي يقبلوهم لاجئين... ضحكت كثيرًا، لكنني في الواقع لم أضحك، لم أشعر أني واحد منهم رغم أني مليونير مثلهم، ورغم أني أنام في سرير واحد مع السيد شروباك، صاحب الفندق. شعرت بأني غريب عنه، فلم أقدر حتى على أن أناوله ملعقة سقطت منه يومًا. رفعتها، ووقفت ممسكًا بها، وبقيت واقفًا في بوفيه السجن بذراع ممدودة تحمل الملعقة، تمامًا مثلما حدث قبل سنوات وأنا أمد يدي بكأس لم يرغب أحد في أن يقرعه، وانصرف السيد صاحب الفندق لإحضار ملعقة أخرى ليشرب بها الحساء، ودفع بتأفف الملعقة التي وضعتها له بجوار أدواته بفوطة طعام

فسقطت فوق الأرض. تابع الجميع ما حدث، رأوا السيد المليونير وهو يرفس الملعقة بقدمه بعيدًا عنه، فطارت بعيدًا حتى بلغت طاولة الطعام المخصصة للقساوسة... ضحكت رغمًا عني، فكلما تحدثت عن المليون الذي أملكه، وعن فندقي في المحجر صمت جميع المليونيرات، وصرفوا أنظارهم عني. لم يعترفوا بالمليون الذي أملكه، أو المليونين. أدركت أنهم يتحملونني وسطهم، لكني لست أهلًا لهم. فقد صنعوا ملاييهم من قبلي، قبل أن تندلع هذه الحرب، بينما أنا محدث نعمة أُثري من الحرب، ولا يرغبون في أن يضموه إليهم، لا يقدرون على أن يفعلوا، فلست جديرًا بهم. هكذا كانت الحال حتى في أحلامي، فلو أن الأرشيدوق رقاني إلى طبقة النبلاء، وجعلني بارونًا فلن يجعل هذا مني بارونًا حقيقيًّا، لأن النبلاء لن يقبلوني وسطهم، وسيرفضونني كما رفضني أصحاب الملايين. ظننت عندما كنت خارج السجن قبل عام أنهم سيقبلون بي بينهم، كنت واثقًا بصفتي صاحب فندق الانكسار بأني ندٌّ لهم، وأنهم سيمدون لي أيديهم وسيتحدثون معي، لكنها كانت مجرد أوهام، شأنها شأن أي رجل ثري يحاول كسب ثقة مدير الفندق، أو المطعم، ويستجديه أن يعطيه كأسًا إضافيّة، وأن يشاركه المدير الشراب... ولو أن هذا الثري التقى ذلك المدير في الشارع صدفة فلن يتوقف من أجله، ولن يتحدث معه. إنها مسألة تفاخر، أن تكون من أصدقاء مدير الفندق، وعلى علاقة طيبة بهذا المدير أو صاحب الفندق، لأنه ذو تأثير على ما سيقدم له من طعام أو شراب، وعلى اختيار الغرفة التي سينزل بها. يلتزم الكتمان مقابل

قرع كأس معه، والشرب سويًّا في صحة كليهما، وتبادل بعض الكلمات اللينة ودفع بقشيش له. رأيت أيضًا أن تلك الملايين تظهر أو ظهرت على طريقة السيد براندايس، يقدم لكل العاملين كرات البطاطس، ويقتصد في الإنفاق على أبسط الأشياء. حتى هنا، كان أول من عرف كيف يحصل على أجمل الفوط والمفارش، ولا يمنعه شيء من أن يحملها في حقيبته ويمر بها من البوابة ويحمله إلى بيته. لا لأنه في حاجة إليها، لكن لأن روح المليونير لم تسمح له أن يترك فرصة سنحت له دون انتهازها، أو كي يدرب نفسه على امتلاك أشياء جميلة مجانًا من عتاد كهنة المستقبل. كنت مسؤولًا هناك عن رعاية الحمام. بقي منها مئتا زوج من حمام الزاجل. قرر القائد أن أقوم على تنظيف أبراج الحمام، وأن أقدم لها الماء وفضلات الطعام... كل يوم كنت أذهب بعد الظهيرة أدفع أمامي عربة إلى المطبخ أحضر عليها فضلات الطعام... نسيت أن أقول إن مدير المعتقل أسرف كثيرًا في أكل اللحم إلى درجة أنه اشتاق إلى رقائق البطاطس، وشطائر الحلوى بمربى الخوخ والجبن المبشور الغارقة في القشدة الحامضة. جاء المليونير بارتا تاجر الملابس زيارة، فاقترح على المدير أن تتولى زوجته، وهي امرأة من الأرياف، صناعة الحلوى... بذلك ظهرت في المعتقل أول امرأة. كانت بطوننا ممتلئة باللحم، وجاءت ثلاث سيدات أخريات إلى المعتقل، ثلاث سيدات مليونيرات إضافة إلى زوجة السيد بارتا التي تصنع الحلوى. منذ ذلك الوقت، ومنذ أن تم إطلاق سراح مليونيرات أثبتوا أنهم يحملون الجنسية النمساوية

أو المجرية، أصبح لدينا عشر زنازين فارغة. ففكر المليونيرات في تأجير تلك الزنازين لزوجات المعتقلين اللواتي أصبح في مقدورهن زيارة أزواجهن المليونيرات مرة كل الأسبوع. فليس من الطبيعي أن يُحرم رجل متزوج من زوجته. هكذا بدأت عشر جميلات يتناوبن الإقامة في الزنازين. عرفنا بعدها أنهن لسن زوجات لأحد، بل سيدات قادمات من حانات سابقة. تعرفت على اثنتين منهن بعد أن تقدمن في العمر، رغم ذلك احتفظن بجمالهن. كن الجميلات اللواتي ترددن علي فندق باريس لتقديم العروض في أيام الخميس أمام رجال البورصة... لكنني أقبلت بسعادة على رعاية الحمام، مئتا زوج حمام دقيق في مواعيده. يحط فوق سطح الكنيسة في تمام الثانية ظهرًا. أراها من المطبخ، فأنطلق بالعربة. أضع عليها جوالين من فضلات الحبوب، وقدور البطاطس، وبقايا الخضروات، وغيرها. أنا من خدم ملك الحبشة أطعم الحمام الذي رفضوا جميعًا إطعامه. فتلك مهمة لا تليق بأيادي المليونيرات. كنت أذهب إلى الحمام في توقيت دقيق، كلما دقت الساعة الثانية. حتى لو لم تدق كانت الشمس دليلي، أخرج كلما ظهرت، في نفس التوقيت، على حائط الكنيسة، فتطير أربعمئة حمامة من على السقف باتجاهي، يرافقها ظل، وحفيف أجنحتها وريشها، وكأنها دقيق أو ملح انسكب من جوال. تحط تلك الحمائم على العربة، ومن لم تجد لنفسها مكانًا تستقر فوق كتفي، وتتطاير في الهواء ترفرف بأجنحتها حول أذني، تكاد تحجب عني العالم بأسره، وكأنني في عربة ضخمة تمتد من

خلفي ومن أمامي، وأنا مغطى تمامًا في عربة من أجنحة متحركة، وثمانمئة عين رائعة تشابه العنب البري. أجر كل هذا معي وأنا ممسك العربة بكلتا يدي، بينما المليونيرات يشهقون من الضحك وهم يروونني غارقًا وسط الحمام، أقوده حتى الفناء الصغير حيث يجهز على الطعام، ويظل هكذا طويلًا إلى أن يُفرغ الجوالان، وتُلعق القدور. تأخرت ذات مرة، وكان القائد يتذوق حساء إيطاليًّا بجبنة بارميزان، وأنا أنتظر القدْر. سمعت دقات الثانية، تطاير الحمام إلى المطبخ قبل أن أبرح مكاني، أربعمئة حمامة طوقت الحاضرين، وأطاحت بالملعقة من يد قائد معسكر الاعتقال. انطلقت على الفور إلى الخارج، فداهمني الحمام عند عتبة الباب، وأخذ ينقرني بمناقيره نقرات رقيقة. خبأت وجهي ورأسي بيدي، وهربت. لكن الحمام لاحقني، وتطاير من خلفي. فتعثرت والحمام يطير من حولي، ويحط على جسمي. جلست فوجدت نفسي محاطًا بحمام يطايبني. كنت له بمثابة إله يهبه الحياة. ألقيت نظرة على حياتي السابقة، فوجدت نفسي الآن محاطًا برسل إلهية، ذكور الحمام وإناثه، وكأنني قديس، مبعوث العناية الإلهية، بينما المليونيرات يسخرون مني. سمعت ضحكاتهم، وصياحهم، وتعليقاتهم، وأنا مفتون برسائل الحمام. آمنت وقتها أن المستحيل قد صار حقيقة، ولو أنني أمتلك عشرة ملايين، وثلاثة فنادق فهي لا تضاهي ذلك اللثم والنقر من مناقير الحمام، ذكوره وإناثه. إنها رسالة سماوية أثارت إعجابي، تشبه تلك الصورة التي رأيتها فوق لوحات المذابح، وعلى المشاهد التي تزين طريق الصلبان الذي

نسلكه لنصل الزنازين. لكني وقتها لم أرَ شيئًا، ولم أسمع شيئًا. كل ما أردته هو أن أكون الشخص الذي لم أقدر على أن أكونه، مليونيرًا. ورغم أني أمتلك مليونين فقد أصبحت الآن ملياردیرًا وأنا أرى هذا الحمام صديقي، إنه علامة على رسالة تنتظرني. ما يحدث لي الآن هو نفس ما حدث مع شاؤول عندما سقط من فوق حصانه، وتجلى له الله... عندما اخترقت خفقات ثمانمئة جناح، وخرجت من وسط الريش المتحرك وكأنني أخرج من وسط أغصان شجرة صفصاف حزينة، جريت، وجررت العربة وما بها من جوالين من الفضلات، وقدور، وبقايا خضروات، فلاحقني الحمام، وحط فوقي، وأنا أحاول سحب العربة ناحية الفناء الصغير وسط سحابة الحمام وأجنحته الخفاقة. راودتني وأنا في ذلك الطريق رؤية. رأيت زدينياك، لا بصفته رجل سياسة، بل ككبير سقاة في فندق تيخوتا. رأيته ونحن في نزهة في أحد أيام الإجازة، رأينا وسط أيكة من شجيرات البتولا رجلًا شابًّا يحمل صفارة ويهرول وسط الأشجار، يصفر ويشير بيده، ويدفع الأشجار بعيدًا عنه، ويصرخ: ماذا دهاكَ من جديد؟ يا سيد رشيها، مرة أخرى وسأطردك خارج الملعب! ثم عاد يجري هنا وهناك وسط الأشجار، وزدينياك سعيد، بينما أقف مشدوهًا مما يحدث. في المساء أخبرني زدينياك أنه السيد شيبا، حكم مباراة كرة قدم. وقتها لم يرغب أحد في أن يتولى تحكيم مباراة فريقي سبارتا وسلافيا. لأنهم يسبون الحكم دائمًا. ولما رفض جميع الحكام المهمة، قال السيد رشيها إنه سيتولاها... وراح يتدرب في غابة

صغيرة وسط أشجار البتولا، يجري وينشر الفوضى وسط الأشجار، يحذر، ويهدد بالطرد كلًّا من بورجار وبراين، واشتد توبيخه لـ»رشيها»، وحذره من أنه سيطرده لو فعلها مرة أخرى... بعد الظهيرة، وعلى سبيل التغيير، أخذ زدينياك من مستشفى الأمراض العقلية أتوبيسًا كاملًا من المرضى العقليين في رحلة. وكانت رحلة إلى إحدى القرى الصغيرة، وكان يوم عيد. ارتدوا ثيابًا مخططة وقبعات، تأرجحوا فوق أرجوحة دوارة، وفوق باقي الأراجيح. أخذهم بعدها زدينياك، واشترى لهم برميل بيرة بصنبور من إحدى الحانات، واستعار كؤوس بيرة، وأخذهم إلى أجمة البتولا. هناك صب لهم البيرة من ذلك البرميل، وشربوا. ظهر هرول شيبا وسط أشجار البتولا وهو يصفر، والمجانين يتابعونه، ثم انتبهوا إلى ما يقصده، فانطلقوا يهتفون ويزعقون، ويرددون كل الأسماء الشهيرة في كل من نادي سبارتا وسلافيا. شاهدوا براين وهو يركل بلانيتشكا في رأسه. فظلوا يهتفون إلى أن طرده الحكم... ولما دفع الحكم اللاعب رشيها عنه ثلاث مرات، وحذره ثلاث مرات، لم يبقَ أمامه إلا أن يطرده بسبب خشونته مع يازبيرا. صرخ المجانين، وبعدما أفرغوا برميل البيرة رأينا وأنا معهم أشجار البتولا وقد تحولت إلى أقمصة حمراء وأخرى حمراء وبيضاء. كل شيء يحدث بإيقاع حاد. الحكم السيد شيبا الصغير يصفر، ثم يحمله المجانين على الأعناق إلى خارج الملعب بسبب تحكيمه الرائع لمباراة كرة القدم... بعد شهر أطلعني زدينياك على تقرير عن الحكم شيبا الذي طرد براين ورشيها، وحافظ على

المباراة بصفارته اليقظة...

صار المستحيل حقيقة... وبدأت الدائرة تكتمل. بدأت في العودة إلى أيام الطفولة، أيام الصبا، ثم صرت نادلًا صغيرًا. بقيت أبتعد وأقترب. وقفت عدة مرات أمام نفسي، وجهًا لوجه. لا عن رغبة مني، لكن الأحداث أجبرتني على مطالعة حياتي، وقت أن كنت أنتظر مع جدتي في غرفتها الصغيرة بجوار نافذة مفتوحة أسفل نوافذ مراحيض حمامات كارلوفي فاري، منها تتساقط كل خميس ملابس التجار الرُّحّل الداخلية التي ظهرت أحيانًا كأقمصة بيضاء منتفخة مصلوبة على خلفية ليل أسود. أحيانًا تسقط الملابس الداخلية فوق عجلة الطاحونة الضخمة، فتصطادها جدتي بخطاف، ثم تغسلها، وتلفقها وتبيعها لعمال البناء. وصلتنا أخبار في معتقل المليونيرات أنه بقي لنا هناك أسبوع واحد. بعدها سيكلف البعض بالعمل، والعجائز منا سيعودون إلى بيوتهم. فأعددنا العشاء الأخير بعد أن تدبرنا أكبر قدر من الأموال. أخذنا إجازة، وذهبت مع السيد تاجر الأسنان الصناعية إلى بيته الريفي حيث يخبئ الأموال... تلك أيضًا كانت تجربة مثيرة. وصلنا البيت تحت جنح الليل. نصبنا السلم، وفتحنا باب السقف على ضوء بطارية. نسي التاجر الحقيبة التي يخبئ فيها مئة ألف كرون، لذلك شرعت في فتح أولى الحقائب الصغيرة، وكانت متشابهة. ذهلت وأنا أفتح آخر الحقائب وأكبرها، وأسلط الضوء على جوفها، رغم أنه أمر متوقع من تاجر أسنان صناعية. رأيت في تلك الحقيبة أسنانًا صناعية

وفكوكًا بأعداد رهيبة. فكّ علوي أو سفلي وردي بأسنان بيضاء، ومئات أطقم الأسنان الصناعية. وقفت فوق السلم مذعورًا من تلك الأسنان المتراصة المنقبضة بقوة التي بدت لي كنباتات آكلة اللحوم، بعضها موارب، والبعض الآخر مفتوح عن آخره وكأنها تتثاءب حتى كادت تنفرط. سقطت على ظهري، وتكوم جسدي، ثم شعرت بهياكل الأسنان الباردة فوق ذراعي ووجهي. انتفضت، وسقط المصباح من يدي، وسقطت أنا أيضًا طريحًا فوق الأرض، والأسنان تتساقط من فوقي. تفسخ جسدي، وامتلأ بأطقم الأسنان الصناعية. اقشعر لها بدني إلى درجة أن انحبس صوتي فلم أقدر على الصراخ... استدرت فوق بطني، وبسرعة حبوت سريعًا فوق أربع، كأي حيوان أو عنكبوت، لأخلص نفسي من تلك الأسنان... ظهرت آلاف الكرونات في قاع الحقيبة. جمع التاجر الأسنان بكل عناية، وكسحها فوق جاروف، ثم ألقاها في الحقيبة. بعد ذلك حزم الحقيبة بحبل، وجرها من مقبضها... أغلقنا بعد ذلك البيت، وعدنا صامتين إلى محطة القطار. كان عشاءنا الأخير كولائم الأفراح في فندق باريس. ذهبت إلى غرفتي في براج لأحضر حُلّة جديدة، وأحمل القلادة التي قلدني إمبراطور الحبشة، وأضع الوشاح على صدري. اشتريت زهورًا، وبضع باقات من أغصان الاسبراجس لتزين الطاولة. قضى كل من السيد شروباك والسيد برانداييس ساعات العصاري يزينان الطاولات في صالة طعام الكهنة. اشتكى السيد برانداييس من عجزه على الحصول على أدوات طعامه الذهبية. دعونا كل المليونيرات وقائد المعتقل. كان

هذا الرجل بمثابة أب طيب. التقيناه في اليوم السابق في المساء صدفة عند مشارف القرية، قال له السيد براندايس عندما سألنا إلى أين نذهب: تعالَ معنا، يا سيدي القائد. نحن ذاهبون إلى المرقص. لكنه لم يأتِ. اكتفى بهز رأسه، وانصرف ببندقيته التي حملها وكأنه يحمل سنارة صيد أسماك. استاء كثيرًا من حمل تلك البندقية العسكرية، ولم يجدها لائقة به. حلم بأن يعود إلى مهنته كعامل منجم بعد إغلاق معسكر المليونيرات... ومرة أخرى عدت نادلًا، ارتديت لباس النادل، لكن على نحو مختلف عما اعتده من قبل، كانت هذه المرة حُلة كاملة. يبدو أن أحوالي قد تغيرت. علقت النجمة على ياقة الجاكيت، ووضعت الوشاح الأزرق فوق صدري. لم أمد جسدي، ولم أرفع رأسي كي أكون أطول عدة سنتيميترات. تساوت الأمور عندي، لم أجد في نفسي رغبة في أن أكون ندًّا لأصحاب الفنادق ولا المليونيرات. ذبل كل شيء في نفسي، رأيت الوليمة من زاوية مختلفة. حملت الطعام دون اكتراث رغم أن السيد شروباك، صاحب الفنادق، شاركني توزيع الطعام ومعه السيد براندايس، ارتدى كل منهما حلة السقاة. عندما تذكرت فندقي، فندق الانكسار، لم أشعر بالأسف من أنه لم يعد فندقي بعد أن تسلمت الإخطار. كانت أمسية حزينة للغاية، بدوا كلهم واجدين جادين وكأنه بالفعل العشاء الأخير كما رأيته فوق اللوحات، وهنا في حجرة الكهنة، صورة بعرض الحائط. تناولنا الـ«سالبيكون» كمقبلات، وشربنا معه نبيذًا من جنوب موارفيا. ثم رفعت عيني ناحية لوحة العشاء الأخير، تبعني الآخرون، وبدأنا

نشبه هؤلاء الرسل على اللوحة. انقبضت أنفسنا كلنا أثناء شواء شرائح اللحم البقري. تحولت الوليمة إلى عرس قانا الجليل. صار المليونيرات أشد يقظة كلما أسرفوا في شرب الخمر. ساد الصمت مع تناول القهوة والكونياك. عبست وجوه رجال الميليشيا الذين اتخذوا طاولة مدرسي مدرسة الرهبان وأساتذتها طاولة لهم. كستهم الكآبة وقد علموا أنه بحلول منتصف الليل تأتي لحظة الفراق الأبدي، بعد أوقات رائعة قضوها معنا وتمنوا ألا تنتهي إلى الأبد... وفجأة دق جرس الكنيسة يدعو لقداس منتصف الليل، أطلقه الكاهن الوحيد الأعرج الذي تركوه هنا من بين ثلاثين كاهنًا آخرين رحلوا. ترأس الكاهن الأعرج قداسًا للمليونيرات الكاثوليك. وكان عددهم قليلًا في تلك الكنيسة وقد عقدوا حقائبهم وأجربتهم. فجأة وضع ذلك الكاهن الأعرج كأس القربان وهو يبارك بها المؤمنين، ورفع يده، فانطلق صوت الأراغن هادرًا، وراح الكاهن ينشد: ♪أيها القديس فاتسلاف، أمير بلاد التشيك♪[48]... تردد صوته في حجرة طعام الكهنة، وهدير الأراغن، تطلعنا جميعًا إلى لوحة العشاء الأخير، كاثوليك وغير كاثوليك، بعد أن تناغم كل ذلك مع مزاجنا الحزين الكئيب. وقفنا، واحد تلو الآخر، إلى أن قام كل أفراد الجماعة... هرولنا عبر الفناء، ودخلنا إلى المصلى في ضوء الشموع الأصفر. وسجدنا جميعًا، لم نكن ساجدين،

48- أنشودة دينية وطنية تشيكية شهيرة ظهرت في القرن الثاني عشر يقول مطلعها: أيها القديس فاتسلاف، أمير بلاد التشيك/ وسيدنا، ادعُ لنا الله، ادعُ لنا الروح القدس! كرياليسون! (المترجم)

بل طرحتنا أرضًا قوة فوقنا جميعًا، نحن المليونيرات، شيء في أنفسنا أقوى من الأموال، شيء يرفرف في الهواء، وينتظر آلاف السنين... غنينا وصلينا: ♪لا تهلكنا نحن ولا نسلنا♪[49]. سقط بعضنا على وجهه. جثوت أنا بجوارهم أنظر إلى وجوه تبدلت، وصارت لأناس آخرين لا أعرفهم. لا أثر لأي مليون على الوجوه، صارت الوجوه كلها خاشعة خاضعة لما هو أجمل وأثمن ما في الإنسان... بدا ذلك الكاهن الأعرج وكأنه لا يعرج، بل يحمل فوقه أجنحة ثقيلة. بدا في ذلك الرداء الأبيض كملاك يعرج تحت وطأة أجنحة ثقيلة... رفع الكاهن كأس القربان وبينما نحن ساجدين، منقلبين على وجوهنا، ومر بين الساجدين بتلك الكأس الذهبية، ثم عبر الفناء ورداؤه الأبيض يشع نورًا وسط الظلام، وكأنه رداء فسفوري كذلك الذي ارتداه البهلواني الذي تشقلب فوق الحبل وسقط من أعلى الصخرة في بحيرة فندق الانكسار كي تلتهمه المياه كما التهم ذلك الكاهن رقائق الحلوى عندما باركنا في المرة الأولى... ثم دقت الساعة لتعلن انتصاف الليل. ودّع كل منا الآخر، وعبرنا البوابة المفتوحة. صافحنا رجال الميليشيا وقائدهم، اهتزت أياديهم محبة. كانوا جميعًا عمال مناجم قدموا من مدينة كلادينسكوا. اختفينا وسط الظلام، وتوجهنا إلى محطة القطار بعد أن أخلوا مدرسة الرهبان، وطلبوا منا أن نعود إلى منازلنا. لا فرق بين صاحب عشرة ملايين أو مليونين... طوال الطريق وأنا

49- المقطع الثاني من الأنشودة السابقة. ويقول: أنت وريث بلاد التشيك/ لا تهلك نسلك/ لا تهلكنا نحن ولا نسلنا. (المترجم)

أفكر في مئتي زوج الحمام وهم ينتظرونني عند دقات الثانية، فلا يجدونني. توجهت إلى بيتي مهمومًا بأمر الحمام. لم أقصد مدينة براج بل الفندق. مشيت في طريق أخذني خارج الغابة، توقعت أن أرى وراءها فندقًا مضيئًا، فلم أجد سوى الظلام... وصلت إلى التماثيل، وطواحين الأحجار دون أي خوف. وجدت الفندق مغلقًا. بوابة الدخول مغقلة، ومن فوقها ألواح الخشب عليها قفل ضخم. درت حول السور، وقفزت من فوق مرتفع كسته نباتات الخلج، ووصلت إلى وسط منطقة الفندق. فوضى في كل مكان، المقاعد ملوثة منكسة... أمسكت بمقبض غرفة الشواء فوجدته مفتوحًا. اختفى المطعم بلا أثر، ربما نقلوا محتواه إلى مكان آخر. لكن نيران المسبك مشتعلة. اختفت أدوات المطبخ، وبدلًا منها بضعة كؤوس وأكواب للقهوة... بسعادة بالغة أخذت أتذوق كل خطوة أخطوها؛ هذا الفندق الرائع الذي أراد شتاينبيك أن يشتريه وأن يصدر لي شيكًا بخمسين، بل ستين أو ثمانين ألف دولار. لكني لم أقبل، وخيرًا فعلت. خيرًا فعلت وخير حدث. فطالما لا أقدر على أن أكون صاحب فندق فليذهب معي فندقي هذا الذي حولوه على ما يبدو إلى مسبح، فقد رأيت فوط استحمام بدلًا من فوط الطعام. وملابس بحر عالقة فوق حبل امتد من ركن إلى ركن... الشيء الوحيد الذي لم يكن هنا قبل الآن ووجدته جميلًا هو تمثال امرأة عارية قادم من واجهة عرض أحد بيوت الأزياء معلق رأسيًّا في السقف. مررت بالدهليز، اختفت السجاجيد، وكل النجف الزجاجي الصغير عند كل باب. أمسكت المقبض وكان مفتوحًا.

ألقيت نظرة وأشعلت الضوء، فوجدت الغرفة خاوية. ظننت أني سأجدها كما تركتها. وكان خيرًا أن الفندق قد اختفى باختفائي منه، ولن يقدر أحد على أن يفعل ما فعلته فيه أنا. كل من رأى فندقي سيتذكر كلما أراد، أو في مقدوره أن يتذكر تحت تأثير اللحظة كيف كانت الحال هنا، يستطيعون أن يغرسوا فندقي في أحلامهم، وأن يلتقوا كلما أرادوا بأجمل الفتيات في فندقي هذا، فقط في أحلامهم. كل زائر سبق وزار الفندق يمكنه أن يرى في أحلامه ذلك البهلوان والحبل الذي تدلى من ارتفاع سبعين مترًا، فوق منتصف البحيرة. يتوقف فوقها للحظات، ثم يطير برأسه وسط مياهها، أو يراه يسقط، حسبما تسمح به الأحلام، ويبقى عالقًا في الهواء فوق البحيرة، يلتفت من حوله مثل طائر يرفرف بجناحيه، مثل قنبرة عالقة وسط نسمة هواء، ثم يعود وكأنه فيلم يرجع للوراء، يعود عند الصخرة، من حيث جاء، إلى المكان الذي سقط منه قبل لحظات ممسكًا بحبل، ويسقط في الهاوية، إلى القاع، خلف مرآة سطح الماء...

انصرفت راضيًا. علمت عندما وصلت إلى مدينة براج أن عليّ أن أختار: إما أن أدخل السجن فأسلم نفسي لسجن بَنكراتس، أو أختار العمل التطوعي في إحدى الغابات. هذا يتوقف على قراري ورغبتي، بشرط أن يكون العمل التطوعي في منطقة حدودية اقترحوها عليّ. قبلت العمل التطوعي وأنا سعيد. تضاعفت سعادتي عندما تأكدت من أنني أضعت كعب حذائي. مزقت قطعة الجلد التي احتفظت تحتها بآخر طابعين، آخر نقود كثيرة بقيت

لي من زوجتي ليزا التي أحضرت الطوابع من ليمبرك، ومن لفوفا بعد حرق أحياء الأقليات، وتصفية اليهود. مشيت في براج دون رابطة عنق. لم أعد أرغب في أن تطول قامتي أطول مما هي، لم أعد أختار الفندق الذي سأشتريه من بين فنادق المدينة القديمة، وفنادق ميدان فاتسلاف. شعرت بالتشفي من نفسي وبالسعادة من أن طريقي القادم صار طريقي أنا وحدي، لن يجبرني أحد على الانحناء، والانتباه إلى ما أقول: طاب يومك، طاب مساؤك، أو عمت مساء، أو أقبل الأيادي. لم أعد مجبرًا على أن أنتبه إلى العاملين، وكنت واحدًا منهم، أخاف من أن يراني المدير جالسًا، أو أدخن سيجارة، أو آخذ قطعة لحم مطهو. أسعدني أني غدًا سأرحل إلى مكان آخر، بعيدًا عن الناس. ربما به هو الآخر بشر، لكني سأجد فيه ما آمنت به كثيرًا مثل أي إنسان يعمل تحت ضوء المصابيح، من أني يومًا ما سأذهب إلى الطبيعة، أمضي بعد تقاعدي لأرى شكل الغابة، وشمس تضيء وجهي طوال النهار، وطيلة الحياة، شمس أخبئ وجهي منها تحت قبعة أو في الظل... أحببت عملي وأنا نادل صغير. كل حراس العمائر، وكل مسؤولي البيوت وكل عمال التدفئة المركزية الذي خرجوا ولو لمرة واحدة في اليوم أمام العمائر، يرفعون رؤوسهم من خنادق شوارع مدينة براج، ويتطلعون إلى قبة السماء، إلى السحب، إلى تحديد الزمن حسبما تخبرهم به الطبيعة، لا ساعات أيديهم. لم تفارقني الأمور المستحيلة التي تصير واقعًا. آمنت بذلك المستحيل، بالدهشة والاندهاش، بالذهول. تلك كانت النجمة التي رافقتني

في حياتي، فقط كي تثبت لنفسها أن أمرًا مدهشًا ينتظرها في مكان ما، وأنا الذي رأيت بريق تلك النجمة أمام عيني طيلة حياتي، زاد إيماني بها، وتعاظم، لأنها رفعتني إلى مرتبة المليونيرات. الآن، وبعد أن لفظتني السماء إلى أسفل سافلين، وجعلتني أزحف فوق أربع، أكتشف أن نجمتي تتلألأ أكثر من أي وقت مضى. الآن فقط أستطيع أن أرى ما في قلبي، وما في داخلي. من المؤكد أن عيني لم تعد ترى الأشياء كما هي، من فرط ما مر بي، لم تعد قادرة على المعاناة والتحمل. ربما يجب أن أكون ضعيفًا كي أرى المزيد، وأعرف المزيد. وهذا ما حدث! وصلت إلى المكان بعد أن اجتزت الغابة سيرًا على الأقدام إلى أن بلغت مكانًا يبعد عن مدينة كراسليتسا عشرة كيلومترات. وقبل أن يصيبني اليأس رأيت كوخًا خشبيًّا متهدمًا لحارس الغابة. وما إن رأيته حتى طرت فرحًا. أعجبني البيت. إنه كوخ لحارس غابة هجره الألمان. لا يتخيل كل من تربى في المدينة وعاش فيها شكل كوخ حارس الغابة كلما سمع الكلمة. جلست أسفل غصين عنب بري فوق أريكة، واتكأت على حائط خشبي. سمعت بداخل الكوخ صوت ساعة الوقواق، لم أرها في حياتي من قبل. سمعت صوت الخشب وهو يدور، وعجلاتها وضجيج سيرها الذي يتحكم فيه ثُقل. نظرت إلى فرجة بين هضبتين، إلى أرض فضاء لا زراعة فيها. كلما مشيت خمنت أماكن زراعة البطاطس، والشوفان، والجاودار. صارت كلها الآن مهملة، مثلها مثل القرية التي مررت بها، وكأنني أمر بـ«العالم الآخر». رأيت عند مفترق طرق أن إحدى القرى كانت تسمى بهذا

الاسم فعلًا... نتأت أغصان برية ضخمة وعيدان عنب ناضج من وسط مبانٍ وأسوار متهدمة. استجمعت شجاعتي كي أدخل إلى بعض المباني، لكنني لم أفعل. رعب رهيب ملأ الأجواء. لم أقدر على تخطي عتبة بيت واحد، حيث كل ما به مقطع إربًا. أثاث مبعثر، ومقاعد وكأن أحدهم ألقاها في القمامة، أو قضى عليها لمس أكتاف... وكأن أحدهم كسّر بفأسه ألواح الخشب، وبفأس أخرى كسر أكفان مؤصدة... ظهرت في إحدى القرى بقرات ترعى. كان ذلك وقت الظهيرة والبقرات على ما يبدو عائدة إلى بيوتها فمشيت معها. صعدت البقرات زقاقًا من أشجار الزيزفون القديمة. ظهر من خلفها قصر على الطراز الباروكي... تراجعت الأشجار فظهر أمامي قصر رائع، مكعبات محفورة بمسمار في ملاط خام. ربما كان طراز عصر النهضة، على ما أظن، دخلت البقرات عبر بوابة متهدمة إلى ذلك القصر، تبعتها. ربما ضلت طريقها، أو شيء من هذا القبيل. هذا ما قلته لنفسي، لكن زريبتها كانت بالفعل هناك... صالة خيالين كبيرة، الدخول إليها من فوق درجات عريضة، ومأوى البقرات في الطابق الأرضي في تلك الصالة، تحت نجفة من الكريستال، ومشاهد رائعة من حياة رعاة الماشية. كل شيء بالألوان، كما فعل اليونانيون. أجساد الرجال أو النساء مغطاة حسب الشعيرة. ربما هي صور من جنوب أوربا أو أبعد من هذا. في أرض الميعاد. فتلك الثياب التي يلبسها الجميع كتلك التي لبسها المسيح في الصور، وكل من عاشوا معه وقتها. مرآة ضخمة بين النوافذ تقف أمامها البقرات، تديم النظر

إلى نفسها فيها بسعادة. نزلت درجات السلم فوق أطراف أصابعي فوجدت أني على أعتاب مستحيل آخر صار حقيقة. اعتبرت نفسي محظوظًا. لو أن رجلًا آخر في مكاني لما همّه شيء مما أرى. لكني أحببت ما رأيت، وطرت فرحًا لأني شاهد على هذا الخراب الذي بث الرعب في نفسي. شيء يراه رجل يخشي الجرائم، ويتجنب المصائب، لكن ما إن يحدث أمر يذهب ليشاهد، يحملق في بلطة في رأس أحدهم، أو في امرأة عجوز داسها الترام. لكني مشيت ولم أهرب كما يهرب الآخرون من مكان الحادث، سعيد بأن الأمر على ما هو. تأكدت من أن ما حدث لي من مصائب وكوارث وأهوال لم يبلغ بعد منتهاه، وأن ما ينتظرني وينتظر العالم بأكمله ليس بقليل... جلست أمام كوخ حارس الغابة، ثم جاء اثنان، عرفت أنهما غالبًا من سكان المنطقة، وأني سألقاهم هنا طوال العام، وربما أكثر من هذا... حدثتهما عن نفسي، وعن سبب وجودي هنا. دمدم لي رجل بذقن أشيب وهو ينظر إليّ بعين واحدة، وقال إنه أستاذ الأدب الفرنسي... وأشار إلى امرأة جميلة عرفت على الفور أنها غالبًا واحدة من فتيات الإصلاحية، أو واحدة ممن وقفن خلف بوابة المدينة القديمة. فتيات ظهرن هناك كلما أغلقت البورصة أبوابها. تخيلتها عارية، وتخيلت شكل شعيرات إبطها، وبطنها. شعرت بالدهشة من نفسي، ورأيت أن ذلك علامة طيبة. أيقظت هذه المرأة ذات الشعر الأحمر في نفسي رغبة دفنت منذ أعوام، في أن أجردها من ملابسها على مهل. أفعلها على الأقل بعيني طالما لا أقدر عليه في

الواقع. قالت لي إنها هنا تقضي عقوبة على أنها أحبت الرقص ليلًا، وإن اسمها مارتسيلا، وإنها كانت تعمل في مصنع أوريون للشكولاتة في مدينة كلادنوا. ارتدت سروالًا رجاليًّا ملطخًا بالصمغ، وشعرها ملبد بأشواك الأشجار. ثيابها بالكامل مكسوة بالأشواك... البروفيسور هو الآخر ارتدى حذاء بعنق طويل، تتدلى منه أصابعه. ملابسه بالكامل مكسوة بصمغ من أشجار الصنوبر. تفوح من كليهما رائحة حريق، زند خشب متفحم. دخلا الكوخ فتبعتهما. رأيت فوضى لم أرها حتى في المباني المحطمة التي خلفها الألمان وراءهم. وكأن أحدهم كان يبحث بفأس في يده عن كنز، أو يحطم أبوابًا مغلقة كي يصل إلى خزائن وصناديق... الطاولة مفروشة بأعقاب سجائر وعيدان كبريت، وكذلك أرضية الكوخ. وكأن ذراع أحدهم قد أطاحت بكل ما تبقى على الطاولة من مخلفات. أخبرني البروفيسور أني سوف أنام في الطابق الأول، وتقدمني إلى هناك، فتح بقدمه بابًا مثبتًا بدعامة مطاطية. فوجدت نفسي في غرفة جميلة كلها من الخشب، وبها نافذتان تطوقهما أغصان العنب والعليق. فتحت الباب ودخلت إلى شرفة من الخشب أستطيع التحرك فيها، تطل على كل الجهات محاطة بأغصان العنب البرية... جلست على صندوق مفتوح، وعقدت يدي في حجري. أردت أن أهلل من البهجة، وأن أفعل شيئًا... فتحت حقيبتي الصغيرة، ووضعت الوشاح الأزرق احتفالًا بما رأيته، وبما ينتظرني، وثبت النجمة الذهبية على ياقة الجاكت. ثم هبطت إلى غرفة المعيشة. وجدت البروفيسور جالسًا يدخن،

وساقاه فوق الطاولة، بينما المرأة تسوي شعرها، وتستمع إلى ما يقوله البروفيسور. كان يناديها يا آنسة. يردد تلك الكلمة باستمرار، وجسده ينتفض من كل ما تخبئه كلمة آنسة من معانٍ. ظننت أنه يتفق معها على أمر ما... دخلت الغرفة غير عابئ بأيِّ شيء ذي قيمة. ظهرت أمامها بصورة مسرحية، بيدين مرفوعتين وكأنني في عرض مسرحي، أشير في كل اتجاه... ثم جلست، وسألتهما إن كان عليّ أن أرافقهما إلى العمل قبل الظهيرة... ضحك البروفيسور، وكانت عيناه جميلتين، وقال: أبناء الأغبياء الأشرار المجرمين... وكأنه لا يرى النوط. قال إننا سنذهب بعد ساعة إلى العمل... ثم واصل حديثه مع الآنسة. لم يدهشني أنه يعلمها كلمات فرنسية: la table, une chaise..., maison... وهي ترددها وراءه، وتنطق الكلمات بلكنة مختلفة، وهو يقول لها بلطف شديد: نانا، أيتها الغبية، سأوقف الحديث، وأصفعكِ على وجهكِ بالحزام، لا بهذا الجلد... ثم يكرر تلك الكلمات الفرنسية بكل رقة... أعاد الكلمات بعينيه وبصوته وكأنه يلاطفها، يلاطف فتاة مصنع الشكولاتة أوريون، التابع لشركة مارشنر... فأعادت نطق الكلمات بطريقة خاطئة. اعتقدت أن مارتسيلا هذه تتبرم، ولا ترغب في تعلم الكلمات، وأنها تعرفها، لكنها تخطئ نطقها عن عمد، وأن البروفيسور يوبخها برقة: أبناء الأغبياء الأشرار المجرمين. سمعت البروفيسور يقول وأنا أغلق الباب خلفي: شكرًا! فدسست رأسي بين مصرعي الباب، وقلت: لقد خدمت ملك الحبشة... ثم مررت كفي على الوشاح الأزرق. طلبت منه أن

يعيرني حذاءه المطاطي الآخر لأن المنطقة هنا رطبة بالكامل. ضباب كثيف في الصباح يسقط وكأنه ستارة. ضباب يسقط في حلقات فوق كل قصبة نبات، وكل ورقة. يتعثر الإنسان بأي غصن فتنفرط قطرات الندى مثل عقد منحل. عمل مهول كان في انتظاري منذ أول يوم عمل. عدنا إلى شجرة تنوب جميلة، تطوقها حتى منتصفها براعم الصنوبر والتنوب. قطعنا الأغصان، ورصصناها طبقات فوق بعضها، إلى أن جاء عاملان يحملان منشارًا يدويًّا، فقال لي البروفيسور إن هذه ليست شجرة تنوب عادية بل شجرة رنانة، وسحب من حقيبته شوكة دوزنة، ونقرها بحجر فأصدرت صوتًا رنانًا، أحدثت أصواتًا رائقة، ودوامات أصوات كثيرة مركزة. ثم طلب أن أضع أذني فوق الحجر، وأستمع إلى تلك الأصوات الرائعة... وقفنا، واحتضنا شجرة التنوب. جلست الفتاة فوق جذع الشجرة، تدخن غير مبالية. كل ما تراه وكل ما يحدث يصيبها بالضجر والإزعاج. أدارت عينيها ناحية السماء وكأنها تشكو من رفقه مملة مجبرة على البقاء معها. أما أنا فقد حبوت، واحتضنت تلك الشجرة وأنا جاثٍ أمامها. رنينها أشد قوة من عمود الهواتف. بعدها سقط العاملان على ركبتيهما كي يجتزانها. تسلقت الأغصان التي تطوق منتصف جسد شجرة التنوب، ورحت أنصت إلى صوت المنشار، وأنات الشجرة تعلو. كان صوتًا أنيقًا، عكرًا بصوت منشار لا يتوقف. جذع يصرخ من طعنات في جسده... ثم صاح فيّ البروفيسور كي أنزل من فوق الشجرة. هبطت، وبعد لحظات مالت شجرة التنوب، وترددتْ

وبقيتْ مائلة، ثم سقطت يصاحبها صراخ جذعها، وكأن الأغصان التي احتضنتها منعتها من السقوط، وأبطأت من سقوطها، منعتها من أن تسقط، كما قال البروفيسور. حالت دون أن تغضبها فتفقد تلك الموسيقى القادمة من هالات التنوب الخشبية التي يندر وجود شجرة مثلها. والآن حان دورنا أن نقلّمها بحذر، وحسب خطة وضعها هو. قطعوها، وحملوها بحذر فوق أغطية قطنية، ونقلوها إلى المصنع. هناك يقطّعونها إلى ألواح، كبيرة وصغيرة، وشرائح رقيقة، يصنعون منها آلات الكمان والتشيلو، وكل الآلات الموسيقية الوترية... والأهم أن يعثروا على الألواح التي ما زالت تحتفظ في داخلها بالموسيقى... مر شهر على وجودي هنا، ثم شهران. نهيئ أفرع الأشجار كي لا تفقد أشجار التنوب الرنانة نغماتها المحبوسة في جذوعها الموسيقية الصوتية، نعدها مثل أم تضع وليدها في مخدعه كي ينام. أستمع كل مساء إلى البروفيسور وهو يوبخنا بعنف، يسب تلك الفتاة بأفظع الشتائم، ويسبني أنا أيضًا. كنا جميعًا بالنسبة له أغبياء، حمقى، حثالة، لا نعرف سوى النهيق، وهو يعلمنا كلمات فرنسية. كنت وأنا أطهو طعام العشاء في فرن جبلي من الآجر أستمع إلى تلك الكلمات الجميلة التي تخرج مشوهة من فم تلك الفتاة التي أرسلوها من مصنع الشكولاتة في عمل تطوعي فقط لأنها أحبت اللهو، وأحبت مضاجعة الشباب، في كل مرة واحد غير الذي سبقه، كما أخبرتنا هي. لم تختلف شهادتها عن تلك التي سمعتها من فتيات شوارع مثلها. الفارق هو أن هذه الفتاة أحبت ما تفعله،

ودون مقابل. فعلته فقط من أجل الحب، من أجل متعة قصيرة، من أجل أن يحبها أحد ولو للحظة، أو ليلة بأكملها. كان ذلك كافيًا بأن يجعلها سعيدة، بينما هي هنا مجبرة على العمل، وعلى أن تتعلم في المساء كلمات فرنسية، لا عن رغبة منها، بل عن سأم، وأمسيات طويلة لا تعرف كيف تقضيها، ولا مع من تقضيها... بدأ السيد البروفيسور في الشهر الثاني يلقي المحاضرات عن الأدب الفرنسي في القرن العشرين. وهنا حدث تغير أسعدنا نحن الاثنين... أبدت مارتسيلا اهتمامًا، وشرع السيد البروفيسور يسهب في الحديث عن السريالية، ويحاضر عن روبرت ديسنوس، وألفريد جيري، وريبيمو ديسياجنس، وعن جميلات باريس، والجميلات بصفة عامة... ثم أحضر ذات يوم الكتاب الأصلي، واسمه الوردة الشعبية[50]. يقرأ منه كل مساء، ويترجم إحدى قصائده. نحللها أثناء العمل، صورة وراء صورة. كان كل شيء فيها غامضًا، يتضح بعد أن نحلل محتواها وأنا أنصت بكل اهتمام، شرعت أنا الآخر في قراءة المجموعة. قصائد صعبة لم أحبها على الإطلاق. قرأتها، وفهمتها إلى درجة أني كنت أشرحها، حتى قال السيد البروفيسور: يا للهول! كيف عرفت كل هذا، أيها الأبله؟! شعرت وكأنني أرنب فرك أحدهم رقبته. شعرت بالعرفان. كلما سبني البروفيسور عرفت أنه يحبني. سبني كما يسب مارتسيلا التي لم يخاطبها أثناء العمل إلا بالفرنسية....

50- الوردة الشعبية أو (La rose publique) وهي مجموعة شعرية سيريالية ألفها بول إيلوار عام 1934. (المترجم)

ذهبت ذات يوم إلى المصنع أحمل ذلك الخشب الموسيقي، وبعد أن سلمته وأخذت راتبي اشتريت طعامًا وشيئًا أطهوه، وزجاجة كونياك، وباقة ورد من القرنفل. لكن المطر داهمني عند ناصية المصنع، فاختبأت أسفل شجرة، ثم هرولت إلى مرحاض قديم كي أختبئ فيه من سيول المطر الذي ظل ينقر فوق ألواح سقف ذلك المرحاض. لم يكن مرحاضًا، بل ربما كابينة، بيت صغير للحراسة العسكرية. لاحظت أن ثقوبًا في جانب تلك الكابينة مكسوة بألواح خشبية كي تصد عنها الرياح... جُلت ببصري في تلك الكابينة، أتلفت من حولي وأنقر على تلك الألواح التي غطت الجوانب والسقف... ولما توقف المطر عدت إلى مصنع الآلات الموسيقية، طردوني منه مرتين، لكني في النهاية ذهبت إلى المدير الذي رافقني خلف المصنع إلى مخزن متهدم. كان الوضع هكذا كما رأيته. عشرة ألواح ثمينة، عتيقة عمرها بضعة عقود، صنع منها أحدهم قبل أعوام بطانة لكابينة الحراسة لتحميها من الرياح... سألني: وكيف عرفت أنه خشب موسيقي رنان؟ قلت له: قد خدمت ملك الحبشة. ضحك المدير، وخبطني بلطف على ظهري، وأسرف في الضحك، ثم قال: أنت رجل ناجح... بادلته الضحكات، يبدو أني قد تغيرت إلى درجة أن لا أحد يصدق أني بالفعل قد خدمت ملك الحبشة...

لم أعنِ ما أقول، قصدت بذلك أن أسخر من نفسي بعد أن اكتفيت بنفسي. بدأ حضور الناس من حولي يزعجني. شعرت أن عليّ أن أتحدث فقط مع نفسي، وستكون هي أعز وأغلى نديم.

أتحدث مع قريني، كليمي، المربي الذي في داخلي الذي بدأت أتحدث معه أكثر فأكثر. ربما السبب في ذلك هو ما سمعته من السيد البروفيسور الذي تجاوز في السباب فلا يقدر أي حوذي على أن يسب حصانه أو البشر بنفس قدر بروفيسور الأدب وعلم الجمال الفرنسي... في الوقت نفسه شرح لنا كل ما شغله. حاضر كل مساء، حتى وأنا أفتح باب غرفتي. ظل يتحدث إلى آخر لحظة، قبل أن يداهمه النوم ويداهمنا، عن علم الجمال، وقواعد السلوك، والفلسفة والفلاسفة. دائمًا ما تحدث عن هؤلاء الفلاسفة بمن فيهم السيد المسيح بأنهم عصابة من الأوغاد والأنذال، والقتلة، واللصوص، لولاهم لكانت البشرية في حال أفضل. لكن البشر أبناء الأغبياء الأشرار المجرمين. ربما دفعني ذلك البروفيسور إلى القناعة بأن عليّ أن أكون وحدي، أرى النجوم في المساء، وآبار المياه العميقة في الظهيرة... فاتخذت قراري. وقفت ذات يوم، وصافحته، وشكرته على كل ما قاله، ثم انصرفت عائدًا إلى براج. بقيت هنا لما يقرب من ستة أشهر، بينما واصل البروفيسور وفتاته الحديث باللغة الفرنسية، ودائمًا ما وجدا ما يتحدثان فيه، حتى إن البروفيسور كان يتحدث وهو نائم، يحكي عن الأماكن التي رآها، وماذا فعل، يوجه مزيدًا من السباب إلى فتاته المتزينة كي يدهشها بتفاصيل حياته التي أجاد إعدادها. كان مولعًا بها كما رأيت في تلك البقعة النائية. مولعًا إلى درجة الجنون. عرفت بصفتي رجلًا خدم ملك الحبشة أن تلك الفتاة ستكون قَدَره رغم أنها يومًا ستهجره بعد أن تعرف كل ما تعرفه، وما تعلمته رغمًا

عنها، وما جعل منها امرأة جميلة ذات قدر... رددت ذات يوم مقولة عن أرسطو بمعنى مختلف عما سَمِعته، أو مخالف للسياق الذي تحدث عنه. قال أرسطو الذي اتهموه بأنه سرق أفكار أفلاطون إن المهر بعدما يمتص ثدي الفرس يرفسها. وهذا صحيح. أنهيت إجراءات آخر وظيفة أو ظننت أنها الأخيرة. ويبدو أنها ستكون بالفعل الأخيرة، لأني أعرف نفسي، ولأنني خدمت ملك الحبشة. رأيت أمامي مارتسيلا ذات يوم وأنا أسير جوار محطة القطار، غارقة في أفكارها، شعرها مضموم في ضفيرة واحدة، مثبتة برباط بنفسجي. بدت مستغرقة في التفكير، المارة يلتفتون إليها مثلي أنا، تتأبط كتابًا صغيرًا، وهي الفتاة القادمة من مصنع الشكولاتة أوريون ماشنار... التفاتة واحدة برأسي كانت كافية بأن أقرأ عنوان الكتاب، هو «تاريخ السريالية». واصلت السير وأنا أبتسم. خطوت بكل همة بعد أن رأيت تلك الفتاة السوقية الجسورة التي تحدثت مع البروفيسور كما اعتادت الحديث في كوشيرشا، منطقتهم. الفتاة التي علمها ذلك البروفيسور الطيب كل ما يليق بسيدة راقية متعلمة... الآن مرت بي، مرت وكأنها الجزء الهمجي في مكتبة جامعية. تيقنت من أن هذه الفتاة لن تكون سعيدة، لكن حياتها ستكون جميلة إلى حد الحزن، وأن حياة الرجل معها شقاء وإنجاز في الوقت نفسه...

مارتسيلا، فتاة مصنع الشكولاتة أوريون ماشنار، كثيرًا ما تراءت لي صورتها يوم أن قابلتها صدفة وهي تحمل الكتاب تحت إبطها. كثيرًا ما فكرت في ذلك الكتاب. ما الذي انسكب من

صفحاته إلى رأس تلك الفتاة المتأملة المنتصبة. لم أرَ سوى رأسها وعينيها الجميلتين اللتين لم تكونا بهذا الجمال قبل عام. كل هذا صنيعة ذلك البروفيسور الذي جعل منها امرأة جميلة تحمل كتابًا. رأيتها وهي تقلب بأصابعها صفحاته باحترام وإجلال. رأيتها وهي ذاهبة تغسل يديها قبل أن تمسك به. الطريقة والأسلوب الذي حملت به الكتاب جعلت العيون تخشع. مشيتها وقتها مستغرقة تشبه شجرة التنوب الموسيقية الرنانة. اختبأ سحرها كله في داخلها، وخرج من داخلها إلى عينيها لتراه عيون أخرى قادرة على أن تراها على النحو الذي وقفت عليه، وعلى الحالة التي آلت إليها. وكأنها انزلقت من عنق زجاجة وعبرت إلى الجانب الآخر، الجانب العكسي لصفات الأشياء الأخرى، الصفات الجميلة. خبّأت تلك الذكرى، صورة تمثال نصفي متحرك لفتاة مصنع الشكولاتة. ولو كان في يدي لخبأتها كلها في بتلات زهور الفاوانيا، وبالورود، لطوقت رأسها بأغصان التنوب والصنوبر، وبأفرع الدبق. أنا الذي لم أرَ من السيدات دائمًا سوى ما تحت الخصر، السيقان، والبطن. حركت عيني ورغباتي مع تلك الفتاة إلى أعلى، نحو رقبة جميلة، وأيادٍ جميلة تفتح الكتاب، إلى العيون التي ينبجس منها كل جميل حدث لها مع ذلك التحول الذي فاض وانساب في وجهها، وظهر في كل جعدة، وكل طية من طيات عينيها، في كل ابتسامة وحركة توكيد على أنفها، وسبابة ساحرة تتحرك من اليسار إلى اليمين. كل تلك التفاصيل، والوجه المتمدين بالكلمات والجمل الفرنسية، ثم الحديث، ثم الانخراط في نصوص

جميلة معقدة لرجال شباب، شعراء اكتشفوا إعجاز الجنس البشري. كل ذلك كان لي المستحيل الذي صار حقيقة... فتاة الشكولاتة في مصنع أوريون ماشنار، ورأسها الذي خبأته بكل الزهور المريمية التي اخترعتها من أجلها كي أزينها بها. طوال طريق العودة في القطار وأنا أفكر في تلك الفتاة. أبتسم لها، أتخيل أني هي، علقت صورتها فوق كل محطات القطار، وعلى كل عربات القطار المتحركة والواقفة على الأرصفة المجاورة. وصل الأمر إلى حد أني أمسكت بيدي، وأخذت نفسي من يدي، واقتربت منها وكأنني ممسك بيدها هي. نظرت في وجوه المسافرين. لم يقدر أحد على أن يعرف ما أحمله معي وفي داخلي، لم يتعرف أحد من وجهي على ما أحمله معي. عندما غادرت القطار في المحطة الأخيرة واصلت الرحلة في حافلة بإطلالة على مشهد طبيعي رائع، يشبه كثيرًا المكان الذي كنت أقطع فيه شجرات التنوب الرنانة بعد أن أطوق جذوعها عاليًا بأفرع متراصة وكأنها غطاء. تماديت في رسم صورة فتاة الأوريون ماشنار. رأيت كل من يعرفها يصرخ فيها، رأيت كيف يتعاملون معها أو يحاولون التعامل معها كما تعاملوا معها قبل أن تذهب للعمل التطوعي، رأيتهم وهم يستدرجونها كي تتحدث معهم كما تحدثت من قبل، ببطنها وساقيها، وكل جزئها السفلي الذي يفصله قطعة مطاطية رقيقة في سروالها الداخلي. لم ينتبه أحد إلى أنها صارت تفضل من جسدها الجزء الذي يعلو ذلك الحزام المطاطي... غادرت الحافلة في محطة «سِرني»، سألت

عن إدارة الطرق، وأعلنت أني ذلك الرجل الذي سيظل يعمل طوال العام في إصلاح الطرق، في مكان ناءٍ في الجبال، في منطقة يرفض الجميع العمل فيها.. بعد الظهيرة أعطوني حصانًا وعربة، وطلبوا مني أن أشتري عنزة، وأعطوني كلب وولف، فانصرفت بالحصان، ووضعت أمتعتي فوق العربة، واتخذت الكلب صديقًا. اشتريت له شطائر لحم، وانطلقت في طريق صاعد، فظهرت أمامي أشجار تنوب ضخمة، وأشجار صنوبر شاهقة، تتناوب مع أجمات ونباتات فوق أسوار متهدمة، سياج خشبية متداعية مثل كعكة زنجبيل، عصي متفسخة، تتحول إلى أوراق عفنة نبتت فيها شجيرات توت العليق، وطحالب مفترسة. مشيت حسب إيماءات من رأس الحصان. كان حصانًا صغيرًا يشبه أحصنة المناجم. ظننت أن هذا الحصان قادم من أعماق الأرض، عيناه جميلتان مثل أعين الوقادين والعمال الذين يعملون أثناء النهار على ضوء المصابيح والمشاعل. عيون خرجت من باطن الأرض، من عند التدفئة المركزية كي تتطلع إلى أعلى، إلى روعة السماء. عيون ترى كل سماء جميلة. دخلت في أرض مهجورة، ومررت ببيوت العمال الألمان في الغابات بعد أن هجروها. في كل مرة أتوقف عند عتبة بيت وسط أجمات شجيرات توت العليق البرية التي طالت صدري. أنظر من خلالها إلى المطابخ وغرف الجلوس التي غطتها الحشائش. رأيت مصابيح في كل بيت من تلك البيوت تقريبًا. تتبعت الأسلاك إلى أن بلغت نبع ماء، وجدت هناك بقايا محطة كهرباء صغيرة تعمل بمولدات صغيرة، محطات كهرباء

صنعتها أيادي عمال جاؤوا إلى هنا لتهذيب الغابة، عمال الغابات الذين عاشوا هنا، وأُجبِروا على الرحيل... أجبروا على الرحيل، وتم نقلهم مثل تلكم الأثرياء الذين تحكموا في السياسة، وعرفتهم عن قرب. الذين تكبروا وتجبروا، وتفاخروا، وتوحشوا، وامتلؤوا عتيًّا، ثم سقطوا إلى أسفل سافلين. تفهمت كل هذا، لكني لم أفهم السبب الذي جعلهم يطردون تلك الأيادي العاملة التي لم يحل محلها أحد. خسارة أن يختفي هؤلاء العمال الذين لم يعرفوا سوى الكد في الغابات، والحقول فوق سفوح الجبال، العمال الذين لم يجدوا وقتًا كي يتكبروا ويتجبروا. عمال كانوا بالتأكيد بسطاء. هكذا علمتهم الحياة التي رأيتها، وها أنا مقبل عليها. جاءتني فكرة، ففتحت حقيبتي، وأخرجت منها صندوقًا صغيرًا به تلك النجمة الذهبية، وضعت الوشاح الأزرق الفاتح على صدري، فوق معطفي المخطط، ثم انطلقت من جديد. النجمة تتلألأ على جانب معطفي، وأنا أسير على إيقاع رقبة الحصان المتحركة، الذي يلتفت إليّ باستمرار لينظر إلى وشاحي، ثم يصهل، والعنزة تثغو، الكلب ينبح سعيدًا، ويكاد يطال وشاحي. توقفت مرة أخرى، وأطلقت العنزة، ثم ذهبت لألقي نظرة على بيت آخر. كانت حانة، نُزلًا سابقًا وسط الغابة به صالة فسيحة، يابسة لحسن الحظ، بها نوافذ صغيرة. يبدو أن كل ما فيها على حالته الأولى، كؤوس البيرة فوق الأرفف يعلوها التراب، وبرميل بيرة فوق لوح خشبي بصنبور وذراع لصب البيرة... خرجت، فشعرت بعيون تراقبني. كانت قطة بقيت هنا، ناديت عليها فماءت. ذهبت

لأحضر رقائق السلامي، وسقطت على ركبتي كي أراودها لتأتي. أرادت أن ألاطفها، لكن الوحدة ونسيان رائحة البشر جعلتها تنفر. وضعت لها رقائق السلامي فالتهمتها. مددت يدي، لكنها تراجعت، وانتصب شعرها، وبخّت... خرجت إلى النور، كانت العنزة قد روت عطشها من ماء النبع. أخذت دلوًا، وملأته بالماء، وقدمته للحصان؛ انطلقنا بعد أن شرب. نظرت من ورائي عند المنعطف كي أرى شكل المنطقة من الخلف، مثلما كنت أفعل عندما تمر بي امرأة جميلة، فألتفت ناحيتها. رأيت القطة وهي تأتي خلفنا من عند الحانة. وجدت ذلك علامة طيبة. فرقعت السوط، وصرخت. سعادة أراحت صدري، وشرعت تلقائيًّا في الغناء. غنيت على استحياء، لم أغنِّ طيلة حياتي. لم أشعر يومًا، على مدى كل تلك العقود، برغبة في الغناء... والآن غنيت، ارتجلت كلمات وجملًا أملأ بها فراغات نص الأغاني... انطلق الكلب يعوي، جلس وطال عواؤه. أعطيته شريحة سلامي، فمسح نفسه في قدمي، لكني واصلت الغناء. غناء وليست أغنيات، أصدر صراخًا ظننت أنه أغنيات، ولم يختلف كثيرًا عن نواح الكلب. رغم ذلك شعرت أني أفرغ من داخلي بهذا الغناء علبًا، وأدراجًا مليئة بفواتير منقضية، وخطابات وبطاقات لا فائدة منها، تتساقط من فمي قصاصات ملصقات ممزقة، كل ندفة منها متصلة بالأخرى، قصاصات تشكل نصوصًا عبثية، تختلط فيها إعلانات مباريات كرة القدم، مع إعلانات حفلات الموسيقى، تتداخل ملصقات المعارض مع آلات نفخ موسيقية. كل ما استقر في الإنسان كدخان قادم من رئتي

مُدخِّن. بقيت أغني. شعرت وكأنني أبصق وأنفث من حلق وحلقوم مسدود، وكأنني أنبوب بيرة يطلق فيه رجل الحانة البخار، وينظفه بتيار ماء. شعرت أنني حجرة أزيلت من على حوائطها أوراق زينة تراكمت فوق بعضها طبقات، عاشت فيها أسرة على مدى جيلين كاملين... وهكذا عبرت المكان. لا يسمعني أحد. امتدت الطبيعة في كل مكان تقع عليه عيناي. لا أرى من فوق التلال سوى غابات وغابات. التهمت الغابة كل ما تخلف من أثر الإنسان، ومن عمله، بلا هوادة. تحولت الأراضي إلى أحجار، ودخل العشب والأحراش إلى البيوت. فتقت أغصان البيلسان الأسود الأرض الأسفلتية والألواح الحجرية، وأبعدتها، ونشرت فوقها أوراقها ومزيدًا من الأغصان. البيلسان الأسود أقوى من العتلة، ومن الروافع الهيدروليكية، ومن المكابس. مشيت على مَداق الحصى والحجر حتى بلغت مبنى ضخمًا. درت حوله، فرأيت أني سأكون سعيدًا هنا، بجوار هذا الطريق. أخبروني أني سأفرش الطريق بالحصى، وأقوم على تعبيده، رغم أنه لا أحد يتحرك فوقه، ولن يظهر فيه أحد. يمهدون الطريق فقط للحالات الطارئة، ولنقل الخشب في أشهر الصيف. ثم سمعت صراخ بشر، موسيقى من آلة كمان، وغناء باكيًا. مشيت على الطريق باتجاه الصوت، دون أن أنتبه إلى أن الحصان الذي حرّرته، وأطلقت سراحه، هذا الحصان والعنزة والكلب يمشون ورائي. وصلت إلى جماعة من ثلاثة رجال. كانوا من الغجر الذين سأحل محلهم. رأيت، وما رأيت إلا العجب. رأيت المستحيل وقد صار حقيقة...

امرأة غجرية عجوز تجلس بجوار النار متربعة مثل كل البدو الرُّحل، تخلط بعصا في يدها شيئًا في قدر بأذنين عالقتين فوق حجرين، تخلط بيد، وتتكئ بكوع ذراع الثانية على ركبتها، تسند جبينها إلى كفها. تتدلى فوق سيف يدها ضفيرة من شعرها الأسود... وغجري عجوز يجلس على الطريق بساقين منفرجتين، يسوي الحصى على الطريق بضربات معول قوية. ومن فوقهما شاب يرتدي سروالًا أسود ضيقًا حول خصره، يميل وهو يعزف على الكمان أنشودة الدومة[51] المفعمة بالعاطفة. أغنية غجرية ألهبت مشاعر العجوز، فراح يصرخ وينوح ببكاء طويل حزين، ينزع خصلات شعره تحت تأثير تلك الموسيقى ويلقي بها في النار، ثم يعاود دكّ الأحجار. بينما ابنه أو قريبه يعزف على الكمان، والعجوز تطهو لهما الطعام. رأيت أمام عيني ما ينتظرني في هذا المكان. سأبقى فيه وحيدًا، لن يطهو لي أحد الطعام، ولن يعزف لي أحد على الكمان. سأبقى مع حصان، وعنزة، وكلب، وقطة حافظت على مسافة كبيرة بينها وبيننا وهي تمشي خلفنا... سعلت فالتفتت المرأة العجوز، ونظرت إليّ وكأنها تنظر إلى الشمس... توقف العجوز عن العمل، ووضع الشاب الكمان جانبًا، ثم انحنى لي... قلت إني هنا لأبدأ عملًا تطوعيًّا... وقفت العجوز ورجلها، وانحنيا، ثم صافحاني وقالا إنهم قد استعدوا بكل شيء. رأيت أنهم يخبئون عربة في الحرش؛ عربة صغيرة يستخدمها الغجر، لها عجلات كبيرة في الخلف. أخبروني أني أول رجل

51- الدومة هي أنشودة شعبية جادة ينشدها العمال أثناء العمل. (المترجم)

يرونه هذا الشهر... قلت: أحقًّا؟ لكني لم أصدقهم... أخذ الشاب صندوقًا من العربة وفتحه، ثم وضع فيه الكمان بكل حرص وكأنه يضع طفلًا في مهده، وغطاه بعناية بغطاء مخملي مطرز بأحرف نوتة موسيقية، وكلمات إحدى الأغنيات... ألقى نظرة على آلة الكمان، ومرر يده على الغطاء، ثم أغلق الصندوق، وقفز فوق العربة. أمسك بزمامها، تبعه العجوز، عامل الطرق، وأخذ المرأة العجوز بجواره، وانطلقوا فوق الطريق الممهد. توقفوا أمام البيت، أخذوا منه أغطية ووسادة، وبضع أوانٍ ومغلاة. استحثثتهم على أن يبقوا للصباح، لكنهم تعجلوا الرحيل، كما قالوا، من أجل أن يروا رجلًا، بشرًا آخرين... سألتهم عن الأوضاع هنا وقت الشتاء. صاح الغجري العجوز: ويحك! سيئ للغاية، أكلنا العنزة، ثم الكلب، ومن بعده القطة. رفع يده، وضم ثلاثة أصابع علامة الوفاء، وقال: لم يظهر هنا أي إنسان على مدى ثلاثة أشهر... وغطتنا الثلوج... ثم انخرطوا جميعًا في البكاء، وأخرج الشاب الكمان، وعزف أغنية حزينة، بينما جذب العجوز اللجام فاتكأ الحصان على الطوق، ووقف الغجري الشاب يعزف فارجًا ساقيه بحركات قوية، وبوجه غجري رومانسي حزين، بينما جدته الغجرية، والعجوز الغجري يبكيان بكاء مكتومًا، أنينًا. ينظران نحوي بوجهين كستهما المعاناة والتجاعيد. أومؤوا لي، وبحركة من أيديهم أسفوا عليّ، واستنكروا ما أفعله. دفعوني بكلتا يديهم، لا بعيدًا عنهم، بل عن الحياة، وكأنهم يدفنونني ويوارونني التراب... وقف العجوز من فوق التل، ونزع خصلة شعر من

شعره. نزلت العربة، ولم تظهر سوى يد ترمي خصلة الشعر، ربما تعبيرًا عن انقطاع الرجاء والأسف على حالي... دخلت إلى غرفة كبيرة في النزل المهجور كي ألقي نظرة على المكان الذي سأكون فيه، ودرت به. دخلت إلى الحظائر، والسقيفة، ومخزن التبن دون أن أنتبه إلى أن الحصان والعنزة والكلب يتبعونني وحتى القطة... توجهت ناحية المضخة لأحضر ماء وأغتسل، ومن ورائي الحصان، والعنزة، والكلب والقطة... التفت ورائي، ونظرت إليهم، ونظروا جميعًا إليّ. وجدتهم خائفين من أن أتركهم هنا. ضحكت، وربت على رؤوسهم، واحد تلو الآخر. انتظرت القطة أيضًا أن أدللها، لكن حياءها منعها فتراجعت...

نبتت الأعشاب العالقة والحشائش من جديد على الطريق الذي مهدته، وملأته بكسرات الأحجار التي دككتها عليه، عاد الطريق الذي يشبه حياتي إلى ما كان عليه قبل أن أمهده. بانت آثار يدي على المسافة التي مهدتها. انبجاس السحب، وسيول الأمطار التي لا تتوقف كثيرًا هدمت الأرض، وجرفت الرمل وكسرات الأحجار، ودمرت العمل الذي أنجزته على الطريق، لكني لم أغضب، ولم أشتم، ولم ألعن القدر، بل انخرطت في العمل. أحمل الرمال والحصى والمدمة فوق العربة طوال أيام الصيف، لا لكي أمهد الطريق، بل لكي أتحرك بالعربة والحصان. انهار الجرف يومًا ما، بقيت لما يقرب من أسبوع كامل قبل أن أصل إلى المكان الذي انتهيت منه قبل أسبوع. أستيقظ في الصباح وأشرع في العمل بتركيز شديد. خففت من إرهاقي رغبتي في تحقيق الهدف،

والوصول إلى الجانب الآخر من الطريق. تمكنت من العبور بعد أسبوع بعربتي. شعرت بالفخر، ونظرت إلى الجهد الذي أعاد الطريق إلى حالته الأولى. لن يصدقني أحد، ولن يثني عليّ أحد، لن يعترف أحد بالساعات الستين التي قضيتها فيه، باستثناء الكلب، والعنزة، والحصان، والقطة. لكن هؤلاء لا يمكنهم الشهادة بما فعلت، لكني تجاوزت مرحلة الحرص على أن يراني الناس، وأن يثنوا على أعمالي. شهر بأكمله تقريبًا لم أفعل سوى الاجتهاد في العمل، منذ شروق الشمس وحتى غروبها، من أجل أن أعيد الطريق إلى الحالة التي كان عليها عندما توليت المهمة. مع الوقت جمعت بين ترميم ذلك الطريق وترميم حياتي التي رأيتها من خلفي وكأنها حياة شخص آخر، وكأن حياتي قبل أن آتي إلى هنا كانت رواية، كتابًا ألّفه شخص غيري. لكن مفتاحه معي أنا وحدي، أنا الشاهد الوحيد على حياتي، رغم أن طريقي ما زال في بدايته، لا يبرحها، ونَمَت في آخره نباتات ضارة، ليست ككل النباتات، معول ومجرفة. وهكذا أرمم بالذكرى طريقًا سالكًا إلى حياتي الماضية كي أقدر العودة بأفكاري إلى ما أود استدعاءه. نفضت المنجل بعد أن انتهيت من إصلاح الطريق، واجتززت الحشائش فوق المنحدرات لأصنع منه تبنًا ثم دريسًا. أحمل التبن بعد الظهيرة إلى مخزنه بعدما يصفو الجو، استعدادًا لفصل الشتاء الذي أخبروني أنه يستمر هنا لما يقرب من ستة أشهر... مرة في الأسبوع أمتطي الحصان، وأذهب للشراء، أعود من بعدها فوق طريق ممهد، ثم أنحرف عنه إلى سبيل لم يسلكه أحد غيري.

أنظر الى الخلف فأرى آثار عجلات عربة، وآثار حدوات حصان خلفتها الأمطار، أمر بقريتين مهجورتين وبعدها أصل طريقًا ممهدًا. رأيت على وجهه جعدات سيارات نقل، وفي التراب عند ضفته آثار عجلات دراجات نارية وهوائية، ووسائل نقل عمال إدارة الغابات والجنود الذين يعودون من هنا، أو يذهبون إلى أعمالهم أو للحراسة. اشتريت من المتجر معلبات ورقائق سلامي وشطيرة خبز كبيرة. توقفت بعدها في حانة، جاءني ساقيها ومواطنون آخرون، جلسوا بجواري وسألوني عن أحوالي في حياة الجبال، في تلك العزلة، أتعجبكَ؟ أخبرتهم بحماس بما لم يره أي إنسان في حياته، بكل ما هناك. حدثتهم وكأنني أمر من هنا بسيارتي، أو قدمت لقضاء يومين أو ثلاثة. تحدثت وكأنني جئت لقضاء عطلة، وكأنني إنسان مفتون بالطبيعة، وكأنني من سكان المدينة الذين كلما ذهبوا إلى الريف رددوا عنه حكايات رومانسية سخيفة، عن الغابات الجميلة، وقمم الجبال الرائعة الغارقة وسط الضباب، وكأنني أتمنى البقاء هنا إلى الأبد، في هذا المكان الرائع... تحدثت في تلك الحانة بارتباك عن أن الجمال له وجه آخر. فتلك البقعة الجميلة من الطبيعة على علاقة بقُدرة الإنسان على حب حتى الأشياء الكريهة، الموحشة، على حب الطبيعة، وحتى المطر الذي يستمر لساعات وأيام وأسابيع، والظلام الذي يهبط مبكرًا، فيجلس الإنسان بعدها بجوار المدفأة، ويظن أن الساعة قد بلغت العاشرة مساء وهي ما زالت السادسة والنصف، أن يعتاد الإنسان الحديث مع نفسه، ومخاطبة حصانه، وكلبه

وقطته، وعنزته، ودائمًا ما يفضل الحديث مع نفسه، في البداية همسًا وكأنه يشاهد فيلمًا سينمائيًّا، يطلق العنان لذكرياته تعرض صورًا من الماضي أمام عينه، ثم يبدأ بعدها، مثلي أنا، في مخاطبة نفسه، وتوجيه النصائح لها، وسؤالها. أسأل نفسي وأستجوبها فأعرف منها أدق الأمور، أوجه لها الاتهام مثل وكلاء النيابة، أدافع عنها، أصل بها من خلال الحديث وتدريجيًّا إلى معنى الحياة، لا إلى ما كان وما حدث في ما سبق، لكن إلى ما سيحدث، إلى ما هو وراء الطريق الذي سلكته، وعليّ أن أواصل السير فيه. ويظل هناك المزيد من الوقت كي نصل بالتفكير إلى حالة السكينة التي تحول بين الإنسان ورغبته في الهروب من الوحدة، من أشد الأسئلة أصالة، وعلى الإنسان أن يجد في نفسه القوة والشجاعة الكافية كي يسألها... وهكذا رأيت أنا، عامل الطرق الذي يجلس في الحانة كل سبت حتى المساء، وكلما طال فيها جلوسي زاد لقائي بالناس، وعظم تفكيري في الحصان الواقف أمام الحانة، وفي الوحدة القاتلة في بيتي الجديد، رأيت كيف أن الناس يحجبون عني ما أردت أن أراه وأعرفه، شغلهم الشاغل هو التلهي كما أتهلى أنا. كلهم يؤجلون السؤال الذي حتمًا سيسألونه يومًا ما، عندما يحالفهم الحظ، ويجدون له وقتًا قُبيل أن توافيهم المنية... دائمًا ما تأكدت في تلك الحانة أن جوهر الحياة يكمن في السؤال عن الموت، وكيف سأتصرف أنا عندما يأتي دوري، لا أقصد الموت، بل دوري في أن أسأل نفسي. حوار تحت مظلة الأبدية، والخلود. يصبح حل قضية الموت بداية التأمل والتفكير

في كل ما هو جميل. تذوق عبثية طريقي الذي سينتهي في كل الأحوال برحيل مبكر. تذوق واستمتاع بالسقوط يملؤني مرارة، أي جمالًا. وهكذا صرت في تلك الحانة مدعاة سخرية الجميع. سألت كل من التقيته هناك عن المكان الذي يفضل أن يدفن فيه؟ فزعوا جميعًا في البداية، ثم سرعان ما هزروا منه حتى دمعت أعينهم من الضحك، وسألوني بدورهم عن المكان الذي أفضله أنا كي أدفن فيه عندما يحالفني الحظ، ويعثرون عليّ. لم يعثروا على عامل الطرق الذي سبقني إلا في الربيع، بعد أن التهمه الزَبابات والفئران والذئاب، ولم يدفنوا منه سوى حزمة عظام. وكأنه اسبراجس أو عظام لحم في حساء من العظام! حدثتهم بكل حماس عن قبري بعدما أموت هنا. حتى لو لم يبقَ مني سوى عظمة واحدة، مجرد جمجمة، أريد أن أدفن في تلك الجبانة الواقعة فوق قمة الجبل، أريد أن أدفن في رأس تلك الجبانة، أريد أن يتكسر نعشي فوق ذلك الخط الفاصل بعد حين، فيحمل المطر ما تبقى مني، ويوزعه على قطبي العالم، تحمل المياه جزئي الأول إلى جداول الماء التشيكية، والجزء الثاني إلى الجانب الآخر، عبر الحِبال الشائكة فوق الحدود، وتصبه في الدانوب، أريد أن أصبح مواطنًا عالميًّا حتى بعد موتي، فيحملني نهر فلتافا وإلبه إلى بحر الشمال، ويذهب الجزء الثاني إلى البحر الأسود عبر الدانوب، أصل من البحرين إلى المحيط الأطلسي... صمت كل الحاضرين في الحانة، ونظروا إليّ، ودائمًا ما سألتهم. أسئلة سعت القرية بأكملها إلى سماعها كلما جئت إليها. دائمًا ما وجهوا

لي سؤالًا أجيب عنه في كل مرة بنفس الإجابة: ماذا لو وافتني المنية في مدينة براج؟ أو في برنو؟ ماذا لو مت في بلهريموف، ماذا لو أكلتني الذئاب؟ ودائمًا ما رسمت الصورة كما تحدث عنها بروفيسور الأدب، بأن الإنسان لا يفنى، لا نفسيًّا ولا جسديًّا، لكنه فقط يتبدل، يتحول. تحدثا ذات يوم، هو ومارتسيلا، عن إحدى القصائد. كانت قصيدة لشاعر اسمه ساندبرج. تتناول القصيدة أصل الإنسان، وأنه يمتلك في داخله فسفورًا يكفي لصنع عشر علب كبريت، يحتفظ في جسمه بحديد يكفي لعمل وتد يشنق نفسه عليه، يمتلك ماء يكفي لعمل عشرة لترات من حساء الكرشة... قلت هذا للريفيين فتملكهم الرعب، وخافوا مني. اكفهرت وجوهم جميعًا مما سمعوه، ومما ينتظرهم... فضلوا أن يستمعوا إلى ما سيحدث لهم بعد أن يموتوا. صعدنا ذات يوم إلى الجبانة فوق التل، وأشرت إلى الأماكن الفارغة التي منها ستنقسم رفاتهم بعد دفنهم إلى نصفين، نصف إلى بحر الشمال والنصف الآخر إلى البحر الأسود. المهم أن يوضع الكفن بالعرض وكأنه فوق قمة سطح المنزل... عُدت بعدها بالمشتريات إلى البيت، أفكر طوال الطريق، ألهو طوال الطريق، أردد كل ما قلته وما فعلته طوال ذلك اليوم. أسأل نفسي إن كان ما قلته أو فعلته صوابًا. رأيت أن أهم ما في الأمر هو أني قضيت وقتًا ممتعًا، ليست كمتعة الأطفال أو السكارى، لكن كما علمني أستاذ الأدب الفرنسي، أن اللهو هو ضرورة ميتافيزيقية، وعندما يتلهى الإنسان بشيء يكون قد حقق مبتغاه، أبناء الأغبياء الأشرار المجرمين، هذا ما

كان يقول، ثم يسبنا كي يصل بنا إلى مقصده، أن نرى الشعر لهوًا. نرى الأشياء والأحداث جميلة، والجمال دائمًا له تبعاته، ومجاله الذي يتجه نحو التسامي، نحو الأبدية والخلود. أقمت في ذلك المسكن، في صالة الشراب التي كانت في الوقت نفسه حلبة رقص. ولما عجزت عن تغيير الحال، أن يكون لي فيه رفيق، أن يأتي شخص ما، اشتريت من القرية قبل حلول الشتاء مرآة قديمة ضخمة. جاءني كثير منها مجانًا بعد أن ودّ أصحابها التخلص منها، قالوا إنهم كلما نظروا فيها رأوا الألمان. خبأتها في ألواح الخشب وأوراق الجرائد... وحملتها معي إلى البيت. بقيت طوال اليوم أدق أوتادًا صغيرة في الحائط، وأثبت عليها المرايا. ملأت بها الحائط... بعدها لم أعد وحيدًا. أتطلع إلى أن أقف أمام نفسي كلما عدت إلى البيت، أنحني لنفسي أمام المرآة، وأتمنى لنفسي أمسية طيبة. لن أكون وحدى قبل أن أنام. لن أكون وحدي، سنصبح اثنين. سنفعل نفس الحركات، لكني سأقدر على أن أسأل نفسي بمزيد من الواقعية... كلما أنصرف ألتفت ورائي، أرى قريني في المرآة يبتعد، يذهب كل منا في اتجاه، أنصرف من الغرفة وأبتعد، أنا وهو... لم أستطع فهم تلك الصورة، لماذا لا أرى نفسي كلما انصرفت، لماذا كلما أدرت رأسي أرى وجهي، لا ظهري. لا بدَّ أن أضع مرآة أخرى. وبدأت أسعد من لمس أشياء كانت خفية، لكنها موجودة، صار المستحيل حقيقة. كلما عدت بالمشتريات أيام السبت، ومعي راتبي أتوقف تحت الجبانة العالية، أتقدم من جدول الماء تتساقط فيه خيوط الماء القادمة

من الآبار، ومن جداول ماء أصغر. حتى الصخرة هنا في هذه المنطقة تذرف المياه بلا توقف، في كل مرة أغتسل فيها، أغسل وجهي بمياه باردة، رائقة، أرى سوائل المقبورين في الجبانة تتساقط إلى ذلك الجدول بلا توقف. تصل إليه مرشحة مصفاة بأرض جميلة قادرة على أن تحول الجثث إلى أوتاد قد أشنق نفسي عليها، بمياه رائقة أغسل فيها وجهي، تمامًا كما سيفعلها أحد غيري بعد أعوام، ويغسل وجهه ببقاياي، سيشعل أحدهم عود ثقاب من فوسفور جسدي... لم أمنع نفسي. شربت من ماء ذلك النبع أسفل الجبانة. تذوقت الماء في البداية، مثل خبير في شرب النبيذ، خبير يميز عربات القطارات التي تتحرك يوميًّا بالمئات من رائحة الكرم أو اللهب الذي يشعله صناع النبيذ، في كل يوم كي يسخنوا وجبة طعام أو غذاء. يُعرف ذلك الدخان من شربة نبيذ، كذلك أنا، تذوقت طعم الموتى المقبورين من زمن في مقابر فوق الهضبة. تذوقتها لنفس السبب الذي جئت بالمرايا إلى هنا من أجله. لأنها تحفظ آثار الألمان الذين نظروا فيها قبل أن يرحلوا منذ أعوام، لكن رائحتهم باقية في تلك المرايا التي أديم النظر فيها كل يوم، المرايا التي أتجول فيها كما أتجول في مياه الراحلين. أتجول وألمس صورًا لا تكاد ترى، لا يراها سوى إنسان صار المستحيل له حقيقة. تخبطت بين صور فتيات بثوب الدريندل، وبالأثاث من ورائهن، وبمشاهد الأسر الألمانية... منحني هؤلاء الريفيون تلك المرايا، وأعطيتهم في المقابل فرصة للنظر في مراياهم التي تنتظرهم في الجبانة. أطلقوا النار قبيل

عيد الأرواح على كلبي الذي علمته، في الواقع هو من علمني. أخذ مني كيسًا في فمه ليخبرني أنه ذاهب معي للشراء. ثم رأيته ينطلق وحده على الطريق ناحية القرية... كتبت له على ورقة، من باب التجربة، ما أحتاجه، فانصرف مهرولًا... عاد بعد ساعتين، ووضع حقيبة المشتريات... وبدلًا من أن أركب حصاني وأذهب إلى القرية أرسلته يومًا بعد يوم يحمل حقيبة ليحضر لي المشتريات... ذات يوم عندما ترقب هؤلاء الريفيون حضوري دون جدوى، ورأوا كلبي يحمل المشتريات عوضًا عني أطلقوا عليه النار كي يُحضروني إلى الحانة... بكيت، بقيت أسبوعًا كاملًا أبكيه. ثم جهزت حصاني، كانت بشائر الثلج قد بدأت تسقط، ذهبت لأستلم راتبي، وشراء مزيد من الطعام لأشهر الشتاء. غفرت للقرويين كل شيء لأنهم سعوا إلى رؤيتي، توقفوا عن السخرية مني، أو سخروا على نحو مغاير، سخرية أرقى، لم يقدروا على التواجد في الحانة من دوني، أو كما قالوا، افتقدوني بينهم، لم يتمنوا موتي، أرادوا أن أكون وسطهم مرة كل أسبوع، فالكنيسة بعيدة، وأنا أجيد الحديث أفضل من الكاهن... جاءني كلبي حتى بعد أن فجروا رئتيه. جاءني يحمل المشتريات، ربتّ على جسده، وأعطيته قطعة سكر إمارة شكر وعرفان، لكنه لم يأخذها. دسّ رأسه في حجري، واستسلم للموت، مال علينا الحصان يشتم الكلب، ثم جاءت العنزة، والقطة التي نامت بجوار الكلب، ولم تسمح لي يومًا أن ألمسها، فقط من بعيد. يبدو أنها أحبتني كثيرًا. كلمتها وهي مستلقية على ظهرها تتقلب، وتتشقلب، تصوب

نحوي أرجلها ونظراتها وكأنها تدعوني إلى أن أدلك رقبتها أو جلدها، لكن كلما مددت يدي دفعتها قوة حيائها الوحشية بعيدًا عن مدى أصابعي... جاءت القطة، ودست جسدها، كما اعتادت، في فرو الكلب. بسطْت لها راحتي لكنها انتبهت إلى عيني الكلب التي تنطفئ، ربت عليها فنظرت إليّ. ساءها أن ألمسها، لكنها تجاوزت هذا الشعور لوفاة صديقها. أغلقت عينيها وفضّلت أن تدس رأسها في فرو جلده كي لا ترى ما تخشاه، ولطالما اشتاقت إليه.

ذات يوم بعد الظهيرة وأنا في طريقي لأحضر ماء من البئر، غارقًا في أفكاري، شعرت بوجود أحدهم، رأيته على حافة الغابة يقف متكئًا بيده على شجرة، إنه زدينياك، ذلك الساقي السابق الشهير، زميلي في فندق تيخوتا، يقف محدقًا فيّ... عرفت وأنا الذي خدم ملك الحبشة أنه جاء خصيصًا ليراني. ليس في حاجة أن يقول إنه جاء فقط ليراني غارقًا في هذا العالم الموحش. فهو شخصية كبيرة في عالم السياسة، محاط بأناس كثيرة، رغم ذلك بدا لي وحيدًا، مثلي أنا... صببت الماء من المضخة، والحيوانات تراقبني. شعرت أن كل حركاتي يتابعها زدينياك. حرصت على أن أواصل ضخ المياه وكأن أحًدا لا يراني، رغم يقيني من أن زدينياك متأكد من أني أعرف أنه هنا. مِلت قليلًا، وأمسكت بذراع الدلو. أعطيت زدينياك وقتًا كي يتحرك، فأنا أسمع أي حركة وأي صوت من على بعد مئات من الأمتار. سألته إن كان يريد أن يخبرني بشيء. لم يكن في حاجة إلى أن يقول شيئًا. كفاه

وكفاني أني ما زالت على قيد الحياة، وأنه اشتاق إلى رؤيتي، مثلي أنا، كثيرًا ما تذكرته. رفعت الدلو من أذنيه، وتقدمت ناحية البيت والحصان ورائي، ومن خلفه العنزة والقطة. خطوت بحذر بعد أن سقط الماء على حذائي المطاطي. عرفت أني بمجرد أن أضع الدلو على عتبة الباب وألتفت ورائي لن أجد زدينياك، سينصرف راضيًا إلى سيارته الحكومية التي تنتظره خلف الغابة. سيعود إلى عمله الذي هو بالتأكيد أصعب من هروبي لأعيش وحيدًا. تذكرت السيد بروفيسور الأدب عندما قال إن الإنسان الحق، الإنسان العالمي هو من يقدر على الحياة مجهولًا، متخلصًا من أنانية مزيفة. وضعت الدلو، والتفت ورائي فلم أجد زدينياك، رحل من الغابة. أمّنت على أن هذا ما يجب أن يحدث، أن يظل كلانا بعيدًا عن الآخر. هكذا تحدثنا معًا، تحدثنا في صمت عما ما في أنفسنا، وعن آرائنا في العالم. بدأت الثلوج تتساقط في ذلك اليوم، ندف الثلج مثل طوابع البريد، ثلج هادئ تحول في المساء إلى عاصفة. تسلل تيار ماء بارد رائق إلى قبو البيت، وإلى مِزود طعام منحوت من حجر. كانت حظيرة الحيوانات في دهليز بجوار المطبخ، وصار روث الحصان الذي أتركه في الحظيرة، بناء على نصيحة أهل القرية، دافئًا، ودفّأ المطبخ وكأنه تدفئة مركزية. ثلاثة أيام وأنا أتابع الثلوج المتساقطة، وأستمع إلى حفيفها وكأنها فراشات صغيرة، دجاجات تتساقط من السماء. غطت الثلوج طريقي، وظلت تعلو حتى تراكمت فوقه في اليوم الثالث وفي كل المنطقة من حولي. لم يقدر أحد على تحديد

معالم الطريق. في اليوم الثالث سحبت زلاجة قديمة، أمسكت بعصي تهتز في يدي في كل لحظة، فضحكت. استدعت تلك العصي واهتزازها فكرة أن أمتطي حصاني وأنطلق به. تخيلت نفسي أطير فوق الطريق، أشق الوسادة الثلجية، ذلك المسند، تلك السجادة البيضاء السميكة، الغطاء الأبيض المنتفخ الذي يغطي بقعة الأرض من حولي... أصلحت المزلاج دون أن أنتبه إلى أن الثلج قد تراكم، وبلغ النافذة، وظل يتجمع إلى أن غطى نصفها. في تلك اللحظة، عندما نظرت، أصبت بالهلع من تزايد فيضان الثلوج. رأيت بيتي والحيوانات عالقين في السماء من سلاسل، بيتًا ريفيًّا معزولًا عن العالم، ممتلئًا عن آخره بصور ملتصقة على الحوائط مثل تلك المرايا المنسية لكن بغشاء رقيق، رأيتها مجرد صور غطيت بها المرايا، أو بتعبير آخر، صور تغطّى بها طريقي وحُوصر. صور تراكمت فوقها ثلوج زمان مضى، وبقيت الذكرى الشيء الوحيد المحسوس، كأيادي خبيرة تتحس شريانًا تحت جلدها لتعرف من أين وإلى أين ينبجس، وكيف ستكون حياتي في المستقبل القريب... خشيت في تلك اللحظة من أنني لو مت سيموت معي كل المستحيل الذي صار واقعًا، ومن الأفضل لي أن أكون، كما قال أستاذ علم الجمال والأدب الفرنسي، كائنًا يعبر عن نفسه... شعرت برغبة في تسجيل كل ما حدث، لا لكي يقرأه الناس، بل لأرسم بالكلمات كل تلك الصور التي تشابكت مثل خرزات، مثل حبات مسبحة على خيط حياتي الطويل، عثرت عليها هنا، وأنا أتابع بعيني في ذهول تلك الثلوج المتساقطة التي

غطت البيت من خلفنا... هكذا في كل مساء أجلس أمام المرآة، ومن خلفي القطة قابعة فوق ماكينة صب البيرة، تدس رأسها في صورتي في المرآة، وكأنها أنا، وأنا أنظر إلى يدي، تزايد هدير طوفان العاصفة الثلجية في الخارج كلما أطلت النظر إليها. رفعتها عاليًا، وكأنني أبتعد عن نفسي، نظرت في المرآة إلى يدي وأصابعي وهي تتحرك. رأيت أمامي الشتاء، تلك الثلوج، رأيت أني سأزيل الثلوج، وأتحسس الطريق، وأبحث عنه. وهكذا في كل يوم، بقيت أبحث عن الطريق إلى القرية. ربما هم أيضًا سيبحثون عن الطريق ليصلوا إليّ. قلت لنفسي إني سأبحث عن الطريق إلى القرية في النهار، وفي المساء سأنام. أبحث عن طريق العودة، ثم أمشي فيه، أزيل الثلج الذي غطى على ماضيّ... أحاول أن أسأل نفسي بالكلمات والكتابة.

سقطت الثلوج من جديد يوم عيد الميلاد، وغطت الطريق الذي اجتهدت في البحث عنه وإصلاحه طيلة شهر تقريبًا. حائط من الثلوج، تل بلغ صدري. قطعت ما يساوي نصف المسافة بين الحانة والمتجر الذي ظهرت فيه آخر مرة في عيد الأرواح. لمعت ذرات الثلج فوق روزنامة عالقة، زينت شجرة عيد الميلاد الصغيرة، وخبزت الحلوى. أضأت الشجيرة، وأيقظت الحصان والعنزة في الحظيرة. جلست القطة بجوار المدفئة فوق رف من القصدير. أخرجت حلتي كي ألبسها ولم أنجح، تساقطت الأزرار من بين أصابعي القوية، صارت يداي غليظة من شدة العمل فلم أقدر على أن أربط البابيون الأبيض كما ينبغي، سحبت من

الحقيبة حذاء اشتريته عندما كنت أعمل نادلًا في فندق تيخوتا، ولمّعته. وضعت الوشاح الأزرق على صدري، وعلقت عليه النجمة فتلألأت أكثر من الشجيرة نفسها، بينما الحصان والعنزة ينظران إليّ في هلع، ما جعلني ألاطفهما. ثم أعددت العشاء. علبة طعام محفوظ بها لحم وبطاطس. أعطيت العنزة طعامًا استثنائيًّا، فوضعت لها قطع تفاح في الشراب. كذلك فعلت مع الحصان الذي اعتاد تناول غدائه معي كل يوم أحد. وقف هو الآخر بجوار منضدة عريضة من البلوط، يتناول التفاح من الطبق، ويلوكه في فمه. هذا الحصان دائمًا ما ظن أني سأتركه هنا، وأرحل عنه، فظل يرافقني في كل مكان أذهب إليه، ومن ورائه العنزة التي اعتادت رفقته، والقطة التي اعتادت شرب لبن العنزة. رافقتها في كل مكان ظهر فيه ضرعها. وهكذا كنا نذهب إلى العمل ونعود منه. يتبعونني وأنا ذاهب وقت الخريف لأحضر القش. يرافقونني حتى وأنا ذاهب إلى المرحاض كي لا أهرب منهم... عندما رأيت فتاة مصنع الشكولاتة أوريون في الأسبوع الأول تمنيت أن أراها مجددًا، أن أعرف إن كانت ما زالت تحمل الكتب تحت إبطها وهي ذاهبة إلى مصنع الشكولاتة. حَنَنْتُ إليها، وجمعت أهم ما أحتاجه، ثم انطلقت صوب القرية قبل بزوغ النهار. هناك انتظرت الحافلة. جاءت، وما إن وضعت قدمي فوق أول درجات سلمها رأيت حصاني يهرول ناحيتي على الطريق الذي جئت منه، ومن خلفه الكلب ووراءه العنزة تتهادى... جاؤوا جميعًا ناحيتي. نظروا إليّ بتضرع صامت كي لا أتركهم وحدهم. التفّت الحيوانات من حولي،

ثم جاءت تلك القطة البرية، وقفزت فوق مقعد يضعون عليه إبريق الحليب. تركت الحافلة، وعدت مع حيواناتي التي لم أَغِب بعدها لحظة عن أعينها، حاولت أن تسرّي عني؛ القطة تقفز مثل طفل صغير، والعنزة تسعى إلى أن تتخذني خروفًا صديقًا، وتقف على قدمين تمازحني، وتنطحني في رأسي. لم يفعل الحصان شيئًا، لكنه في كل لحظة يمسكني بشفتيه الناعمتين من يدي، وينظر إليّ، وعيناه تبرقان هلعًا... بعد العشاء، وكما هي العادة في كل يوم، يتقوقع الحصان بجوار المدفأة، يتنفس بعذوبة، والعنزة مستلقية بجواره، وأنا أواصل رسم الصور بالكلمات، مستغرقًا في أفكاري. في البداية ظهرت لي تلك الصور غامضة، رسمت واحدة منها بلا قيمة، وفجأة انفرطت الصور، صورة وراء صورة، صفحة وراء صفحة. صور تمرق سريعًا أمام عيني، وتتزايد سرعتها أكثر فأكثر، حتى قبل أن أكتبها. منعني تدافع الصور من النوم، لم أسمع حتى صوت عاصفة بالخارج، ولم أنتبه إلى ضوء القمر الساطع، وزجاج النوافذ الذي كاد يتصدع. في النهار أنظف الطريق من الثلوج، وفي الليل أفكر في طريقي، أمسك بالقلم، وأشرع في كتابة ما قضيت اليوم بطوله أمعن التفكير فيه، أقضي الليل في تسجيل كل ما خطر لي وأنا أعبّد الطريق. أنتظر حيواناتي في المساء، فهي تفضل الهدوء، تتنفس بعذوبة، وأنا كذلك أنتهد بارتياح، وأواصل الكتابة، ألقي قطعة خشب في المدفأة فتحتدم النيران في وداعة، وتطقطق، والرياح تهب أسفل النوافذ... ظهرت أنوار تحت النوافذ عند انتصاف ليل عيد الميلاد.

وضعت القلم جانبًا، وصار المستحيل واقعًا. خرجت أمام البيت فرأيت أهل القرية قادمين نحوي من الجهة الأخرى فوق زلاجاتهم. بعض المواطنين البائسين المحطمين، رواد الحانة الذين اشتاقوا لرؤيتي فأطلقوا النار على كلبي. ها هم الآن يأتون إليّ فوق الزلاجات... دعوتهم إلى حانتي، إلى بيتي الذي أسكنه... نظروا إليّ، رأيت دهشتهم. من أين لكَ هذا؟ من أعطاكَ هذا؟ لِمَ ترتدي هذه الملابس؟ قلت: اجلسوا، أيها السادة، أنتم اليوم ضيوفي. لقد كنت في السابق نادلًا. فاهتابوا مني، وكأنهم يتأسفون عليّ أنهم جاؤوني... وما هذا الوشاح، وهذا النوط؟ قلت: لقد حصلت عليهم منذ سنوات بعيدة، فأنا من خدم ملك الحبشة... قالوا في وجل: ومن تخدم اليوم؟ قلت لهم: ضيوفي الأعزاء، أنا اليوم أخدم هؤلاء، وأشرت إلى الحصان والعنزة اللذين وقفا. أرادت الحيوانات الانصراف إلى الحظيرة، رفست الباب ففتحته لهم، انصرفوا عبر الممر إلى حظيرتهم واحد تلو الآخر. لكنّ القرويين صعقوا من النوط البراق، والوشاح الأزرق وتسمروا أمام الباب. هنؤوني، وتمنوا لي أعيادًا سعيدة، ودعوني كي أشاركهم غداء عيد القديس ستيفان[52]. ثم انصرفوا. رأيت ظهورهم في المرايا. وتابعت ضوء المشاعل وهو يبتعد من وراء زجاج النافذة، وأصوات الأجراس تذبل، وحفيف الزلاجات يخفت. وقفت أمام المرآة وحدي، أنظر إلى نفسي، يتعاظم الخوف في داخلي كلما أطلت النظر. خفت

52- عيد القديس ستيفان هو اليوم الخامس والعشرين من ديسمبر. اليوم التالي ليوم عيد الميلاد. (المترجم)

وكأنني أقف أمام رجل غريب، رجل أصابه الجنون... نفخت في صورتي في المرآة، وطبعت قبلة عليها فوق زجاج المرآة البارد، ثم رفعت ذراعي نحو المرآة، ومحوت الضباب من فوقها إلى أن ظهرت عليها صورتي من جديد وأنا أحمل مشعلًا وكأنه كأس أقرعها في صحتي. سمعت الباب يُفتح من خلفي في هدوء، فتجمدت مفاصلي... دخل الحصان، ومن ورائه العنزة. قفزت القطة فوق رف القصدير بجوار المدفأة. أسعدني أن الفلاحين تكبدوا عناء الطريق من أجلي، وأنهم جاؤوا ليروني، وأنهم خشوني. لا بدَّ أني أستحق أنا أكون رجلًا استثنائيًّا، فأنا تلميذ سكرشيفانك، كبير السقاة، الرجل الذي خدم ملك إنجلترا، أنا من نال شرف خدمة ملك الحبشة، وأسداني شرفًا دائمًا بأن أعطاني هذا النوط الذي منحني طاقة أكتب بها للقراء هذه الحكاية... وصار المستحيل واقعًا.

هل اكتفيتم؟ هذا هو بالفعل كل ما لديّ.

كُتبت هذه النصوص تحت شمس الصيف الحارقة التي لفحت ماكينة الكتابة التي أكتب عليها، فتعثرت وتلعثمت. لم أتحكم في ما أكتبه وأنا عاجز عن النظر إلى الأوراق البيضاء الناصعة. كتبت ما كتبت بتلقائية وبنشوة مبهرة. أبهرني ضوء الشمس إلى درجة أني لم أرَ سوى أطراف آلة كاتبة لامعة سطحها من المعدن. سطح سخَن لعدة ساعات، فالتَوت الصفحات المكتوبة من الحر حول أذرع الماكينة. تداعت عليّ أحداث آخر تسعة أشهر إلى درجة أني لم أنتبه إلى موت القطة، ودعتني الأحداث لأن أسجل المشاهد في النص فور ظهورها. تمنيت أن يسعفني الوقت يومًا، وأجد في نفسي الشجاعة على تصحيح النص وتنقيحه ليصل إلى صيغته المعهودة، أو أحمل مقصًّا –تحت تأثير اللحظة، ومن أجل أن أوفر على نفسي وأمحو لحظة العفوية الأولى– وأقص منه كل الصور التي مع الوقت ستصبح أكثر حيوية. وإن لم أكن وقتها على قيد الحياة سيفعلها أحد أصدقائي. سيجعل منها نوفيللا صغيرة، أو قصة كبيرة. انتهى!

ملحوظة:

قضيت شهر الصيف أكتب هذا النص، وعشت تحت تأثير «الذاكرة الكاذبة» لسلفادور دالي، ونظرية فرويد عن «الشعور المكبوت الذي يجد له في الحديث مُتنفسًا».